بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم : ابراهيم الترزى

حرص المجمع على الأخذ بنهج التزمه فى مؤتمرات سابقة ؛ وهو اقتراح موضوع يدعو أعضاءه إلى أن تتجه إليه بحوثهم ؛ لعل المجمع بذلك لايدَعُ قضية من قضايا العربية — وما أكثرها — دون أن تتناولها بحوث أعضائه فى مؤتمراتهم ، عاماً بعد عام .

وقد كانت العربية المعاصرة ، وآدابها ، وعلاقتها بالعامية ، ومايتصل بهذا كله من مشكلات — تستنهض همم الباحثين لدراستها : فى نشأتها وتطورها ، والعوامل المؤثرة فيها ، إيجاباً وسلبا ، تأثيراً وتأثراً شكلاً وموضوعا ، فى أبعاد تتجه إلى الأعماق ، وأخرى تشق الآفاق .

وإذا كان الجزء الثالث والأربعون من مجلة المجمع ، الخاص بمؤتمر الدورة الخامسة والأربعين ، قد طالعنا ببحوث استجابت لاقتراح المجمع بأن تدرس موضوع « اللغة العربية ووسائل الإعلام »— فإن هذا الجزء من المجلة ، الخاص بمؤتمر الدورة السادسة والأربعين يُطالعنا ببحوث استجابت لاقتراح المجمع بأن تتجه بعض البحوث فى هذا المؤتمر إلى دراسة « الأدب العربى المعاصر » .

وفى مستهلّ هذا الجزء من المجلة نلتقى بكلمات جلسة افتتاح المؤتمر ، وهى كلمة السيد وزير الثقافة والإعلام الأستاذ منصور حسن ، وكلمة الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع ، التى عرضت للموضوع الرئيسى للمؤتمر ، وهو الأدب العربى المعاصر ، وكلمة الدكتور مهدى علام ، الأمين العام للمجمع ، التى نوّهت بأوجه النشاط المجمعى ، بين المؤتمرين : السابق واللاحق .

ثم نلتقى فى هذا الجزء من المجلة ببحوث اتجهت للموضوع المقترح فى هذا المؤتمر وهى بحوث : « الأدب العربى المعاصر » للأستاذ محمد خلف الله أحمد ، و « لغة المسرح بين العامية والفصحى » للدكتور شوقى ضيف ، و « قضايا حول الشعر العربى » للأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، و « والأداء واللغة فى شعر بدر شاكر السياب » للدكتور إبراهيم السامرائى .

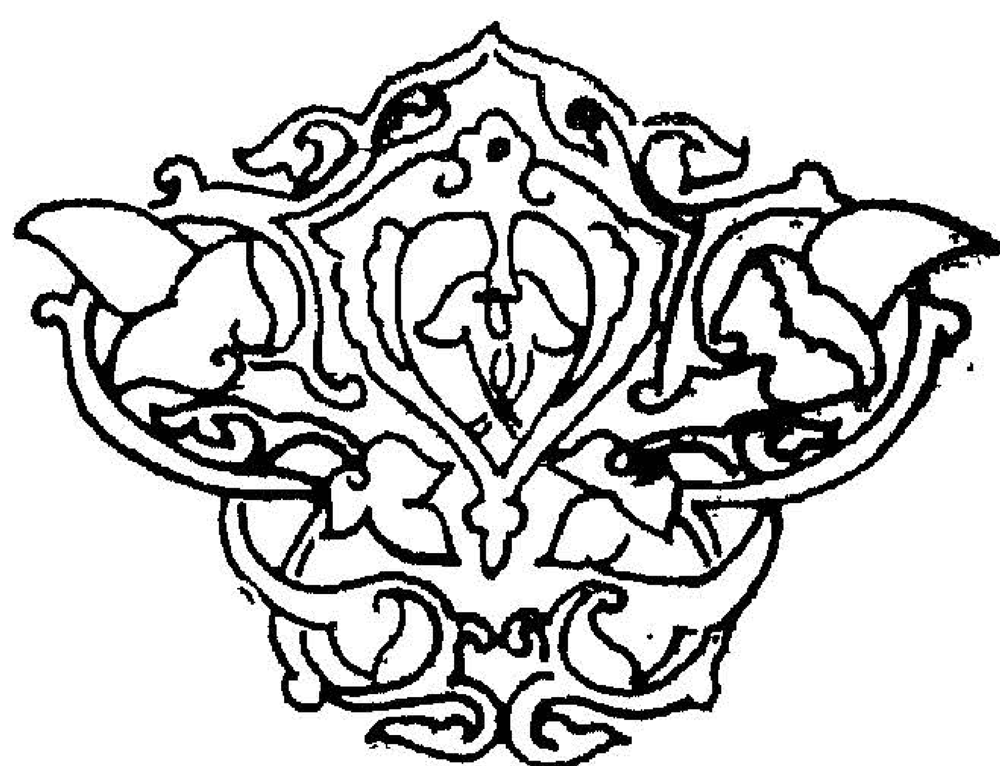
ويواصل الأستاذ على النجدى ناصف بحوثه اللغوية القرآنية ببحثه : « بين مرضعة ومنفطر فى القرآن الكريم » ، ويتجه بحث آخر إلى الحديث النبوى الشريف ، فيبحث

الدكتور أحمد الحوفى « كلمة أريسيِّين فى كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل » .

ويطالعنا هذا الجزء ببحوث أخرى ، فى موضوعات شتى ؛ وهى : « توحيد المصطلح العلمى فى النقـل والتعريب » للدكتور شوقى ضيف ، و « تأصيل بعض الدخيل من أسماء الملابس والأطعمة فى كتاب الجبرتى » للدكتور حمد السعيد سليمان ، و « اللغـة الصامتة » للدكتور إسحاق موسى الحسينى . ويجلو الدكتور محمد رفعت فتح الله صفحات من الحياة الأدبية لشاعر من آل المهلب ، هو « يزيد بن محمد المهلبى » ، ويُتحفنا الأستاذ عبد السلام هارون بما انتخبه من ذخائر العربية ، فى كناشته الحافلة بنوادر تلك الذخائر .

ويُتابع الطبيب الشاعر الدكتور حسن على إبراهيم المسيرة العطرة لشعره فى المديح النبوىّ . حتى يقف أمام قبر الرسول صلى الله عليه وسلم . وقفة شوق وحب ، وإجلال وتكريم . مُحلِّقاً بخواطره الشعرية فى رحاب خاتم الأنبياء والمرسلين .

ابراهيم الترزى
رئيس التحرير



١ – كلمة السيد الأستاذ منصور حسن
وزير الدولة لرئاسة الجمهورية ووزير الثقافة

السيد رئيس مجمع الخالدين :

السادة الأجلاء أعضاء المجمع :

فى حياة كل منا مواقف مشهودة منشودة يكون لها فى نفسه أكرم منزلة ، وأعظم شأن ، ثم تظل هذه المواقف – بعد ذلك ذكرى تغاديه وتراوحه ، بكل الإعزاز والاعتزاز ! ! .

من هذه المواقف العزيزة الكريمة موقفى هذا ، وقد شرفنى الخالدون بافتتاح مؤتمرهم المجمعى ، الذى يضم صفوة أعلام اللغة والأدب والعلم .

أساتذتى الأجلاء :

إذا كان من حقكم بل إذا كان من واجبى أن أحيى فيكم ما تبذلون من جهد ومن وقت ، لهذا المؤتمر ، تحية مقرونة بكل التقدير والعرفان ، إذا كان هذا من حقكم أو من واجبى ، فإن الأحق والأوجب أن أتجه بادئ بدء ، بهذه التحية والتقدير والعرفان ، إلى إخوانكم الذين جمعوا إلى بذل الجهد والوقت ، مشقة الرحيل عن بلادهم ، تحدوهم فى ذلك غاية مشتركة لتتابع لغتنا العربية تطورها الحضارى على مدى العصور ، وغزواتها المظفرة لأبعد آفاق العلم والأدب والفن ، فى مجالاتها المحلية والعالمية .

أيها السادة :

لقد شاء الله – جلت حكمته – أن يكرم الأمة العربية بأن جعل منطقها بلسان عربى مبين ، وشاء الله – جلت حكمته – أن يكرم هذا اللسان العربى ، فاختاره ليكون المعبر عن وحيه الإلهى وتشريعه السماوى .

وهكذا أكرم الله الأمة العربية بلغتها ، وكرم لغتها بأن جعلها لسان كتابه الكريم ، ثم كرمكم أنتم أيها الخالدون بأن جعلكم سدنة هذه اللغة ، الأمناء عليها ، الحرصاء على أن تتواصل أمجادها بالتعبير عن الحضارة فى مختلف جوانبها ، وفى تطويرها وتجددها ، على مدى الأزمان ، فما تضيق لغتنا بمعنى وإن جل ، ولا تعجز عن مسمى وإن دق ، ولا تتباطأ خطاها عن مواكبة العصر بمستحدثاته ومخترعاته .

وكأنى بشاعر النيل حافظ إبراهيم يطل علينا بروحه من علياء الخلود ، سعيداً مزهوا

بتحقيق ما دعا إليه ، ونوه به ، حين قال على لسان اللغة العربية :

وسعت كتاب الله . . لفظاً وغايةً
وما ضقْتُ عن آى بِهِ وعظَات
فكيفَ أَضيقُ اليومَ وَصْفِ آلة
وتَنْسيق أسماءٍ لمُخْتَرَعات ؟ !
أنا البحْرُ فى أحشائه الدرُّ كامنٌ
فهل ساءلوا الغوّاص عن صدَفاتى ؟ !

أساتذتى الأجلاء :

لقد اتسعت جهودكم ، وتنوعت ، وتلاحقت فى خدمة اللغة العربية حتى تلبى مطالب العصر وتفى بحاجاته ، وليس فى وسعى تعداد هذه الجهود فى مجال المصطلح العلمى ، الذى أنجزتم منه عشرات الألوف ، فى فروع العلوم والآداب والفنون ، ولا فى مجال تبسيط قواعد العربية ، وتيسير ضوابطها ، وتحرير ألفاظها وأساليبها ، ولا فى مجال المعجمات العامة ، كالمعجم الوسيط ، والمعجم الكبير ، أو المعجمات المتخصصة ، كمعجم ألفاظ القرآن الكريم ، والمعجم الجيولوجى والجغرافى والفيزيقى ، والفلسفى ، والطبى ، ولكن يطيب لى أن أنوه بما عمد إليه المجمع من وضع معجم أسعدتنا البشرى بقرب صدوره ، ذلك هو المعجم الوجيز ، الذى كان حلما راودَ المثقفين منذ عشرات السنين ، وهكذا سيتاح لأبنائنا فى مراحل التعليم ، وفى محيط الثقافة العامة معجم للعربية ، على أحدث الأنماط العصرية فى التنسيق والترتيب يضم بين دفتيه من الألفاظ والمصطلحات ما تمس إليه الحاجة العلمية والحضارية ، فى تعريف موجز واف ميسور ، وبأسلوب واضح جلىّ ، وبذلك يجد الدارس والمثقف فى هذا المعجم رفيقاً لغويا ، يسعفه عند الحاجة ويغدق عليه المعرفة اللغوية من مورده العذب المصفى .

أيها السادة :

لا يسعنى — وأنا أختتم كلمتى — إلا أن أجدد تحيتى لكم ، وترحيبى بكم ، راجياً طيب المقام لمن شرفنا بالقدوم إلى هذا المؤتمر من خارج مصر .

حفظكم الله ورعاكم حماة للغتنا ، قوامين عليها لتؤدى — على خير وجه — رسالتها الحضارية الخالدة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



٢ - كلمة افتتاح المؤتمر
للدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع

سيادة الوزير :

سيداتي - سادتي :

أضم صوتي إلى صوت السيد الوزير ، مرحبا بضيوفنا الكرام ، ومتمنيا لهم طيب الإقامة . ونحن نرقب كل عام هذا اللقاء لكي نتبادل معهم الرأى ، ونتعاون جميعا على خدمة لغتنا وتطويعها لمتطلبات العلم والحضارة . وقد قيل من قديم إن المجمعيين حماة اللغة ، وظن خطأ أن هذه الحماية تقضى بأن يقفوا عند القديم وحده ، ولا يفسحوا المجال لشيء سواه ، وهذا دون نزاع زعم باطل ؛ ذلك لأن للغات حياة تسير بسير الزمن ، وتسد حاجات العصر . ونحن نتحدث عن أدب معاصر ، وهذا التعبير نفسه خير شاهد على هذه الحياة :

وأدبنا المعاصر صنيعنا ، ووليد ظروفنا وبيئتنا . يتسم بسمات تميزه من الأدب الجاهلي ، وتباعد بينه وبين أدب عصور الركود والظلمة ، ومن أخص خصائصه أنه أدب سهل ، يمقت الصنعة والتكلف ، وينفر من الغموض والتعقيد ، ويتحاشى الغريب والحوشي ، هو أدب سهل في لفظه وتركيبه ، يتخير أرق الألفاظ وأعذبها ، ويستمسك بأفهم العبارات وأدلها ، لا يروقه السجع الثقيل ، ولا الكتابة الغامضة ، ذلك لأنه أدب أفكار ومعان ، لا مجرد رص جمل وتراكيب ، هذا إلى أنه أدب عصر السرعة الذي يصوب إلى الهدف من أقصر طريق. وهو أيضا أدب ديمقراطي يخاطب الناس عامة . ويحرص على أن ينفذ إلى قلوب الجماهير ، لم يبق فيه محل للغة خاصة ، ولا لأسلوب مقصور على أرستقراطية معينة . وهو مع هذا ينكر الأدب الرخيص ، أدب التملق والزلفى أو أدب الانحراف الذي يستغل بعض العواطف . ويزين للناس حب الشهوات :

وهو أخيراً أدب نام ومتجدد ، له نثره ونظمه ، فيه البحث والمقالة ، والرواية والقصة وفيه شعر موزون مقفى ، وآخر حر طليق : وفي كل ذلك الغث والسمين ، ونحن نريد له بجميعه أن يكون أدب نهضة وتجويد . وأدبنا كسائر الآداب الحية ، يأخذ ويعطى ، وهذا نفسه أمارة حياة وقـوة . يأخذ اليوم كما أخـذ بالأمس ، وقد أخذ فعلا عن بعض الآداب الأخرى ألفاظا وأساليب ، ازدادت بها ثروته ، وتنوع مجال القول فيه . ولا

ضير فى شىء من ذلك متى أحسن استخدامه ولم نخرج به عن أصول اللغة ومبادئها . وأوضح ما يكون أخذه فى لغة العلم والحضارة وهى فى تطور مستمر لا بد لنا أن نسير معه ، ونفيد منه . وعطاء أدبنا آية من آيات جودته وقوته ، ودليل واضح على ابتكاره وطرافته . وقد ترجم فى نصف القرن الأخير قدر غير قليل من إنتاج كبار كتابنا وأدبائنا إلى بعض اللغات الحية الكبرى ، وهذا تبادل ثقافى هام نرجو له أن ينمو ويطرد .

* * *

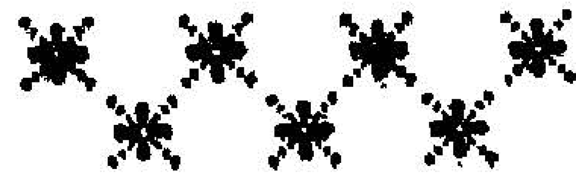
سيداتى سادتى .

يتابع مجمع اللغة العربية سير أدبنا المعاصر ، ويرقب حركاته ، وييسر له وسائل النهوض والتقدم ، ويشجع الشباب على الإقبال عليه ، والعناية به ، بما يقترح من موضوعات بحث ، وما يمنح عليها من جوائز . ويعنى عناية خاصة بلغة العلم والحضارة ، لأنها لغة الحاضر والمستقبل ويسهم إسهاماً واضحاً فى تعريب التعليم العالى والجامعى ، وفى وسعنا أن نقرر أن ليس ثمة هيئة علمية أخرى عنيت بالمصطلح العلمى العربى عنايته ، وهو يقدم منه كل عام فى مؤتمره زاداً يفيد منه الدارسون والباحثون وليست عنايته بمستحدثات الحضارة بأقل من عنايته باللغة العلمية ،وفيه لجنتان تغذيان المجلس والمؤتمر بغذاء متصل ، وهما لجنة ألفاظ الحضارة ، ولجنة الألفاظ والأساليب . ويكفى أن أشير إلى أن قدراً من المعروض على هذا المؤتمر ينصب على لغة المسرح والسينما .

وفى جدول أعمال مؤتمرنا محاضرتان عامتان ، يسعدنا أن نفتح الباب فيهما للدارسين والباحثين والمستفسرين ، وتدور أولاهما حول : لغة المسرح بين العامية والفصحى . وسيتولاها الدكتور شوقى ضيف ، وموعدنا معها الخامسة من مساء يوم السبت ٢٢ من مارس فى دار الجمعية الجغرافية . وتنصب الثانية على قضايا حول الشعر العربى . وصاحبها شاعر فذ هو الأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، وموعدنا معها يوم الثلاثاء ٢٥ من مارس الساعة الخامسة فى دار الجمعية الجغرافية .

وسيعرض الزميل الدكتور محمد مهدى علام الأمين العام للمجمع صورة أوفى لنشاط المجمع طوال العام .

والسلام عليكم ورحمة الله .



٣ — المجمع بين مؤتمرين
للدكتور مهدى علام الأمين العام للمجمع

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد وزير الدولة لرياسة الجمهورية ووزير الثقافة :

السيد رئيس المجمع :

السادة الزملاء أعضاء المؤتمر :

سيداتى . . سادتى :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته وبعد :

فها نحن نلتقى ، وقد أكمل مجمعنا خمسا وأربعين دورة مجمعية ودخل فى فلك دورته السادسة والأربعين ، التى نجتمع اليوم فى مستهل مؤتمرنا ، الذى نرجو له التوفيق إن شاء الله تعالى ، بفضل جهود أعضائه الأجلاء ، الذين سيدرسون حصيلة عام من الجهد العلمى ، وما أثمره من المصطلحات العلمية والفنيـة ، والمواد المعجمية والقرارات اللغوية . وإن فى تتابع هذا العطاء المجمعىّ السخىّ ، على مدى ست وأربعين دورة مجمعية ، لخير شاهد على أن لغتنا العريقة الخالدة لغة علم وحضارة بل فى طليعة اللغات العالمية القادرة على استيعاب الحضارة المعاصرة ، والتعبير عنها فى مختلف المجالات . ولا عجب فى ذلك . فالتاريخ نفسه خير شاهد على أن لغتنا ظلت لها السيادة والريادة بوصفها لغة علم وأدب وفن ، عدة قرون .

فلغتنا — فى هذا العصر — لا تبدأ من فراغ ، وإنما تستعيد حيويتها وتسترد مكانتها ، وتستأنف مسيرتها الحضارية ، فمجدها الحاضر المعاصر يضرب بجدوره فى أعماق ماض مجيـد ، إنها أعرق لغـة ظلت حية على مدى حقبة متواصلة ، لم تعش مثلها أية لغة أخرى مهما كانت قديمة .

سيداتى . . . سادتى

يسعدنى — كما اعتدنا فى افتتاح كل مؤتمر — أن أعرض صورة عامة ، تتمثل فيها ملامح النشاط المجمعى ، منذ عقدنا مؤتمرنا السابق ، حتى صرنا على مشارف هذا المؤتمر .

المؤتمر السابق :

عقد المؤتمر — على مدى أسبوعين — إحدى عشرة جلسة ، عرض فيهـا على أعضائه نحو ألف وخمس مئة مصطلح فى الجيولوجيا والنفط ، والفيزيقا ، والهيدرولوجيا ، والكيمياء والصيدلة ، والطب ، والنبات ، وعلم الحيوان ، والرياضة ، والتاريخ ، والتربية ، وفن السينما ، وألفاظ الحضارة . . الحديثة ، كما عرضت مواد جديدة من المعجم الكبير (من أول الجيم والثاء وما يثلثهما إلى آخر الجيم والذال وما يثلثهما) .

وقد أقر المؤتمر أكثر هذه المصطلحات العلمية والفنية ، والمواد المعجمية ، فأعطاها بذلك شرعية الوجود اللغوى .

كما أقر المؤتمر السابق من أعمال لجنة الأصول مشروعا تناول تيسير النحو للناشئة وتيسير أحكام العدد ، ولحوق تاء الوحدة بالمصدر على لفظه .

وأقر من أعمال لجنة الألفاظ والأساليب :

ألفاظ : الصدفة ، سعر التكلفة ، المناورة العَمْرة ، الملابس الجاهزة .

وعدة أساليب مثل ، دخل خالد بينما على يتكلم ، كلفت البناء مالا كثيرا ، جاء توًّا ، سواء كذا أو كذا .

وبذلك يرد المجمع لكثير من الألفاظ والأساليب اعتبارها ، كما يقيم جسورا بين لغة الحديث ولغة الكتابة .

وأقر المؤتمر — كذلك — من أعمال لجنة اللهجات :

موضوع القاف فى العامية المصرية ، وبعض المصطلحات اللغوية وهى : المعاقبة ، الغمغمة قطعة طيء .

كذلك عرضت على المؤتمر توصيات حول أسلوب المصطلح العلمى ، وهى ضوابط أعدتها لجنة خاصة بالمجمع : فأقرها المؤتمر :

وقد حظى مؤتمرنا السابق بالعديد من البحوث والدراسات الضافية الوافية تناول فيها السادة الزملاء جوانب من الدراسات القرآنية ، ولغة الإعلام ، وتناول دراسة اللغة العربية فى خدمة علوم الأحياء ، والتراث العربى ، وعدة موضوعات أخرى فى اللغة والأدب والفكر ، وعطرت أنفاس الشعر أجواء المؤتمر بقصيدة محمد رسول الله للزميل الطبيب الشاعر الدكتور حسن على إبراهيم ، وقصيدة لغة تجمع القلوب على الحب للزميل الأستاذ البحاثة الشاعر محمد عبد الغنى حسن .

وأصدر المؤتمر فى جلسته الختامية قرارات وتوصيات أهمها :

١ — أن تعريب التعليم الجامعى هدف يسعى إليه العالم العربى بأسره ؛ وسبيله الحق تزويد مكتباتنا بمؤلفات عربية حديثة وافية ، واضطلاع الأستاذ برسالته وفاء لعلمه ولغته على حد سواء ، وتمكين الطالب من لغته القومية ، ومن لغة أخرى أجنبية تصله بموكب العلم وتقدمه :

٢ — أن توحيد المصطلح العلمى والأدبى والفنى هدف منشود لعالمنا العربى ، ولكن بعض الهيئات والأفراد يعمد إلى إصدار معاجم اصطلاحية مختلفة ، ينشأ عنها بلبلة

فى استعمال المصطلحات العربية ، لدى المشتغلين بالعلوم والآداب والفنون .

ولذلك يوصى المؤتمر بأن يترك أمر المصطلحات للمجامع العربية ، على أن ينسق هذا فى إطار اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية .

٣ — يوصى المؤتمر وزارات التربية والتعليم فى الوطن العربى بأن تعنى عناية كاملة بتيسير تعليم اللغة العربية للنشء مستهدية فى ذلك بما قرره اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية ، فى ندوة الجزائر وكان موضوعها « تعليم اللغة العربية فى ربع القرن الأخير » .

٤ — يوصى المؤتمر بإعداد العاملين بالإذاعة : المسموعة والمرئية ، إعداداً صوتيا ولغويا ، لعلاج مايبدو من تحريف فى نطق بعض الحروف على ألسنتهم ، ومن أخطاء فى ضبط بعض الكلمات . ويهيب بوزارات الإعلام وهيئات الإذاعة : المسموعة والمرئية ، أن تزداد عنايتها بالتدريب الجاد للألسنة المنطلقة عن طريق الميكروفون .

٥ — يأسف المؤتمر لتقديم أكثر المسرحيات والتمثيليات الإذاعية (المسموعة والمرئية) باللهجات العامية ، ويوصى أن يخصص عدد أكبر من التمثيليات لاستخدام لغة صحيحة ، يسهل فهمها على العربى فى مختلف المستويات ، وفى جميع البلاد العربية .

٦ — يوصى المؤتمر الصحافة العربية بمزيد من العناية بسلامة لغتها ، ويقدر للصحافة ماأخذت به من تخصيص جانب من صفحاتها للثقافة العربية بعامة ، وفنون الأدب بخاصة ، ويوصى — كذلك — بفسح مجال أوسع لذلك الزاد الثقافى والأدبى .

أعمال المجلس واللجان :

عقد مجلس المجمع سبعا وثلاثين جلسة منها جلسة علنية لتأبين الزميل المرحوم الأستاذ عباس حسن .

أما سائر الجلسات ، فقد نظر المجلس فيها نحو ألف وخمس مائة مصطلح فى الجيولوجيا ، والنفط ، والفيزيقا ، والهيدرولوجيا ، والرياضة ، والهندسة ، والكيمياء ، والصيدلة ، وعلم الحيوان ، والتربية وعلم النفس ، وفلسفة التاريخ ، والقانون التجارى ، وألفاظ الحضارة الحديثة ، وفنى : المسرح والسينما .

ودرس المجلس — كذلك — أعمال لجنة الأصول ، ولجنة الألفاظ والأساليب ، ولجنة اللهجات .

وسيعرض على مؤتمركم هذا ما أقره المجلس من مصطلحات وقرارات ، وماأنجزته لجنتا : المعجم الكبير من مواد جديدة ،

مسابقة المجمع الأدبية

نظرت لجنة الأدب فيما تقدم به المتسابقون فى موضوع مسابقتها للدورة المجمعية السابقة وهو : « الطفولة في الأدب العربي » وذلك بمناسبة أن كانت هى السنة الدولية للطفولة. وفاز بالجائزة الأولى السيد فوزى السيد الغباقى ، وبالجائزة الثالثة السيدة جاذبية صدقى . وحجبت الجائزة الثانية لعدم وجود نص يرتفع لمستواها .

وأعلنت اللجنة عن مسابقتها الأدبية الجديدة فى هذه الدورة ، بعد موافقة المجلس وموضوعها « الشباب فى الأدب العربى — بحث فنى ».

مسابقة احياء التراث العربى :

يحرص المجمع على تشجيع إحياء التراث العربى ، بل يسهم فى ذلك الإحياء بالعديد من المطبوعات التى أصدرها ، وقد رصد فى دورته السابقة جائزة لإحياء التراث ، وفصلت لجنة إحياء التراث بالمجمع فيما قدم لها من مطبوعات تراثية محققة ، وقررت منح الجائزة للسيدين الدكتور أحمد مختار عمر ، والأستاذ ضاحى عبد الباقى ، عن تحقيقهما كتاب « المنجد فى لكراع النمل .

لجنة الاعداد للعيد الخمسينى للمجمع :

يبلغ مجمعنا عامه الخمسين فى سنة ١٩٨٢ وقد شكل المجمع لجنة للإعداد لعيده الخمسينى المرتقب ، وشرفنى برياسة هذه اللجنة التى تضم الزملاء : الأستاذ بدر الدين أبوغازى ، والأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، والأستاذ محمد شوقى أمين ، والدكتور مجدى وهبة .

وقد أعدت مشروعا مفصلا لهذا الاحتفال سيبدأ فى تنفيذه ابتداء من الدورة الآتية :

مطبوعات المجمع :

أصدر المجمع فى هذه الدورة :

- الجزءين : الأربعين ، والحادى والأربعين من مجلة المجمع .
- الجزء الحادى والعشرين من مجموعة المصطلحات العلمية والفنية
- المعجم الفلسفى .
- محاضر الدورة الثالثة والأربعين .
- القسم الثانى من الجزء الرابع من « ديوان الأدب » للفارابى .

وقيد الطبع : — المعجم الوجيز .
- المعجم الجيولوجى
- معجم ألفاظ الحضارة والفنون .
- محاضر جلسات الدورتين : الثانية والعشرين ، والرابعة والأربعين .
- الجزء الرابع من كتاب الأفعال بقسميه.

ومما هو جدير بالذكر أن حصيلة التوزيع لمطبوعات المجمع تدر عملة صعبة وفيرة إلى جانب العملة المحلية.

صلات المجمع الثقافية :

يتابع المجمع توثيق صلاته بالكثير من المجامع ، والهيئات الثقافية ، فى مصر والعالم العربي والإسلامى . . فيشارك فيما

تعقده من ندوات ومؤتمرات ، وينظر فيما تقدمه من مصطلحات ، أو مسائل لغوية ، فيحيلها مجلس المجمع على لجانه المختصة لنظرها وإبداء الرأى فيها ، تمهيداً لدراستها فى مجلسه .

وقد مثل المجمع الزميل الأستاذ محمد عبد الغنى حسن فى مهرجان المؤرخ العربى « ابن عساكر » ، الذى أقامه المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بدمشق احتفالا بمرور تسعمئة عام على مولد المؤرخ الدمشقى الكبير .

كما تفضل الزميل بتمثيل المجمع فى الاجتماع الإقليمى الذى عقد فى أديس بابا ، والذى دعا إليه مركز التنمية الصناعية للدول العربية ، بالاشتراك مع اللجنة الاقتصادية للأمم المتحدة فى أفريقيا .

ولا تتوقف صلات المجمع الثقافية عند المجامع والهيئات ، بل تمتد إلى الأفراد من الباحثين فى الميدان اللغوى ، فيتلقى المجمع منهم الكثير من البحوث والدراسات والمقترحات فى مختلف شئون اللغة ، ويحيلها مجلس المجمع على لجانه المختصة ، لتستوفيها بحثا ودراسة قبل عرضها عليه .

سيداتى . . سادتى :

تمضى سنة الحياة بين استقبال وتوديع وقد ودع المجمع زملاء راحلين هم : علامة النحو واللغة المرحوم الأستاذ عباس حسن ، والأستاذ الجليل المستشرق الدكتور عبد الكريم جرمانوس (عضو المجمع المراسل من المجر) والأستاذ الكبير المستشرق الدكتور أمبرتو ريتشتانو (عضو المجمع المراسل من إيطاليا) .

وسيستقبل المجمع – عقب هذا المؤتمر – الثلاثة الكرام الذين فازوا بعضويته ، وهم السادة الزملاء : الأستاذ محمد زكى عبد القادر ، والدكتور حسين خلاف ، والدكتور تمام حسان .

سيداتى . . . سادتى :

لا يمضى عام دون أن ينال جائزة الدولة التقديرية فارس من فرسان المجمع ، وقد نالها فى الآداب – هذا العام – أستاذ ثبت ، وعالم رفيع القدر فى ميدان الدراسات الأدبية والنقدية ، تخرج على يديه أجيال من أعلام الأدب فى مصر والعالم العربى ، هو الزميل الدكتور شوقى ضيف .

سيداتى . . سادتى :

فى ختام كلمتى أعبر لكم عن سعادتنا بلقائكم ، وبخاصة الإخوة الزملاء الذين لبوا دعوتنا ، ووفدوا إلينا من البلاد العربية الشقيقة . . سائلين الله تعالى كل عون وتوفيق وسداد .

والشكر مكرر لجامعة الدول العربية وأمينها العام وزملائه الكرام .

ونأمل أن نلتقى فى العام القادم بدار المجمع الجديدة إن شاء الله .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الأدب العربى المعاصر

للأستاذ محمد خلف الله أحمد

لنصطلح على أن المدة من ١٩٥٠م إلى ٢٠٥٠م هى حدود المعاصرة التى نتحدث عنها فى هذا المؤتمر ، ولنضع أمامنا خارطة لطابع حياتنا ومواقفنا واهتماماتنا وقيمنا وأحلامنا فيها ، ولنسأل أنفسنا : كيف نحن الآن ؟ وماذا نريد لأنفسنا أن نكون ؟

إن وطننا منذ بدء هذه المدة فى مرحلة نهضة تجديدية وإصلاحية جادة لإعادة صنع حياة ، وبناء مواطنيه ، والكشف عن ذخائر خبراته وموارده ، ونشر أضواء العلم والمعرفة بين ربوعه . وتثبيت دعائم القيم الروحيه والإنسانية فى مواطنيه ، والمشاركة فى توجيه العالم الذى نعيش فيه إلى مُثل الخير والحق والجمال .

والعالم اليوم يشهد هذه النهضة ويباركها ، ويتسابق إلى تقديم العون الأدبى والمادى لها . وهو فى الوقت ذاته معجب بتاريخنا الضارب فى أعماق الزمن . وبآثارنا الباقية على مر العصور . وبحضارتنا التى أثرت ، وستظل تؤثر بقيمها ، فى كثير من الحضارات .

ومن المسلم به والمتفق عليه أن أدب أمة ما فى مرحلة معينة من تاريخها هو المرآة الفنية لحياتها ، والترجمان لمشاعرها وقيمها ، وأحد المؤشرات لمستواها الحضارى فى تلك المرحلة :

وإذا صح وصفنا لأنفسنا وحياتنا فى المرحلة المعاصرة فمن الطبيعى والمنتظر — إذن أن يكون أدبنا العربى المعاصر فى تلك المدة التى حددناها أدبا يغلب عليه التفاؤل والأمل والثقة فى المستقبل ، وأن يكون طابعه الجدية والصدق فى التعبير ، وأن تشيع فى أساليبه روح الانطلاق والوضوح والبعد عن التكلف والزخرف المصطنع ، وأن يكون له دور إيجابى ظاهر فى دفع النهضة القومية إلى الأمام ، وأن يكون مردداً لنبض جماهير الشعب ، وأن يعمل على زيادة الاهتمام به بين المثقفين ، وفى القاعدة العريضة من الجماهير . وأن تقوى مشاركته فى عرض التجارب والمشكلات النفسية والاجتماعية للمواطنين ، وخصوصا فى فنونه الجديدة من قصة ورواية ومسرحية ، ومن المنتظر كذلك — والمرغوب فيه — أن تميل فلسفتنا فى مناهج تعليم اللغة وآدابها إلى العناية بالنص الأدبى ونقد الأدب وإنشائه

(*) انظر التعقيبات على البحث فى محاضر جلسات مؤتمر الدورة السادسة والأربعين (جلسة الثلاثاء غرة جمادى الأولى ١٤٠٠هـ الموافق ١٨ من مارس سنة ١٩٨٠ م) .

والانطلاق فى التعبير الأدبى السليم، وكثرة القراءة فى النصوص والكتب الجديدة ليأخذ الأدب مسالكه إلى النفوس والأذواق والألسنة، مع التدرج فى الغذاء اللغوى والأدبى الصالح من نصوصنا وبياننا الموروث فى شعرنا وخطبنا ورسائلنا وكتبنا التى تربت عليها أذواقنا خلال العصور.

إن أدباءنا المعاصرين حلقة فى سلسلة تاريخ طويل من أدبنا العربى الممتد فى الماضى إلى قرابة ألف وخمسمائة عام، وهم جزء من نهضة إحيائية وتجديدية حديثة نشأت وترعرعت على مسيرة مائتى عام، وهى دائبة التطور والنقد لأنفسها، والتعهد لتكامل ماضيها وحاضرها، ويشغلها بين الحين والآخر التفكير فى شئونها والحوار حول ما يجد لها من قضايا ومشكلات أدبية ولغوية ونقدية.

ومن تلك القضايا قضية لغة الأدب فيها: فقد صاحب تاريخنا منذ عصره الإسلامى الأول — وبحكم اتساع رقعة العالم الإسلامى — ازدواج لغوى: فإلى جانب لغة الكتابة الفصيحة المعربة الغنية فى تراثها. ظهرت فى بيئاتنا للتخاطب ولشئون الحياة اليومية لهجات إقليمية غير معربة، الغالبية العظمى من قاموسها فصيح الأصل إلا أنه غير معرب، وصيغه تخضع لانحرافات من الزيادة أو النقص ومباينة لاستخراج من استعمال اللفظ الأجنبى والعامى؛ وكان من الطبيعى أن ترفض العلماء وجماهير الأمة هذه الدعوة فإننا مرتبطون بالماضى روحاً وعقلاً وتاريخاً ولغة. ولسان أدبنا الكلاسيكى نما وترعرع وعايش مراحل تاريخنا، وخضع على أيدى علمائنا لضروب مستمرة من البحث والتقنين حتى اتسق له من النظام والأحكام مالم يتسق لغيره من اللغات. وقد ارتبطت لغتنا ارتباطا لافكاك له بديننا وتشريعنا وفلسفتنا وسائر فروع تراثنا، وعلى بلاغتها تكونت أذواقنا، وهى الرابطة الدائمة بيننا وبين شعوب شقيقة تشترك معنا فى آلامنا ومصيرنا. وليس يصح فى طبيعة العمران البشرى ولا فى القانون الاقتصادى أن تخضع اللغة القومية بعد تاريخها الحضارى الطويل لدعوات من التغيير والتبديل تهز من أركانها وتهدم من قواعدها وتفصل بين قديمها وجديدها: ولكن الذى يقتضيه التطور الطبيعى أن تتسع لغة الناس بحسب اتساع تاريخهم وحضارتهم وأن تتقبل من الألفاظ والصور والأخيلة ما يتفق وعبقريتها وأذواق أهلها. وإذن فالمادة الأولى فى دستورنا اللغوى لأدبنا العربى المعاصر أن نحافظ على فصاحة لغتنا وسلامتها. وأن نزيد فى ثراء ثروتها بالتطور ومواءمة الزمن وأن نعنى بتحديد معانى ألفاظها وتوسيع طرق التعبير فيها. وهذا هو الذى تقوم عليه هيئاتنا ومجامعنا اللغوية موائمة بين المحافظة الواعية على جوهر القديم، وبين التطبيق الوعى لقانون الحداثة والتجديد.

ويتصل بقضية اللغة قضية التقفية وموسيقى الشعر في أدبنا المعاصر فمن وحى الاتصال ببعض الأنظمة الموسيقية للشعر فى الآداب الأخرى الحديثة قال بعض شعرائنا إلى اصطناعية بعض تلك الأنظمة فى أدبنا العربى الجديد ، وإلى الزراية أحياناً بنظام القصيدة العربية فى وزنها وقافيتها الموحدة ، والربط خطأ بين ذلك النظام وما يسمونه الشعر الخطابى أو شعر المواقف والمناسبات : وألح بعض نقادنا فى هذا حتى وقر فى بعض الأذهان أن نظام القصيدة العربية نظام عتيق ، وأن نظام القافية الواحدة فيها نظام جامد مقيد للحرية وعائق للانطلاق الشعرى . وترتب على هذا أن جماهير مواطنينا التى كانت تغذى ميولها الأدبية واللغويه على الاستماع للشعر العربى فى لقاءات ومواقف ومواسم قومية قد أصبحت محرومة من هذا الزاد الخصب ، ومن هذه التربية الحرة التى كانت تقارب بين أفرادها وجموعها . وإذن فالوضع السليم لأدبنا العربى المعاصر أن نرد الاعتبار لنظامنا الشعرى الموروث مع الانفتاح باستمرار على الأنظمة الشعرية الأخرى ، واقتباس مانراه صالحا منها كما فعل السابقون منا فى تاريخنا العربى وفى المهاجر فى تطويع القصيدة العربية وقبولها لألوان من التصرف فى موسيقاها ونظام قافيتها ، وأحسب أن من الضرورى لفنان العصر الحاضر وشاعره أن يتمتع كلاهما بروح الحرية الواعية فى إبداعه ، وان تسود بين شعراء القديم وشعراء الجديد روح التطور والتكامل وأن تتسع موازين النقد الأدبى البناء لكليهما ، وهما جديران أن يزاوجا بين الأصالة الواعية والنمو المثمر :

والناحية الأخرى [الجديرة] بالاهتمام فى أدبنا العربى المعاصر ناحية الاتصال المستمر بأدبنا القومى من جهة ، وببعض آداب الامم المتقدمة من جهة أخرى فى الناحية الأولى ينبغى أن يكون لأذواقنا جذورها المستمدة من أدبنا الماضى فى عصوره الزاهرة . ومن قراءتنا الجادة فيه والتمرس بلغته وأساليبه وصوره ، والتتبع لآثار الخالدين من شعرائه وكتابه ، مع معايشتنا لإنتاج الكبار من أدبائنا المحدثين نواظب على درسهم ونغذى أذواقنا على موائد إبداعهم . ويتصل بهذه الناحية دراستنا وملاحظتنا المستمرة المعاصرة وأوضاعها ومشكلاتها وأنماط الفردى والجماعى فيها. وطبيعتها ومناظرها وآثارها وحيوانها ونباتها ليكون لنا من كل ذلك زاد لتجاربنا ومثيرات لأحاسيسنا الجمالية وموضوعات لنواح من أدبنا المعاصر ، وعلى الأخص فى الأدب الذى ننشئه لأطفالنا وشبابنا فى مراحل نموهم المختلفة . لتغذى مشاعرهم وأخيلتهم ، وتقدم ألوانا شهية مناسبة لمطالعهم . ولا شك أن أمامنا الكثير مما نستطيع تحقيقه فى هذا المجال كما أن تاريخنا حافل بضروب التجارب

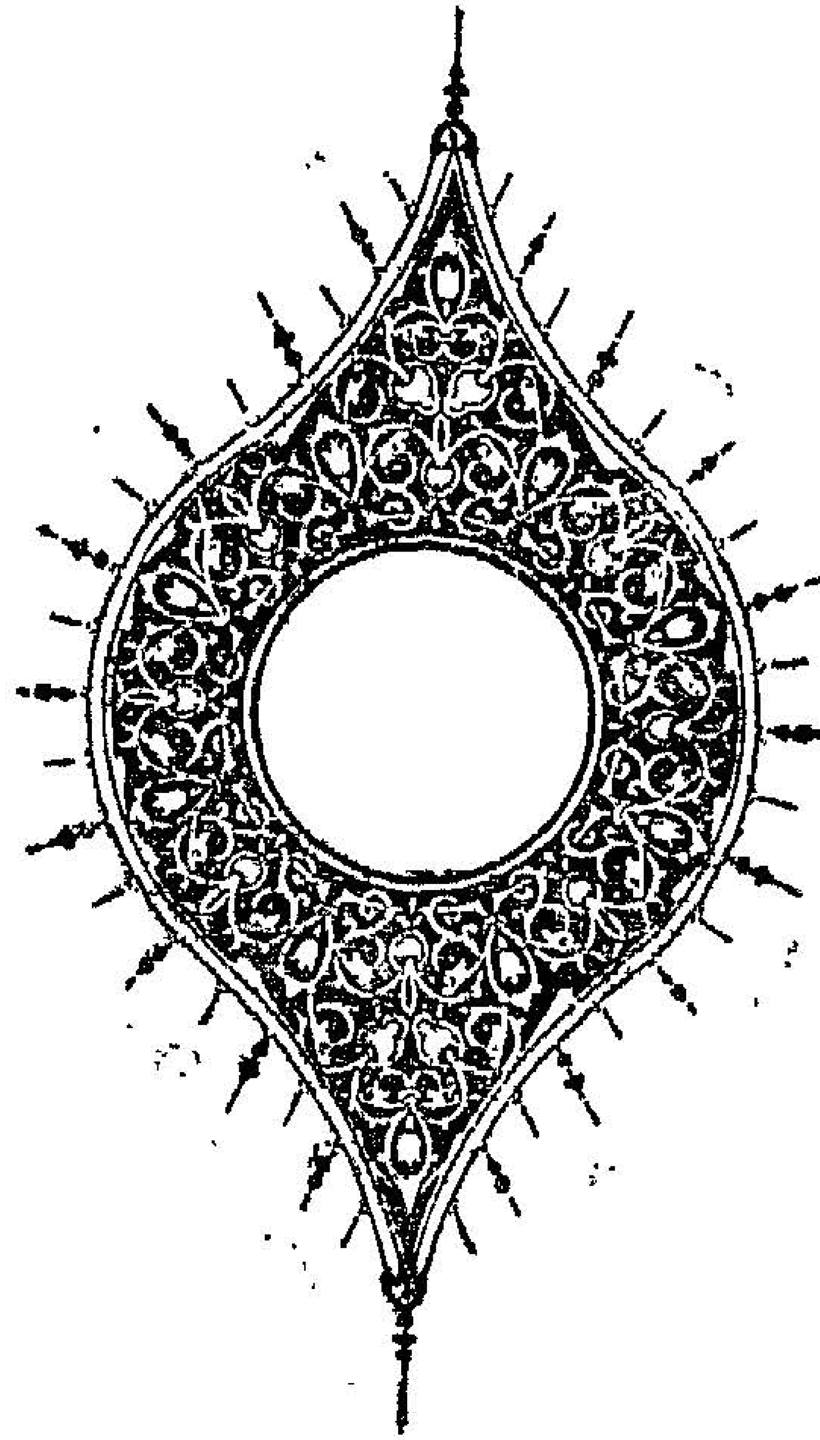
والإنجازات والبطولات والشخصيات التى تركت طابعها على حياتنا فى مختلف نواحيها وكلها موضوعات صالحة لأدب الأطفال والشباب إذا أحسن تناولها ، وتعاونت الفنون الجميلة المختلفة فى تصويرها وعرضها وإخراجها.

وفى الناحية التالية يهمنا أن نوجه شطراً من جهودنا فى القراءة والدرس إلى آداب بعض الأمم المتقدمة فنتبع تياراتها واتجاهاتها ونتعرف إلى كبار صانعيها ونوسع ثقافتنا أيضاً بها على أن نلمس مصادر للاستيحاء والتجديد .

وهذا أمر تحتمه علينا صلاتنا المختلفة على تلك الأمم وتأثرنا بها وتأثيرنا فيها . ونجاح جهودنا فى هذه الناحية يستلزم منا تعلم بعض اللغات الأجنبية : والعناية بها فى مدارسنا ومعاهدنا ، والتعرف إلى الفنون المستحدثة فى آدابها، وقد مر بنا شئ من هذه التجربة فى صبح نهضتنا الحديثة وضحاها حين اتصل بعض كبار أدبائنا ومفكرينا بالآداب الأخرى،وحذقوا فنونها المستحدثةوأضافوا بها جديداً إلىأدبنا العربى ، ونحن نتذوق الآن القصص الروائى ونستمع ونتتج فيه ما يجد طريقه مترجما إلى الآداب الأخرى ، آخذاً مكانه بين منتجات أدبائها ؛

محمد خلف الله أحمد

عضو المجمع



اللغة الصامتة

للدكتور اسحاق موسى الحسيني

اصطلح القدامى على تعريف اللغة بأنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم» . ولكن المحدثين رأوا اللغة ثلاثة وجوه :

الأول : منطوق وسيلته الأصوات

Langage parié

والثانى : مكتوب وسيلته الحروف

Langage écrit

والثالث : صامت وسيلته الإرشادات والرسوم

I anga des signes

لذلك جاء التعريف الحديث الواسع : «اللغة هى الوسائل الرئيسية للاتصال بين الناس»

The chief mean of human communication

وموضوعى هو الوجه الثالث ؛ واستثنى لغة الصم والبكم والعمى لأنها لغة خاصة بطائفة من الناس ؛

إن قصدى أن أسترعى النظر إلى الإرشادات التى وردت فى العربية قديماً وحديثاً عسى أن نتمكن من جمعها وتبويبها ؛ وبعضها عام تشترك فيه جميع اللغات ؛ وبعضها خاص اصطلح عليه العرب قديماً وحديثاً ؛

وربما كانت هذه الإشارات قليلة أول الأمر ثم زادت حتى أصبحت خليقة بالتدوين ومثلها كمثل الرموز الكتابية — اختصار الكلمات Abbreviations التى تحدثت عنها فى مؤتمر سابق واقترحت أن تثبت فى المعاجم الحديثة ؛

واستأذن أن أشير هنا إلى أن معجما كاملا يقع فى مائة وثلاث صفحات صدر بالإنجليزية سنة ١٩٤٢ باسم معجم المختصرات :

Adictionary of Abbreviations by Eriec partridge, Lendon 1942 .

إضافة الى الصفحات التى تخصصها المعاجم العربية للكلمات المختصرة ؛

— ٢ —

إن الإنسان يستعين بالإشارات مقترنة بالأصوات حيناً ومستقلة عنها حيناً آخر للتعبير عما فى نفسه أو لتوكيد معنى معين ؛ وهى مسألة ترجع إلى مزاج المرء وحالته النفسية ؛

وعرف عن الساميين — وربما المشارقة بعامة — الإسراف فى استعمال الإشارات ، وأذكر قصة سمعتها من أحد الأساتذة الغربيين خلاصتها أن يهوديا فى أمريكا أراد أن ينشئ ابنه على تجنب الإشارات عند الكلام

(*) انظر التعقيبات على البحث فى محاضر جلسات مؤتمر الدورة السادسة والأربعين (جلسة الخميس ٣ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٠ هـ الموافق ٢٠ من مارس سنة ١٩٨٠ م) .

فأخـذه إلى مدرسة غـير طائفية ورجا مديرها أن يحقق رغبته . فوعده المدير بأن يمرن ابنه على تجنب الإشارات بصرامة وبعد أشهر ذهب الوالد إلى المدرسة ، وسأل المدير عما تم بأمر ابنه فأخذ المدير يحدثه وهو يسرف فى استعمال الإشارات كما كان يفعل ابنه . وتحسر الرجل لأن ابنه غير المدير وزملاءه بدلا من أن يتغير هو .

— ٣ —

إن الإنسان يستعين فى التعبير عما فى نفسه بمعظم أعضاء جسمه : برأسه وعينيه وشفتيه وأنفه ويديه وأصابعه ورجليه ، وإن كانت الأصابع أكثرها حركة .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن بعض الإشارات حركات غريزية . مثال ذلك: هز الرأس عموديا للدلالة على الموافقة . فهو شائع عند جميع الأمم البدائية والمتحضرة .

وربما كانت هذه الحركة مصدر الانحناء المعبّر عن التحية أو القبول . ومثل هز الرأس أفقيا للدلالة على الرفض . وهى حركة ترجع إلى زمن الطفولة عندما يعبر الطفل عن عدم رغبته فى الرضاعة . وقيل : إن إشارة الوالد إلى ولده بإصبعه بحركة أفقية للدلالة على المنع إنما هى تقليد لهز الرأس ومثل الابتسام للدلالة على الرضى وعقد الحاجبين للدلالة على الغضب .

وللعرب إشارات اصطلحوا عليها : بعضها عام وبعضها خاص وسنورد بعض الأمثلة :

١ — ذكر القدامى عقد الحساب « فإنه اصطلاح للعرب تواضعوه ليستغنوا به عن التلفظ . وكان أكثر استعمالهم له عند المساومة فى البيع ، فيضع أحدهما يده فى يد الآخر فيفهمان المراد من غير تلفظ لقصد ستر ذلك عن غيرهما ممن يحضرهما. وقد أكثر الشعراء التشبيه بهذه العقود .

قال بعض الأدباء :

رُبَّ بـرغوثٍ ليلةً بِتُّ منه
وفؤادى فى قبضة التسعين

أسَرَتْه يد الثلاثين حتى
ذاق طعمَ الِحمام فى السبعين[1]

وذكر الراغب الأصفهانى فى محاضرات الأدباء عقد التسعين فقال : « وصف رجل داراً ضيقة فقال: أضيق من عقد تسعين » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صام الدهر ضُيِّقت عليه جهنم وعقد تسعين». ومعناه لم يكن له موضع فيها .

وشرح عقد التسعين « بأن يجعل المرء طَرَف السبابة اليمنى فى أصلها ويضمها ضما محكما بحيث تنطوى عقدتاها حتى تصير مثل الحية المطوقة ».

(١) فتح البارى ١٣ / ٩٦

قال الشاعر :

وشبهوا التسعين فى انعقادها
كلفّة الحية فى رقادها
والفرق بين عقدها والعشرة
بأنها مضمومة منحصرة

أما عقد الثلاثين فهو أن يضم طرف الإبهام طرف السبابة مثل من يمسك شيئا لطيفا كالإبرة . !

وعقد السبعين أن يجعل طرف ظفر الإبهام بين عقدتى السبابة من باطنها ويلوى طرفى السبابة عليها مثل ناقد الدينار عند النقد .

وقد أثبت فيشر A : Fischer فى بحثه .

Beitrage zuni - verstandnis religioser muslimischer Texte

وصف سائر العقود والأعداد (١) .

٢ – ويتصل بالإشارة إلى العدد ما رواه سبط ابن الجوزى – (فى مرآة الزمان) (٢) قال : «حدثنى رجل من أهل حران قال : خرج نور الدين زنكى من حران يوما قاصدا الرى فاجتاز على النهر وفقير نائم هناك. فوقف وسلم عليه الفقير فهزّ رأسه وقال بيده هكذا ، معناه فى أى شئ أنت ؟ فحرك نور الدين إصبعا واحدة فحرك الفقير إصبعين . ومضى نور الدين باكيا . فقيل له : ما هذا ؟ قال : أشار الفقير إلىّ وقال : فى أى شئ أنت من هذا كلّه ؟ لماذا ؟ فقلت : من أجل رغيف واحد : فأشار إلىّ بإصبعين فأنا آكل كل يوم رغيفين وأنا مثلك » :

٣ – ويبدو أن المسلمين اصطلحوا على التسليم بالإشارة باليد : روى محيى الدين النووى فى (كتاب الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار) حديثا عن الترمذى مفاده أن الرسول عليه السلام قال : «ليس منا من تشبه بغيرنا : لا تشتبهوا باليهود والنصارى . فإن تسليم اليهود بالإشارة بالأصابع وتسليم النصارى بالإشارة بالكف». وقيل إن إسناد الحديث ضعيف :

وروى فى حديث آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم – مر فى المسجد يوما وعصبة من النساء قعود فأشار بيده بالتسليم : وقيل عن هذا الحديث إنه حسن :

٤ – وورد فى كتب التاريخ « رفع فلان يديه مبسوطتين » أى مستنجداً بالله :

٥ – وورد « وكسر عينه وقال له إيه » « أى أنذره أو هدده :

٦ – وورد فى المحيط « كسر من طرفه » أى غطّى :

٧ – وورد فيه «كشّر عن أسنانه» أبداها. يكون فى الضحاك وغيره . والاسم الكشرة :

---

(١) Lepzig 1932 وأنا مدين للعلامة الأستاذ قسطرفى الحصول على هذا البحث باللغة الألمانية (٣) ٨ – ٣٤٥ .

٨ — وورد فيه : « صعّر خده وأصعَره أماله عن النظر إلى الناس تهاونا من كبر ».

٩ — وزم بأنفه شمخ وتكبر :

١٠ — وقالوا : « أدخل فلان إصبعه فى شِدْقه وصوت » أى أراد الإنكار : وهى شائعة عندنا :

١١ — وورد فى كتب الأدب أن العرب اصطلحوا على أن يقبل الكبير الصغير فى فى جبينه وأن يقبل الصغير يد الكبير : وشاهدت فى المملكة العربية السعودية شيوخ القبائل يقبلون أنف (خشم) الأمير.

١٢ — وكان مسح اللحى عند العرب قديماً علامة الصلح . قال الشاعر :

عقـوا بسـهم ثم قالو صالحوا
ياليتنى فى القوم إذ مسحوا اللحى

(والعقيقة ضرب السهم نحو السماء فإن رجع ملطخا بالدم طلبوا . وإن رجع نقياً مسحوا اللحى للدلالة على المصالحة) :

١٣ — وعند بعض القبائل العربية إذا وضع الرجل العقال فى رقبته دل على اعترافه بذنبه :

١٤ — وإذا امتنع الرجـل عن شرب القهوة دل على التماسه العفو :

١٥ — وذكر المؤرخ عارف العارف فى كتابه (القضاء بين البدو) أنه عند التقاضى يرسم المدّعِى على الأرض خطوطاً تؤلف دائرة — يدخلها المدّعَى عليه فيها ويقسم اليمين :

١٦ — وذكر أنه إذا هز البدوى رأسه لآخر دلّ على التهديد :

١٧ — وإذا وضع البدوى العباءة على رأسه وهو فى بيت القتيل دلّ على الندم :

١٨ — وإذا وضع البدوى العقال فى رقبة رجل دل على طلب حمايته :

١٩ — وأذكر حالة طريفة وقعت لى وأنا فى ضيافة قبيلة عربية تنزل قرب الزفة فقد ألقى شيخها علىّ عباءته مساء فظننت أنه أراد أن يخصنى بالتكرم : ولكن أحدا أفهمنى أنه يريد مصاهرتى :

٢٠ — وإذا أخرج الرجل لسانه دلّ على الاستهزاء :

٢١ — وإذا وضع إصبعه بين فكيه دلّ على الندم :

٢٢ — وقبض عضلات الأنف يدلُ على الاشمئزاز .

٢٣ — وحكُ الأنف بالسبابة يدل على الكيد :

٢٤ — ورفع الكف دعوة إلى السكوت:

٢٥ — وضرب القدم بالأرض يعنى التهديد.

٢٦ — وضرب كف بكف يعنى التحسر:

٢٧ – وهز الكتف يدل على عدم المبالاة؛

هذه أمثلة سقتها للدلالة على وجود لغة صامتة ، بعضها عام وبعضها خاص اجتزىء بها خشية الإملال ، وأعتقد أن الشعوب العربية في الجزيرة العربية وشمالي أفريقيا لها لغات صامتة خليقة بالجمع والتدوين :

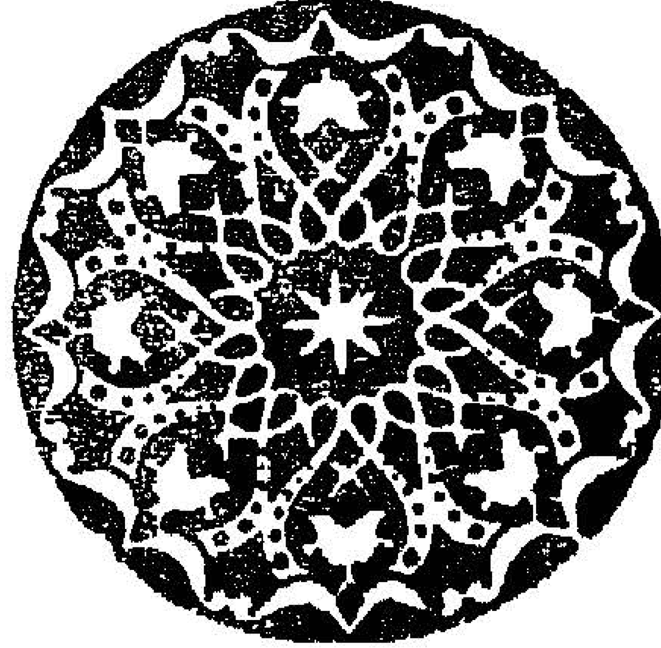
وأضيف – من باب الطرافة – أني وقفت على كتيب بالإنجليزية عنوانه :

The picture speech for all nations in every country London 1947.

أي لغة الصور لجميع الأمم في كل بلد.

وهو دليل على أن الصور جزء من اللغة أيضا.

اسحاق موسى الحسيني
عضو المجمع من الأردن



بين "مُرضِعة" و "مُنفطِر" فى القرآن الكريم

للأستاذ على النجدى ناصف

يدور القول فى هذا الحديث على كلمتى « مرضِعة » « ومُنفطر » ، وكلتاهما فى سورة غير سورة الأُخرى ، وبين السورتين جمع كبير من السور ، وإن الكلمتين — مع ذلك لتلتقيان فى مقام واحد ، لتتشاركا فى تصوير مشهد من مشاهد الفزع الاكبر يوم الدين ، يوم يقوم الناس لرب العالمين. وتلتقيان مرة أُخرى ، فتطلب كلتاهما فى موقعها فضل تفسير وبيان

فأما « مرضعة » فمذكورة فى سورة الحج ، إذا يقول الله تعالى :

(يأَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعةِ شيءٌ عظيمٌ ، يَوْمَ ترَوْنها تَذهَلُ كُلُّ مُرْضِعةٍ عمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها ، وترَى النَّاسَ سُكارَى وماهم بِسُكارَى ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ »[1] ..

و « مرضعة » كلمة تستعمل على وجهين : وجهٍ تكون فيه بالتاء كالتى فى الآية الأُولى ، ووجه تكون فيه خالية من التاء ، فتكون بلفظ مرضع . ولكل من الوجهين مقام يقال فيه ، فهى بالتاء لمن تكون فى حالة إرضاع ويراد وصفها به ، أى وطفلُها بين يديها ، وثديها فى فمه . وهى بغير التاء لمن تكون ذات إرضاع ، أى لمن يكون من شأْنها أن ترضع . وإن لم تباشر الإرضاع حين وصفها به[1] ، فالفَيْصل فى الاستعمالين هو حال المرأة التى يراد وصفها بالإرضاع .

(*) انظر التعقيبات على البحث فى محاضر جلسات مؤتمر الدورة السادسة والأربعين (جلسة الخميس ٣ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٠ هـ الموافق ٢٠ من مارس سنة ١٩٨٠ م) .

(١) سورة الحج ٣ ١ ، ٢

(٢) الكشاف ٢/٣ ٣ ٥٦

وما أحسب قارئاً يقرأ الآيتين ، ثم تراوده نفسه أن يجيل النظر فيهما ، يريد أن يتفهمهما ويكشف عن أسرارهما ألا يقف أطول مايقف على كلمة «مرضعة» يسأل : ما بالها قد استقرت هنا بدلا من المرضع ، مع أن المرضع أكثر منها فى الكلام تداولا ، وأسبق إلى الخاطر تمثلا ، فالمرأة مرضع فى كل حال من أحوالها إلا حالَ الإرضاع فهى فيها مرضعة ، ثم إن المرضعة من الأوصاف التى تختص بها الأنثى ، مثلُها كمثل حامل وكاعب ، فما حاجتها إلى التاء حين الوصف بها ؟ فهى إنما يؤتى بها للتفرقة بين المذكر والمؤنث فى الأوصاف المشتركة بينهما . ثم إن المقام أولا وأخيراً مقامُ رعب وفزع ، لا مقامُ طمأنينة وقرار ، فأين المرضعة منه ، وأين هو من المرضعة ؟ .

أشتات من المشكلات تثير التساؤل ، وتؤكد أن المرضعة لم تذكر فى هذا الموضع بلفظها المؤنث عفواً ، ولكن لِسرٍّ مكنون ، يجعلها أحق به من المرضع ، فما عسى أن يكون هذا السِّر ؟ .

لنرجع إذن إلى الآيتين ، ولننظر عم تتحدثان ؟ وأىّ الأحداث تصفان ؟

إنهما تتحدثان عن يوم الساعة ، وتصفان حدثاً جللا من أحداثه ، له فى الناس آثار شداد ، تختلف باختلاف طوائفهم والأحوال التى يكونون عليها . فأما الحدث فزلزلة عاتية ، ترجف الأرض منها والجبال ، ويغشى الناس منها غاشية طاغية تَذهَل منها المرضعة عن رضيعها ، فما تدرى من أمره شيئاً ، ولا تملك له نفعاً ، ولا يمسكها عليه رحمتها به ، وحنوُّها عليه ، وإنه لبين يديها ، تضُمه إلى صدرها ، وتُلقمه ثديها . لقد عُطلت أُمومتها وذهب عنها أنبل عواطفها شرفاً ، وأجلها قدراً ، وأحمدها فى الحياة أثرًا .

وتهز الزلزلة بِنْيةَ الحامل هزًّا عنيفاً ، يوهن من تماسكها ، ويقذف بالجنين فيسقط منها لغير تمام ، لايمنعه أن كان منها بحرز حريز ، وقرار مكين . أما سائر الناس فيصيبهم من هول الزلزلة ما يصيبهم من خَلَل وارتكاس ، وهاهم أولاء يتهافتون إعياءً وضعفاً ، ويتخبطون ذهولا ، وهلعاً . اختلت موازينهم ، وفسدت تصوراتهم ، فمايُصدرون عن وعى فيما يلفظون من قول ، وما يبدون من حراك .

(المرضعة) إذن أُولى بالمقام من المرضع ، إنه لها أطلب ، وهى له أوجب ، وبه أشبه ، لأنها تُكسب الصورة مزيدًا من الوضوح ، وتمدّها بفيض من القوة وشدة التأثير ؛ لأنها تمثل ذهول الأُم فى أبلغ صورته ، وأعنف شدته . ولوحلّت المرضع محلها لكان ذهولها أقل دلالة على استفحال الخطب ، وهول المَشهد . لأنها حينئذ خلية لا تمارس الرضاعة ، ولا يكون الطفل منها بمكان ، وإنما هى وحيدة مفردة لا يَعنيها غير نفسها ، فما تحسر إلا بها ، ولا تذهل إلا عنها .

وأما « منفطر » فمذكورة فى سورة المزّمل إذ يقول الله تعالى : « فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إنْ كَفَرْتُم يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً ، السَّماءُ منفَطِرٌ بِه ، كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً »[1]

ومدار القول فى هاتين الآيتين قوله تعالى : (السماءُ منفطر به) ، (فالسماءُ) مفرد مؤنث ، وهو مبتدأ . و (منفطر) مفرد مذكر ، وهو خبر المبتدأ ، فلم يطابق الخبر مبتدأه فى التأنيث ، وتأنيثه فى مثل هذا الأُسلوب واجب .

وقد نظر العلماء فى هذا الخلاف ، والتمس كلٌّ له وجها يجعل بينه وبين أصول العربية نسباً ، ويُحله منها محلا . فقال أبو عمرو بن العلاء : « لم يقل منفطرة ؛ لأن مجازها السقف ، تقول : هذا سماء البيت »[2] يريد أبو عمرو أن السماء هنا ملحوظ فيها السقف وهيئته ، ذهبت بها الآية إليه إذ كان السقف بعض ما تدل عليه السماء .

وقال الخليل : إن «السماء منفطر به » كقولك : « مُعْضِلٌ » للقطاة ، وقولك : « مرضع » للتى بها الرضاع . وأما المنفطرة فيجىءُ على العَمَل ، كقولك : منشقة ، وكقولك : « مرضعة » للتى ترضع[3] . يريد الخليل أن « منفطر » فى الآيتين وصف قائم بالسماء على سبيل الثبات والاستقرار ، لا علاجاً به ، وإحداثا له ، فهى كالمرضع لذات الإرضاع

---

(١) سورة المزمل ١٧ ، ١٨

(٢) تفسير القرطبى : ١٩ : ٥١

(٣) الكتاب : ١ : ٣٤

وقال الفراء : السماء تُذكَّر وتؤنث ، فهى هنا فى وجهة التذكير . قال الشاعر :

فلو رَفَع السماءُ إليـه قوما
لحِقنا بالنجوم مع السماء[1]

ويحكى المبرد أن من النحويين من يقول : « السماءُ هاهنا جمع سماوة كما تقول فى صَلابة[2] وعلاوة[3] وهِراوة[4] : صَلاء ،وهَراء . واحتجوا بقوله-عز وجل-: (ثم استَوى إلى السماء فسوّاهن سبعَ سموات)[5] .

وإذا كنت أوردت رأى بنى عمرو أولاً لأنه أسبق زمناً - فسيكون التعليق عليه آخرًا ، لأنه - فيما أرى - أحق أن يؤخذ به ، ويعوَّلَ فى القضية عليه ، بعد شى من التعديل يسير .

أما الخليل فعنده أن معنى (السماءُ منفطر) ثبوت الانفطار لها ، واتصافها به ، لا أنه فعل تعرضت له ، وعولجت به ، فانفرج جانباها ، وباعد الشق ما بينهما . ولو أُريد بمنفطر معنى وقوع الانفطار وعمله لكانت منفطرة ، ويضرب مثلا لها قولهم : قطاة معضل ، أى يعسر خروج البيض منها . ونحن إذ ننظر فى معنى كل من (منفطر) ومعضل ، ونقرن معنى كل منهما إلى معنى الآخر نشعر بوضوح أن ثمّة فرقاً بينهما ، لأن الإعضال ذاتى فى القطاة ، وليس نازلاً بها ، ولا هى منفعلة به لحدث طرأ عليها .

وإذا كان انفطار السماء فى الاية بلفظ منفطر وصفاً ثابتاً لها ، فجاز لذلك أن يقرن إلى معضل ، وأن يجعلا سواء فى الحكم والتقدير - فقد ذكر بلفظ الفعل فى مواطن أُخرى ، منها قوله تعالى : (إذا السماءُ انفطرت)[6] ،

(١) معانى القرآن : ٣ : ٩٩
(٢) الصلابة : مدق الطيب
(٣) العلاوة : هى من كل شئ : مايزيد عليه
(٤) الهراوة : العصا
(٥) المذكر والمونث : ١٢٢
(٦) سورة الانفطار : ١

وقوله : (إذا السماءُ انشقّت) [1] . وقوله : (ويوم تَشقّق السماءُ بالغمام) [2] . والأفعال الثلاثة من قبيل الأفعال المطاوعة : الأول للفعل فَطَر ، والثانى للفعل شق ، والثالث للفعل شَقّق .

والفعل المطاوع يدل على قبول الأشياء له وتأثرها به ، فمعنى السماءُ منفطر ، وانفطرت السماءُ من هذا القبيل ، ولا أدرى حينئذ كيف يمكن أن يكون منفطر كمعضل ومرضع وأشباههما ؟ . ولو أن انفطار السماء كإعضال القطاة مجرد وصف ثابت وأمر واقع بغير علاج لم يكن شيئاً مذكوراً ولا كان لذكره حكمة فليس فيه حينئذ دلالة على قدرة الخالق سبحانه ، دلالة مشاركة فى تصوير مشاهد يوم الدين وما يكابد الناس فيه من أهوال .

وأما أن السماء – فيما يقول الفراء – تذكر وتؤنث – وأنها مذكورة فى آيتها على وجه التذكير ، فقول لا مَقْنَع فيه ، ولا اطمئنان إليه ، ولكنه يزيدنا استشرافاً للحقيقة ، وجدًّا فى طلبها ، لأنه ينقلنا إلى سؤال جديد . فالقرآن الكريم يعامل السماء تسعاً وعشرين مرة معاملة المؤنث ، إسناداً إليها ، ووصفاً لها ، وإعادة للضمير عليها ، ولم يستعملها مذكرة ولو مرة واحدة ، لانصاً ولا احتمالا ، فما للقرآن لا يدع منهجه فى استعمالها إلا فى هذه الآية خاصة ! . وما كان القرآن ليصنع هذا الصنيع إلا لأمر يراد .

سؤال لايمكن الصبر عليه ، ولا إغفال الإجابة عنه ، وليس فى البيت الذى يحتج الفراءُ به غناء ، ولا فيه شاهد ، ولم ينسبه الفراءُ ولا القرطبى ، وهو مهموز الروى فى رواية الفراء وبائيه فى رواية القرطبى ثم إن للشعر لغته المتميزة ورخصه المعهودة ، وله من قبلُ ومن بعد مآزقه الضيقة ، وضروراته الملجئة ، لإقامة وزن أو إحكام قافية وقد تُقبل نماذج من ذلك فى الشعر ، لكنها لاتُقبل فى النثر ، فكيف هى فى القرآن الكريم ؟ ولو أن قائل هذا البيت

---

(١) سورة الانشقاق : ١

(٢) سورة الفرقان : ٢٥

أستجاب فى نظمه لداعية اللغة الفاشية بل الصحيحة ، ولم تدفعه إلى خلافها ضرورة ، فقال : فلو رُفعت السماءُ : إليها لاضطرب الوزن فى موضعين ، ولو قال : فلو رفَعَ «السماءُ» إليه لكان الاضطراب فى موضع واحد ، فالاضطراب واقع لا محالة مع تأنيث السماء وتذكيرها .

أما الذين يقولون – فيما يروى عنهم المبرد – إن السماء جمع سماوة – فيريدون أن السماء ليست اسما مفردًا ، ولكنها اسم جنس جمعى ، فلفظه مفرد ، ومعناه جمع لما لا يعقل ، فيجوز تذكيره للفظه ، وتأنيثه لمعناه ، مثله كمثل شجَر فى قوله تعالى : (ثُمّ إنَّكُمْ أيُّها الضالون المكذِّبون لآكِلون من شجر من زقُّوم فمالئون منها البطونَ ، فشاربون عليه من الحميم)[(١)] .

والاستشهاد بالآية يقتضى أن يكون الضمير فى سواهن عائدًا على السماء ، جمعاً ومفردًا ، وأن تكون كلمة (سبع) بعدها حالا من هذا الضمير . وهو وجه كان يمكن الأخذ به ، وإنزال الآية على حكمه فى الإعراب – لو كان له صدى من بعيد أو من قريب فى القرآن الكريم ، لكن القرآن لا يذكر سماوة أبدا ، ولا يعامل السماء بغير ما يعامل به كل مفرد مؤنث ، حين الإسناد إليها وإعادة الضمير عليها .

ودعوى أن السماء جمع سماوة يشوبها الضعف والاضطراب ، فالملاحظ أن المبرد لم يسم الذين رواها عنهم ، وجاءت عبارة المصباح عنها هكذا : «وقال الفراءُ : التذكير قليل ، وهو على معنى السقف ؛ وكأنه جمع سماوة » . وقال الأزهرى : «السماءُ عندهم مؤنثة لأنها جمع سماءة » . لهذا أرى أنها دعوى لا سند لها من اللغة وما هى إلا مجرد خيال من متخيل أو افتراض من مفترض .

أما الوجه الذى نرتضيه وندعو إليه ، لأنه يمت إلى العربية بعرق أصيل فهو أن يُجعل مرجع ضمير (سواهن) لفظ (سبع) بعده ، جىء به بدلا منه ، ليوضح إبهامه ، ويدل على أنه هو وحده المراد بالتسوية ، وما الضمير قبله إلا مجهوله ، الآخذ به إلى مناط الحكم الذى بنى عليه الأُسلوب ، ولا يمنع من أصالته واستقامة نهجه أن يكون الضمير سابقاً البدل لا حقا ،

(١) سورة الواقعة : ٥١ : ٥٥

فمن سنن العربية أن يعود الضمير على البدل وإنه لمتأخر لفظاً ورتبة . ومنه فى الأثر : « اللهم صلى عليه الرءوفِ الرحيم » ، وفى شعر المتنبى :

أُعيذها نظرات منك صادقة
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورمُ

نعود الآن إلى قول أبى عمرو : إن «السماءُ» إنما ذكرت لأن مجازها السقف ، تقول : هذا سماءُ البيت . فنقول : إن السماء على شبه من السقف لأنها مثله تعلو وتظل ، وفى اللغة متسع لملاحظة المعنى ، فكثيراً ما تؤثره العرب على اللفظ ، وتلقى إليه زمام الكلام يصرفه إلى الوجه الذى يلائمه ، وفى المقام وحسن الملاءمة بين الظاهر والباطن أمان من اللبس والتخليط .

فمذهب أبى عمرو فى السماء هو المذهب ، لكن حَمْل السماء على البناء أولى من حملها على السقف ، لأنها لم تُحمل عليه حيثما ذكرت فى القرآن الكريم إلا فى قوله تعالى : (وجعلنا السماء سَقْفاً محفوظاً)[١] على حين أنه يجعلها بناء ، ويعبر عن خلقها بالفعل (بنى) ست مرات ، منها قوله سبحانه : (الذى جَعَلَ لكم الأَرْضَ فِراشاً والسماء بِناء)[٢] ، وقوله : (أأنتم أشدُّ خلقاً أم السماء بناها رفع سَمكها فسَوَّاها)[٣] ، ويجعل لها فى موضعين اثنين أبواباً تفتح . والأبواب – فيما يعهد الناس – من خصائص البناء وما يُلحق به ، فقال جل ذكره : (إن الذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفَتَّح لهم أبوابُ السماء)[٤] .

والبناءُ بعد أدل على إحكام الخلق وقوة التماسك ، ويذكر القرآن – فيما يذكر من أحوال السماء أنها خُلقت بأَيْد ، وأنها وثيقة الالتحام ، فيقول : (والسماء بنيناها بأَييْد)[٥] ، ويقول (أفلَمْ ينظروا إلى السماء فوقَهم كيف بنيناها وزيَّناها ومالها من فُروج)[٦] .

(١) سورة الأنبياء : ٣٢
(٢) سورة البقرة : ٢٢
(٣) سورة النازعات : ٢٧
(٤) سورة الاعراف : ٤٠
(٥) سورة الذاريات : ٤٧
(٦) سورة ق : ٦

ثم إن العربية ترسل البناء مثلا فى قوة التماسك ، ولذا يقول الله تعالى : (إنَّ اللهَ يُحبّ الذين يقاتِلون فى سبيلهِ صفًّا ، كأنَّهم بنيانٌ مرصوص)[1] ، ويقول الرسول — صلوات الله عليه — « المؤْمن للمؤْمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . رواه أبو موسى الأشعرى[2] .

فإذا ارتضينا أن يكون «البناء» لا السقف هو مجازُ السماء ، كان فى كلمة (منفطر) على خلافها لكلمة السماء إشارةٌ إلى البناء ، ودعوة إلى استحضاره ، وأنه ملحوظ فيه معنى ، وإن لم يذكر لفظاً .

وهو بذلك أحق أن يكون أبلغ تأثيرا ، وأهول تصويرًا لأحداث اليوم الموعود . فتنشق السماءُ طوعاً لإرادته ، سبحانه ، لا يغنى عنها أنها وثيقة البنية ، وأنها خُلقت بأيد ، وليس فيها فطور ، فالآمر هو الله جل جلاله، وهو — سبحانه — إذا قضى أمرًا فإنمايقول له : كن فيكون .

على النجدى ناصف
عضو المجمع



(١) سورة الصف : ١٤
(٢) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح : ٢ : ١٤١

من كُنَّاشة النَّوادر

- ٢ -

للأستاذ عبد السلام هارون

رجعت إلى كناشتي التي سجلت بها نوادر رءوس المسائل لأصل بحوث اليوم ببحوث الأمس، حين تقبل مؤتمر العام الماضي كلمتي المتواضعة بما عددته قبولا حسنا .

وهذه سلسلة أخرى مما عن لي في أثناء التقليب :

ظواهر حضارية :

من مظاهر تشجيع طلبة العلم ، مايروى عن الملك المعظم شرف الدين عيسى بن العادل بن أيوب ، صاحب دمشق .

قال ابن خلكان : وكان المعظم يحب الأدب كثيرا ، ومدحه جماعة من الشعراء فأحسنوا في مدحه ، وكانت له رغبة في فن الأدب ، كان قد شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة ، فحفظه لهذا السبب جماعة . ورأيت بعضهم بدمشق ، والناس يقولون : إنه كان سبب حفظهم له هذا :

يقول ابن خلكان : « ولم أسمع بمثل هذه المنقبة لغيره » : فهكذا كانت عناية الناس بعلوم العربية .

ومن طريف مايروى عن يحيي بن خالد البرمكي ، أنه كان يعقد امتحانا للشعراء ليرتب لهم الجوائز حسب إتقانهم ، وجودة أشعارهم : وجعل ذلك إلى أبان بن عبد الحميد اللاحقي :

ويروى أبو الفرج (في الأغاني ٢٠ : ٧١) أن أبانا هذا جعل أبا نواس في مرتبة لم يرض عنها أبو نواس ، فهجاه بأبيات يقول فيها :

جالست يوماً أبانا
لادرّ درُّ أبان
حتى إذا ماصلاةالا
لأولى دنت لأوان
فقام ثم بها ذو
فصاحة وبيان
فكل ماقال قلنا
إلى انتهاء الأذان

(*) انظر التعقيبات على البحث في محاضر جلسات مؤتمر الدورة السادسة والأربعين (جلسة السبت (العلنية) ٥ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٠ هـ الموافق ٢٢ من مارس سنة ١٩٨٠ م) .

فقال : كيف شهدتم

بلدا بغير بيان

لاأشهد الدهر حتى

تعاين العينان

فقلت : سبحان ربي

فقال : سبحان مانى

وكان أبان هذا ممن يرمى بالزندقة :

الارشاد الصحى :

فى عصرنا هذا تظهر الجهود المكثفة لمحاربة التدخين ، وتتعاون وسائل الإعلام فى الدعوة إلى محاربته : وقد قام أسلافنا العلماء من قديم بالدعوة إلى وأده فى مهده : وفى ذلك يقول محمد بن عبد المعطى الإسحاقى المتوفى سنة ١٠٦٣ فى كتابه (أخبار الأول ، فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ص ١٦٦) وهو يذكر على باشا الوالى التركى من قبل الدولة العثمانية سنة ١٠١٠، يقول : « وفى زمنه ظهر الدخان المضر بالأبدان ، اليابس الطباع ، الذى لاشىء فيه من الانتفاع ، المبطل لحركة الجماع ، المسود للأسنان ، المهرب ملائكة الرحمن : بل ذكر أكثر من أكثر منه أن عاقبته وخيمة ، ومداومة شربة ذميمة ، يورث النتن فى الفم والمعدة ، ويظلم البصر، ويطلع بخاره على الأفئدة .ومن زعم أن شربه محرق للبلغم ، فقد أخطأ فيما زعم، بل ذم» إلى آخر ماقال فى أسجاعه:

الجراحة الدقيقة :

ونستطيع أن نسميها « جراحة التجميل» وقد عرفها العرب قديما وبرعوا فيها :

يقول الجاحظ (الحيوان ٢ :١٤) :

رأيت كلبا مرة فى الحى ونحن فى الكتاب فعرض له صبى يسمى مهديا من أولاد القصابين ، وهو قائم يمحو لوحه ، فعض وجهه فنقع ثنيته دون موضع الجفن من عينه اليسرى ، فخرق اللحم الذى دون العظم إلى شطر خده ، فرمى به ملقيا على وجهه وجانب شدقه ، وترك مقلته صحيحة وخرج منه من الدم ماظننت أنه لايعيش معه ، وبقى الغلام مبهوتاً قائماً لاينبس ، وأسكنه الفزع ، وبقى طائر القلب : ثم خيط ذلك الموضع ، ورأيته بعد شهر وقد عاد إلى الكتاب وليس فى وجهه من الشر إلا موضع الخيط الذى قد خيط :

ويذكر الجاحظ أيضا فى الحيوان (٤ :٩٥) تجربة فى جراحة العظام عرفها الناس فى زمانه إذ يقول : « وإذا نقص من الإنسان عظم واحتيج إلى صلته فى بعض الأمراض لم يلتحم به إلا عظم الخنزير» :

ومع سذاجة هذا القول ، لما نعرفه اليوم من التحام عظم الإنسان بعظمة المأخوذ منه لنفسه ، أو من إنسان آخر. إن هذا القول يصح أن يكون موضع تجربة فى عصرنا هذا :

وليست نجاسة الخنزير بمانعة من استعمال أعضائه لضرورة العلاج ، فقد أجاز الفقهاء خرز القرب والأسقية بشعر الخنزير لماله من مزية واضحة .وفى المغنى لابن قدامة المقدسى (١:٨٢) « رخص فيه الحسن ، ومالك ، والأوزاعى ، وأبو حنيفة ، لأن الحاجة تدعو إليه » :

والخنزير نجس العين فى جميع الأديان كما فى سفر اللاويين ١١ : ٧ والتثنية ٨:١٥ وإشعيا ٦٥ : ٤ وإنجيل متى٦:٧ و٨ : ٣٢ ومرقس ٥ : ١٣ ولوقا ٨:٣٣ وكما هو فى الشريعة الإسلامية بإجماع فقهائها استناداً إلى نصوص القرآن والحديث.

وقد وجدت القول بنجاسته تمتد جذوره إلى عقيدة قدماء المصريين فيما قبل سنة ٤٤٤ قبل الميلاد ، إذ يروى لنا المؤرخ اليونانى هيرودوتس الملقب بأبى التاريخ، فى كتابه المترجم بقلم حبيب بسترس (ص١٣١) مانصه :

والمصريون يحسبون الخنزير نجساً ـ أى يعدونه ـ فإذا اتفق لأحد أن يمس خنزيرا ولو ماراً به يبادر حالا إلى النهر ويطرح نفسه وثيابه ويغتسل : ولذلك لايسمح لرعاة الخنازير، وإن كانوا مصريين ، أن يدخلوا الهياكل، ولاأحد يزوجهم ابنته ولا يتزوج منهم ، بل يتزوجون بعضهم من بعض. ولايؤذن للمصريين أن يذبحوا الخنازير إلا للقمر وباخوس ، وذلك فى وقت واحد ، أعنى فى يوم مخصوص من السنة يكون القمر فيه بدرا ، وحينئذ يأكلون من لحمه » .

ثم يقول متسائلا : ولكن لماذا يكره المصريون الخنازير فى سائر الأعياد ويذبحونه فى العيد المذكور فقط ؟ يحتجون فى ذلك حجة لايناسب أن أوردها وإن كنت لاأجهلها :

قلت : وأنا أقتدى بقوله أيضا ، فلا يناسب أن أوردها وإن كنت لاأجهلها : وهى مسطورة فى حواشى المترجم لكتاب هيرودوتس :

الاحصاء المدنى :

من مظاهر الحضارة الرشيدة العناية بالأرقام فى مختلف الزوايا ، ولايستتب نظام أو حكم دون أن يعتمد على الأرقام فى تنظيم شئون الدول :

وقد عثرت على نص فى رسائل الجاحظ (٤ : ١٢٣) يذكر فيه أن آل أبى طالب أحصوا منذ أعوام وحصّلوا ، فكانوا قريبا من ألفين وثلاثمائة ، ثم لايزيد عدد نسائهم على رجالهم إلادون العشر . وهذا عجب :

يشير الجاحظ بهذا إلى فضيلة خص بها الطالبيون ، وهى فضيلة الإذكار ، أى إنجاب الذكور بكثرة ، مع أن المألوف فى النسل فى عالم الإنسان وعالم الحيوان والنبات أن يزيد عدد الإناث على عدد الذكور

زيادة كبيرة . حكمة بالغة من الخالق جل وعلا ، للحفاظ على بقاء النوع .

ثم يذكر لنا الجاحظ صورة من طرق الإحصاء الدقيق فيقول :

وإن كنت تريد أن تعرف فضل البنات على البنين .وفضل إناث الحيوانات على ذكورها .فابدأ فخذ أربعين ذراعا من عن يمينك ، وأربعين ذراعاً من عن يسارك وأربعين خلفك وأربعين أمامك ، ثم عد الرجال والنساء حتى تعرف ماقلنا . فتعلم أن الله تعالى لم يخلق للرجل الواحد من النساء أربعا ثم أربعا متى وقع بهن موت أو طلاق ثم كذلك للواحد مابين الواحدة من الإماء إلى مايشاء من العدد . مجموعات ومفترقات إلا لحكمة، وذلك لئلا يبقين إلا ذوات أزواج.

أليس هذا قمة من قمم وسائل الإحصاء ؟

استعمال الشوكة والسكين :

ومن المظاهر الحضارية مانظنه محدثا وهو قديم جداً ومن ذلك تناول الطعام بالشوكة والسكين

فى كتاب (الرد على الشعوبية) لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ (فى رسائل البلغاء ص ٣٧٠) وهو يوازن بين طريقتى تناول الطعام عند العرب والفرس ، نصاً يقول فيه وهو يعيب الفرس :

« وأما أكلهم بالبارجين والسكين ففسد للطعام ، ناقص للذته . والناس يعلمون ،إلا من عاند منهم ، وقال بخلاف ماتعرفه نفسه أن أطيب المأكول ماباشرته كف آكله ، ولذلك خلقت الكف للبطش والتناول . . .والتقذر من اليد المطهرة ضعف وعجب . وأولى بالتقذر من اليد: الريق والبلغم والنخاع الذى لايسوغ الطعام إلا به. وكف الطباخ والخباز تباشره . والإنسان ربما كان منه أقل تقذرا وأشد أنسا .

تعليم الحيوان :

لكل حيوان مما خلق الله قدر من الذكاء قل ذلك أوكثر ، حتى الحمار وهو مضرب المثل فى الغباء ، أمكن للإنسان أن يلج به باب التعليم والتدريب .

ومما يروى عن القدماء فى هذا المجال ، ماكان ممن يدعى: الأسود الكذاب العنسى أحد المتنبئين باليمن فى صدر الإسلام،وكان يلقب « ذا الحمار » . يقول المسعودى فى التنبيه والإشراف ص ٢٤٠ : « كان له حمار قد راضه وعلمه ، فكان يقول له: اسجد ، فيسجد . ويقول له : اجث ،فيجثو. وغير ذلك من أمور كان يدعيها ، ومخاريق كان يأتى بها ، يجتذب بها قلوب متبعيه .

المكاتبون :

ومن المظاهر الحضارية القديمة التى بادت أو أوشكت أن تبيد فى عصرنا الحاضر : نظام الرقيق ، الذى كان لدولة الدنمرك فضل السبق إلى تشريع تحريمه سنة ١٧٩٢ ليكمل تمام تنفيذه فى سنة ١٨٠٢ ،

ومن المعروف فى الشريعة الإسلامية أن وسائل التخلص من الرق ، هى : العتق والتدبير ، والمكاتبة . والتدبير : أن يقول المولى لعبده : أنت حر بعد موتى ، أو دبر موتى . فهذا هو العبد المدبر ، يعتق بعد وفاة سيده .

والمكاتبة : أن يشترط السيد على عبده أن يسعى ، ليقدم إليه قدراً معينا من المال أو من عروض التجارة ، إذا أداه إليه فك رقبته وأمسى حراً . ويكتبان بذلك عهدا .

فمن النصوص الغريبة ما وجدته فى كتاب المحبر لابن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥ (ص ٣٤٠ — ٣٤٧) إذ يعرض صورة توحى بمبالغة هؤلاء السادة فى إرهاق العبيد ، بتحصيل أموال طائلة منهم فى مقابل عتقهم :

وكانت حدود المكاتبة ما بين عشرين ألف درهم إلى مائة ألف . ومن عجب أن معظم هذه الأموال كانت حصيلة جهد هؤلاء العبيد فى التجارة وهى تجارة الرقيق ، وفى بيع المواشى من الإبل والبقر والغنم .

وقد نبغ كثير من أبناء هؤلاء المكاتبين الموالى ، منهم الجعد بن قيس الهمدانى ، والمهلب بن طلحة الكاتب ، ومحمد بن سيرين المحدث الفقيه ، وغيرهم كثير .

المولى من فوق :

وبمناسبة ذكر المكاتب والسيد ، نجد فى بعض كتب التاريخ والأنساب قولهم : هو مولاه من فوق ، وهو مولاه من تحت ، فماذا يؤدى التعبير فى كل منهما ؟

إن لفظ المولى من أضداد اللغة ، يقال للعبد : هو مولى من الموالى ، ويقال للسيد مولى أيضاً ، فمن أجل هذا الالتباس يلجأ بعض المؤرخين الذين يلتزمون الدقة ، إلى رفع هذا الالتباس الذى يعرض فى بعض المواطن بقولهم : « مولى فلان من فوق » أى هو سيده ومالكه » . كما يقولون : «مولى فلان من تحت» إذا كان المولى هو العبد والمملوك .

وتجد هذا الضوء فى جمهرة ابن حزم ١٤٢ وما أثبت فى حواشيها من تحقيق .

ألفاظ حضارية

الموجه :

عرف العرب قديماً تلك الثياب ذات الوجهين : وجه يحمل لوناً خاصاً ، وخلفه وجه آخر يحمل لوناً ، وهو ما يطلق العامة عليه ألفاظاً دخيلة « دبل فاس » :

أو : « دبل فيس » ، ولغتنا ذات الثراء المكنوز تسميه فى كل يسر « الموجه » . جاء فى اللسان (وجه ٤٥٦) : « وكساء موجه أى ذو وجهين » وكذلك فى القاموس وغيره من المعاجم . وأجدر بنا أن نئد هذا اللفظ الدخيل ونستعلى عليه بلغتنا الفصيحة الكريمة .

الجمة :

لعل من المظاهر الحديثة التى قد نظن أنها محدثة ، لبس الشعر المستعار الذى نقلنا

استعماله حديثاً فى الشرق من الفرنجة ، وهو ما تسميه اللغة الحديثة « الباروكة » ، وهى فى الفرنسية Peruque وفى الإنجليزية wig : وإنما هذه بضاعتنا ردت إلينا . وكان من أسلافنا فى عهد قديم جداً من يلبسها : وكانت تسمى بالعربية الفصيحة « الجمة » وهى مايجب أن تصير إليه الكلمة فى وقتنا الحاضر :

يروى أبو الفرج فى الأغانى ١ : ٩٥ أن ابن سريج هو أول من ضرب بالعود فى الغناء العربى فى مكة، وكان قد رآه مع العجم الذين قدم بهم ابن الزبير لبناء الكعبة بعد احتراقها وقد أعجب الناس بغنائهم فقال ابن سريج : أنا أضرب به على غنائه . فضرب به فكان أحذق الناس .

الذى يعنينا فيما روى أبو الفرج هنا هو قوله : « أن ابن سريج كان آدم أحمر ظاهر الدم سناطا ، فى عينيه قبل ، وأنه بلغ خمسا وثمانين سنة ، فصلع فكان يلبس جمة مركبة . وأصل الجمة مجتمع شعر الرأس ، وما سقط منه على المتكبين . وفى الحديث : لعن الله المجممات من النساء ، وهن اللواتى يتخذن شعورهن جمة تشبها بالرجال.

لفظ الزوار واطلاقه على طلاب المعروف :

ومن مظاهر المروءة والنبل عند البرامكة مارواه أبو الفرج فى الأغانى ٣ : ٣٦ من قول العباس بن خالد بن برمك قال : كان الزوار يسمون من قديم الدهر إلى أيام خالد بن برمك — يعنى والده — بالسؤال : جمع سائل ، فقال خالد : هذا والله اسم أستثقله لطلاب الخير ، وإنى لأرفع قدر الكريم عن أن يسمى بأمثال هؤلاء المؤملين ؛ لأن فيهم الأشراف والأحرار ، وأبناء النعيم ، ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدبا ، ولكنا نسميهم الزوار : جمع زائر وكان بشار بن برد حاضراً ، فقال مرتجلا يمدحه بذلك :

حذا خالد فى فعله حذو برمك
فمجد له مستطرف وأصيل

وكان ذوو الآمال يدعون قبله
بلفظ على الإعدام فيه دليل

يسمون بالسؤال فى كل موطن
وإن كان فيهم نابه وجليل

فسماهم الزوار سترا عليهم
فأستاره فى المهتدين سدول

فأعطاه لكل بيت ألف درهم :

تاريخ الفاظ

العاصمة والعواصم :

درجنا على أن نسمى قاعدة القطر أو الإقليم عاصمة ، وكانت قديماً تسمى « القصبة ، والقاعدة ، والمدينة » ، على حين تذكر المعاجم المتداولة العواصم بأنها بلاد قصبتها أنطاكية كما فى اللسان والقاموس ، وزاد صاحب القاموس أن العاصمة المدينة أيضاً : ويذكر ياقوت فى معجم البلدان أن العواصم حصون موانع وولاية

محيط بها بين حلب وأنطاكية ، وقصبتها أنطاكية ، وربما دخل فى هـذا ثغور المصيصة وطرسوس .

وتاريخ هذه التسمية — أى العواصم يرجع إلى عهد قديم هو بالتحديد سنة ١٧٠هـ يقول الطبرى (٨: ٢٣٤) : وفيها — أى فى تلك السنة — عزل الرشيد الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين ، وجعلها حيزاً واحداً ، وسميت العواصم . وإذن فاطلاق العاصمة على قصبة القطر أو قاعدته تسمية حديثة جداً ، إذ لا تعرف المعاجم العواصم إلا أنها أسماء بلاد معينة . وقد سجل المعجم الوسيط هذه التسمية الحديثة : فقال إن العاصمة المدينة ، وتطلق على قاعدة القطر أو الإقليم .

النسبة الى البلاد :

لم يكن العرب القدماء يعرفون نسبة الرجال إلى البلاد ، إذ كانت حياة جمهورهم بين الانتجاع والارتياد لا يقر لهم فى ذلك قرار . وإنما كانوا ينتمون إلى شئ ثابت هو القبيلة . التى يقرون بها ، ويحتمون بها ، ويخضعون لقوانينها . فالعربى قرشى ، وتميمى ، وهذلى ، وسعدى ، وجهنى ، وبكرى . وإذا عز عليه الانتماء إلى الفخذ انتمى إلى البطن ثم إلى العمارة ، ثم إلى الفصيلة ، ثم إلى القبيلة ، ثم إلى الشعب الكبير : العدنانى ، أو القحطانى ، أو القضاعى ، على ما فى القضاعى من خلاف.

ومن النادر جداً أن ينتمى العربى إلى موطن معين : فمن هـذه النوادر ما ذكر فى نسب الشاعر عارق الطائى ، واسمه قيس بن جروة ، قالوا فى نسبته : « الطائى الأجئى . فاحتفظوا بنسبته الأصيلة ، وهى الطائى ، وأضافوا إلى نسبته « الأجئى » وهى نسبة إلى أجا : أحد جبلى ، طيئ أجا وسلمى . الأغانى (١٩ : ١٢٧) وفى الخزانة (٣ : ٣٣١) » ويقال لولده : الأجئيون ، لأقامتهم بأجا . وعارق هذا : شاعر جاهلى ، وكان يعاصره شاعر آخر هو ابن عمه . وله هذه النسبة البلدانية أيضا . وهو ثرملة بن شعاث بن عبدكثرى الأجئى . ذكره التبريزى فى شرح الحماسة (٤ : ٢١) بهذه النسبة ، وقد ذكره ابن دريد فى الاشتقاق ٢٩٣ بدون هذه النسبة البلدانية .

قاضى القضاة :

لقب يظهر فى ثنايا التاريخ الإسلامى حيناً ثم يختفى ثم يظهر . ويراد به القاضى الأكبر ، أو شيخ القضاة ، أو وزير العدل بالمفهوم المعاصر . ومن ألمع من حمل هـذا اللقب ابن دقيق العيد القشيرى المنفلوطى المالكى الشافعى ، واسمه محمد بن على بن وهب . ولد بينبع سنة ٦٢٥ وتوفى سنة ٧٠٢ (وفيات ٢ : ٤٨٤) وقاضى القضاة بدر الدين محمد بن ابراهيم المعروف بابن جماعة المولود بحماة سنة ٦٣٩ والمتوفى سنة ٧٣٣ .

ولعل أقرب سلسلة منه في بلدنا مصر كانت في المناصب القضائية التي يوفد فيها القضاة الكبار من مصر إلى القطر الشقيق السودان وأول من ظفر بهذا المنصب الخطير في السودان هو العلامة المغفور له الشيخ محمد شاكر وذلك في سنة ١٨٩٩ ، وتلاه والدي المغفور له الشيخ محمد هارون ، ثم الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي ، ثم الشيخ محمد أمين قراعة ، ثم الشيخ نعمان الجارم ، ثم الشيخ حسن مأمون الذي كان آخر قاض للقضاة من مصر في السودان إثر محاولة فصل السودان عن مصر في سنة ١٩٤٢ :

وهذا اللقب القضائي قديم جداً يرجع إلى سنة ١٦٦ من الهجرة ، وهي السنة التي تولى فيها أبو يوسف القاضي أحد صاحبي الإمام أبي حنيفة القضاء في بغداد ، إذ ولاه موسى الهادي بن محمد المهدي القضاء ، ثم هارون الرشيد بن محمد المهدي من بعده.

قال الخطيب البغدادي في كتابه « تاريخ بغداد » (١٤ : ٢٤٠) : « وهو أول من دعي بقاضي القضاة في الإسلام » .

وكذا أورد هذا الخبر الشيخ علاء الدين علي دده السكتواري في كتابه « محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر » ص ٦٣ .

ولم أذكر هذه النبذة تنويها بأسماء من ذكر فيها فيما قد يظن ، وإنما أثبتها توديعا لهذا اللقب العربي الذي زال من عالمنا العربي الإسلامي ، وكان ختام زواله في مصرنا الرائدة العزيزة. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

سوريا :

من عجب أن نجد في معجم البلدان لياقوت ما صورته : « سورية موضع بالشام بين خناصرة وسلمية ، والعامة تسمية « سورية » أي بالتشديد . هذا ما كان في القرن السابع الهجري .

لكن العلامة الجغرافي المسعودي المتوفى سنة ٣٤٥ أي في القرن الرابع الهجري يذكر في التنبيه والإشراف ص ١٥٠ مانصه : « والروم يسمون بلادهم أرمانيا ، ويسمون البلاد التي سكانها المسلمون في هذا الوقت من الشام والعراق : سوريا . والفرس إلى هذا الوقت تقارب الروم في هذه التسمية ، فيسمون العراق والجزيرة والشام سورستان ، إضافة إلى السريانيين الذين هم الكلدانيون . ويسمّون — أي الكلدانيون — سريان ولغتهم سورية ، وتسميهم العرب النبط ».

ونحو هذا في معجم البلدان في رسم (سورستان) ، إذ يقول : « وقال أبو الريحان : والسريانيون منسوبون إلى سورستان وهي أرض العراق وبلاد الشام . غير أن هرقل ملك الروم حين هرب من أنطاكية أيام الفتوح إلى القسطنطينية التفت إلى الشام وقال : عليك السلام ياسورية ، سلام مودع لايرجو أن يرجع إليها أبداً »

يقول ياقوت: وهذا دليل على أن سوريا هي بلاد الشام.

ويقول صاحب القاموس المتوفى سنة ٨١٧ إن سورية مضمومة مخففة اسمٌ للشام. ويعقب عليه مرتضى الزّبيدى المتوفى بعده بأربعة قرون سنة ١٢٠، بقوله «فى القديم» ثم يقول: «والكلمة رومية» أى كما قال المسعودى من قبل.

وهكذا. لانجد فى القديم إلا اضطرابا فى دلالة هذه التسمية التى استقرت الآن فى أحد أقاليم الشام بوضع جغرافى وسياسى معين، بعد أن ظلت ردْحاً من الزمان كورة من كور الشام التى تشمل أجناد قنّسرين ودمشق، والأردن، وفلسطين، وحمص، بخلاف الثغور وهي: المصيصة، وطرسوس وأذنة، وأنطاكية، وجميع العواصم. ثم صارت فى التقسيم المعاصر إلى: لبنان وفلسطين وسوريا والأردن.

الزير:

كلمة عربية معناها الدن. والدن: وعاء كهيئة الحب، إلا أنه أطول، مستوى الصنعة، فى أسفله كهيئة قونس البيضة: أو الدن، أصغر من الحب له عسعس، فلا يقعد الا أن يحفر له.

ومادته يائية لا واوية. وأما قولهم: زير نساء فاشتقاقه من الزيارة ومادته واوية. يقال فلان زير نساء، إذا كان يحب زيارتهن ومحادثتهن ومجالستهن. وقد تقول العامة: «زئر نساء»، وهو خطأ واضح.

ومن طريف مايروى عن قضاة الأندلس أنه كان منهم قاض اسمه «أبو الزّير أحمد بن وهب». قال الخشنى المتوفى سنة ٣٦١ فى كتابه (قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص٥١): وكنى بأبى الزّير لأنه عمل نبيذاً فى زير، وأراد أن يذوقه، ولم يجد آنية يدخلها فى الزير، فأدخل رأسه فى الزير ثم لم يستطيع أن يخرجه حتى كُسر الزير، فكنى بأبى الزير.

القندل:

قد نظنها كلمة حديثة، ونسمعها حينا تقال فى معرض السباب أو السخرية بمن يجلب لنفسه سوءا، أو لغيره سوء الحظ، أو يأتى أمراً منكرا. والكلمة مولدة قديمة التوليد، مأخذها من القنديل وكانوا يقولون لمن يتعهد قناديل الزيت «مقندل»:

ومن طريف الأخبار ما يرويه الخالديان توفى آخرهما سنة ٣٩٠ فى كتاب التحف والهدايا ١١٩ مما حدث به أبو بكر محمد بن يحيى الصولى المتوفى سنة ٣٣٦ قال: اختصم رجلان إلى قاض وكان أحدهما أعد للقاضى هدية — فأراد القاضى أن يقضى عليه بحق وجب. فدنا منه — أى صاحب الهدية — فقال مسرا إليه: قد أهديت إلى القاضى شبابيط دجْلية، وفراريج كسكرية، وجبنه دينورية، وشهدة رومية. فقال القاضى: قم! وصاح: هذا ماتسارنى به؟! إذا كانت لك بينة بالرى

انتظرناها وأخرنا الحكم وأجلناك !
فقال الغريم فى ذلك :

إذا ماصب فى القنديل زيت
تحولت الحكومة للمقندل
وعند قضاتنا حكم وعلم
وبذر حين ترشوهم بسنبل

الشطرنجة :

الشطرنج بدون هاء كلمة معربة تعريباً قديما ، وإن لم يكن العرب فى جاهليتهم يعرفونها ، وإنما وفدت إليهم بعد اختلاط العرب بالأعاجم من الفرس والهند : وهى لعبة معروفة كانت ذات صور شتى فى القديم ، من حيث نظام رقعتها وعدد بيوتها ومن حيث نوع القطع التى يلعب بها : وعددها ، وأسماؤها . وتذكر دائرة المعارف الإسلامية أنها كانت معروفة عندقدماءاليونان ، وانتقلت إلى أمم شتى : ويزعم العرب — على حدقول الدائرة — أنهم أخذوها عن الهنود . ويذكر التاريخ أن هارون الرشيد أهدى إلى شارلمان فيما أهدى رقعة شطرنج .

ومن أسماء قطعه «الرخ» ، وأصله اسم لطائر خرافى ، ثم أطلق على القطعة التى تسمى الآن «الطابية» أو «القلعة». وفى اللسان والقاموس أن الرخ من أداة الشطرنج ، يقول عمر الخيام :

وإنما نحن رخاخ الفضاء
ينقلنا فى اللوح أنى يشاء
وكل من يفرغ من دوره
يلقى به فى مستقر الفناء

وفى الرخ أيضا يقول السرى الرفاء :

وفتية زهر الآداب بينهم
أبهى وأنضر من زهر الرياحين
راحوا إلى الراح مشى الرخ وانصرفوا
والراح يمشى بهم مشى البراذين

الذى أريد أن أضيفه أنى عثرت على لفظ « الشطرنجة » مؤنثة فى غير مادتها . وهى مادة (كوب ٢٢٥) من اللسان . وقد ورد فيها : « والكوبة : الشطرنجة » :

وعلى ذلك يحسن أن تضاف هذه الكلمة إلى المعاجم التى يصدرها مجمعنا الموقر .

بعض قضايا العربية

الامعة والطفيلى :

كان لظهور الإسلام تأثير سريع فى تطوير اللغة بما أضاف من اصطلاحات دينية ، واجتماعية ، وسياسية . ومن باكورات هذا التطوير كلمة «الإمعة» وهو الرجل الضعيف الرأى المتهافت ، الذى يقول لكل أحد: أنا معك : ولم يكن العرب قبل يعرفون الكلمة بهذا المعنى ، وإنما يعرفونها بمعنى الرجل الذى يتبع الناس إلى موائد الطعام من غير أن يدعى : ويروون فى ذلك عن عبد الله بن مسعود قوله : «كنا فى الجاهلية نعد الإمَّعة الذى يتبع الناس إلى موائد الطعام من غير أن يدعى ، وإن الإمَّعة

فيكم اليوم المحقب الناس دينه » أى الذى كأنه يضع دينه فى حقيبة غيره ، فغيره هو الذى يوجهه فى أمور دنياه وتقلبات رأيه :

وتسمية من يتبع الناس إلى الطعام أقدم بلا ريب من تسمية « الطفيلى » لأن الإمعة كلمة جاهلية ، يرادفها أيضا كلمة « الوارش » وهو الذى يدخل على القوم فى طعام لم يدع إليه :

وأما الطفيلى فهى كلمة إسلامية بلا ريب ونسبتها إلى رجل كوفى من بنى عبد الله بن غطفان ، كان يدعى طفيل الأعراس أو العرائس واسمه طفيل بن دلال ، كان يأتى الولائم دون أن يدعى إليها وكان يقول : « لوددت أن الكوفة كلها بركة مصهرجة فلا يخفى على شئ منها » فكان العرب يقولون فى أمثالهم :

« أوغل من طفيل » ، و « أطمع من طفيل »

التصغير على فعيل :

أجمعت كتب النحو على أن صيغ التصغير فى الأسماء المعربة منحصرة فى صيغ ثلاث : فعيل ، وفعيعل ، وفعيعيل .

ويذكر ابن يعيش (٥ : ١٦) وتبعه كذلك الشيخ خالد ٩٠٥ فى شرح التصريح أن هذه الأمثلة من وضع الخليل ، وأنه قيل له لم بنيت المصغر على هذه الأبنية ؟ فقال : لأنى وجدت معاملة الناس على فلس ، ودرهم ودينار :

وقد عثرت على صيغة رابعة نادرة ، هى صيغة فعّيل ، وهى الصيغة الأولى نفسها لكنها بكسر الفاء . جاء فى الاشتقاق لابن دريد ١٩١ : « وشيم : تصغير أشيم وهو الذى له شامة فى أى موضع من جسده والأنثى شيماء » . ولم أجد هذا النص على هذه الصيغة فى غير كتاب « الاشتقاق » . ويعززه ما جاء فى المشتبه للذهبى ٣٩٢ من ضبطه بالكسر فى موضعين ، وما جاء فى القاموس (شيم) من قوله : « وشيم ويكسر : أبوعاصم الصحابى » . فهذا هذا :

نائب الفاعل :

قد يظن أن هذا المصطلح النحوى قديم أصيل ، وإنما هو مصطلح طارئ ابتدعه نحوى متأخر هو محمد بن عبد الله ابن عبد الله بن مالك صاحب الألفية ؛ أى فى القرن السابع الهجرى ، إذ كانت حياته بين سنتى ٦٠٠ ، ٦٧٢ :

قال أبو حيان : لم أر مثل هذه الترجمة إلا لابن مالك . وقال الشيخ الخضرى فى حاشية على الألفية : هذه الترجمة مصطلح المصنف ، وهى أولى وأخصر من قول الجمهور : المفعول الذى لم يسم فاعله ، لأنه لا يشمل غير المفعول مما ينوب ، كالظرف ولأنه — أى قول الجمهور — يشمل المفعول الثانى فى نحو : أعطى زيد دينارا .

فالتسمية القديمة إذن غير جامعة لأنها تخرج الظروف ، وغير مانعة لأنها تدخل المفعول الثانى :

ويقول ابن الطيب الفاسى المتوفى سنة ١١٧٠ فى شرحه لاقتراح السيوطى المسمى «فيض نشر الانشراح من طى روض الاقتراح» فى الورقة ١٠٢ ا : «والتعبير بالنائب أحسن وأخصر، كما قاله ابن هشام وغيره. وأول من عبر به الشيخ ابن مالك. وعبارة الأقدمين: المفعول الذى لم يسم فاعله. يشير بذلك إلى ما ورد فى كتاب الإعراب عن الإعراب لابن هشام ص ١٤٧.

وابن مالك هو أيضاً صاحب اصطلاح البدل المطابق، لبدل الكل من الكل. وصاحب اصطلاح المعرف بأداة التعريف، بدلا من المعرف بأل أو باللام، ليشمل المعرف بأم فى لغة حمير:

المشالة :

يقولون فى الضوابط اللغوية : الباء الموحدة، التاء المثناة من فوق، الياء المثناة من تحت. وكذلك يقولون : الحاء المهملة والخاء المعجمة. وهذا كله واضح الاشتقاق. ولعل أغرب تلك الضوابط قولهم : الظاء المشالة، التى يقال لها أيضا : الظاء المعجمة. ولم أجد من علل هذه التسمية إلا الخفاجى فى مقدمة شفاء الغليل ص ٧ إذ يقول : «وتسمى مشالة لرفع خطها بالألف فرقا بينها وبين الضاد، من شال بمعنى ارتفع». وفى همزية البوصيرى :

وبهم فخر كل من نطق الضا
د فقامت تغار منها الظاء

لأنه عند الغيرة يقوم الشخص : ولذلك يكنى عن الأمر العظيم بالمقيم المقعد.
ولابن نُباتة من قصيدة نبوية :

سرى بى فى حروف اللفظ سرٌّ
لمنطقه وللضاد اجتباء
ألم تر أنها جلست لفخر
وقامت غيرة للضاد ظاء

وهى من قولهم أشال الحجر، وشال به يشول، إذا رفعه.

كتاب القوافى لسيبويه :

ليس إمام النحاة سيبويه بالنكرة، وليست أخباره بخافية على الناس، ولا تكاد تفتح كتابا فى تراجم الأدباء أو العلماء حتى تظهر على ترجمة لسيبويه.

والمعروف أن له كتاباً واحداً، هو الكتاب فى علوم العربية، الذى كان يقال له «قرآن النحو».

وقد تناول القدماء والمحدثون، ومنهم الأستاذ على النجدى ترجمة سيبويه ودراسته، ولم أجدهم ذكروا من آثاره غير هذا الكتاب.

ولكنى عثرت بأخرة على كتاب له آخر يسمى «كتاب القوافى». ولم أجد له ذكراً فى كتب المؤلفات كالفهرست لابن النديم و«كشف الظنون» لملا كاتب جلبى :

ووجدته فى حاشية الدمنهورى على متن الكافى لأحمد القنائى يقول عند الكلام على الردف ص ٩٢ :

والردف واجب اتفاقاً حيث يلتقى ساكنان آخر البيت كقوله :

أبلغ النعمان عنى مألكا
أنه قد طال حبسى وانتظارى

ليسهل الانتقال من أحد الساكنين إلى الآخر بالمد الذى هناك . وعلى قول الأكثر حيث يستكمل البيت عدد أجزاء دائرته وينقص من ضربه حرف متحرك أو زنته، أى حرف ساكن مع حركة ماقبله كما فى القطع :

ثم يقول : وأجاز سيبويه فى كتاب القوافى له استعمال مثل ذلك بغير ردف . قال : لقيام الوزن بالحرف الصحيح . وأنشد :

ولقد رحلت العيس ثم زجرتها
قدما وقلت عليك خير معد

ثم يسوق كلاما يشرك فيه مع سيبويه الجرمى ، والفارسى ، والشلوبين .

وقد رجعت إلى كتب القوافى التى نشرت حديثاً كمختصر القوافى لابن جنى المتوفى سنة٣٩٢،والقوافى لأبى يعلى التنوخى المتوفى قريباً من سنة٤٨٨، والوافى فى العروض والقوافى للتبريزى المتوفى سنة٥٠٢، والعيون الغامزة للدماميني المتوفى ٨٢٧، بالإضافة إلى العقد الفريد ، وفاة صاحبه ٣٢٨ فلم أجد ذكرا لهذا الكتاب .

لكنى وجدت أبا يعلى التنوخى فى كتاب القوافى يقول عند الكلام على الردف : « وذكر سيبويه أن فتح ماقبل الواو والياء لا يجوز » ثم يقول معترضا على سيبويه : « وقد استعملت الشعراء ذلك . ومما ورد بالفتح أيضا قول الشاعر :

لعمرك ما أخزى إذا ما سببتنى
إذا لم تقل بطلا على وتمينا
ولكنما يخزى امرؤ تكلم استه
قنا قومه إذا الرماح هوينا

وقد ذكر ما ذهب إليه سيبويه أبو بكر الخزّاز العروضى » . ا هـ. فسيبويه فيما نقل عنه هنا متشدد ، على حين نراه فى المسألة الأولى على كثير من اليسر .

على أن مانقل عنه فى المسألة الأولى نجد عكسه فى كتابه ٤ : ٤٤١ فهو فيه يوجب حرف الردف فى كل قافية محذوفة ، أى حذف منها حرف متحرك ، وهو القطع الذى سبقت الإشارة إليه . إلا أن يكون قد رجع عن رأيه فى أحد الكتابين إلى الرأى الآخر .

أيوه :

محاولة تأصيل الألفاظ العامية ، أى ردها إلى أصولها العربية ، لها جذور قديمة .

٤٩

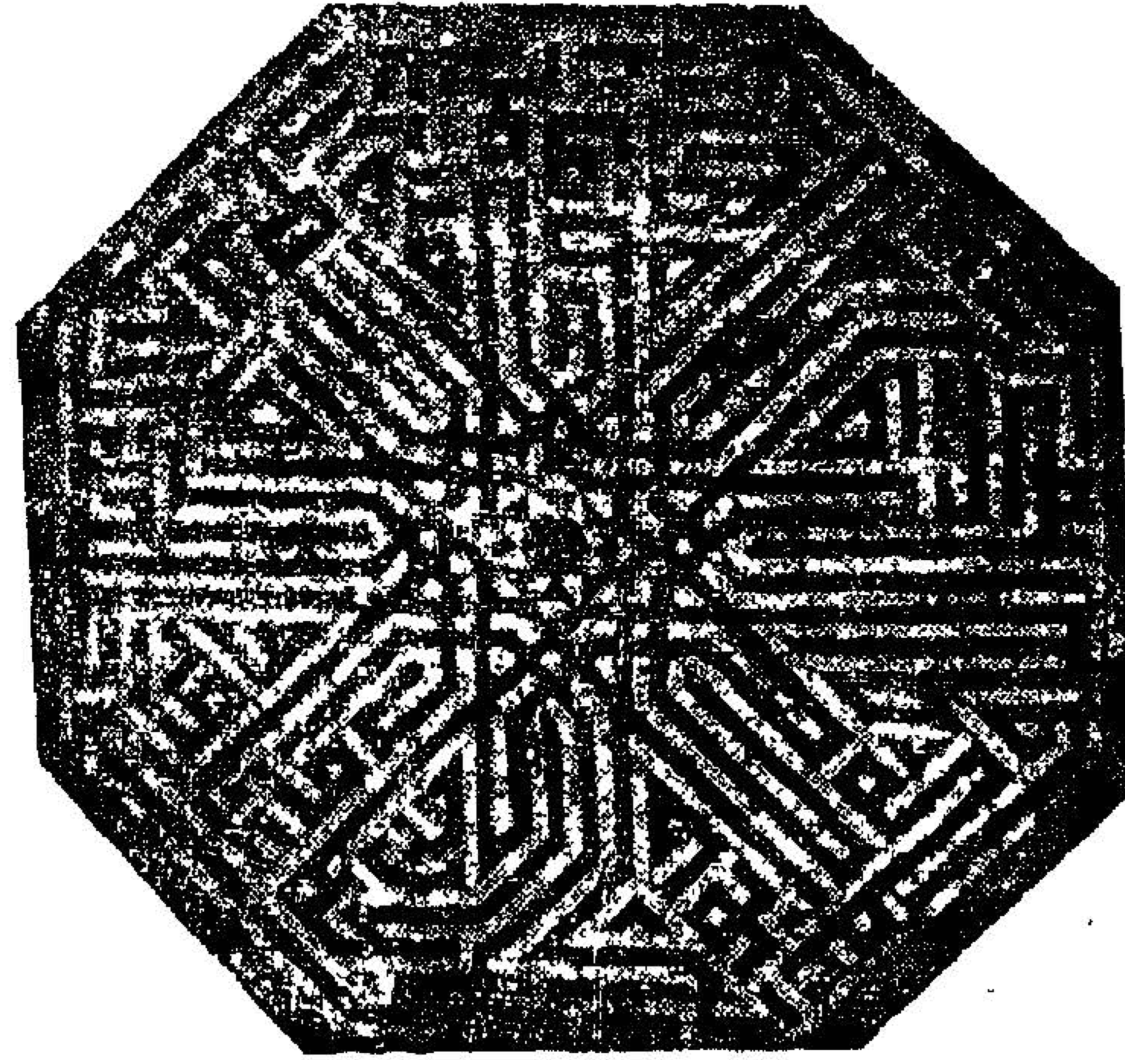
ولكن القدماء لم يرموا إلى إحياء تلك الكلمات المبتذلة أو الحث على استعمالها .

من نماذج هذا ما أورده الأمير فى حاشيته على المغنى ١ : ٧١ فى الكلام على (إى) التى هى حرف جواب بمعنى نعم، وأنها بهذا المعنى لابد أن تكون متلوة بقسم ، إذ يقول العرب : « إى والله » ، « إى وربى » ونحو ذلك .

ثم يقول : « وعوام مصر يحذفون المقسم به ويقتصرون على الواو » ــ أى يقولون : إى و ــ وربما ألحقوها هاء السكت : إيوه . أو فتحوا الهمزة : أيوه » :

فهذا منهج من يحترم لغته كما تحترم كل شعوب الأرض لغاتها . وهذا هو مذهب من يدفع عن لغة القرآن أرجاس الغزو الشعوبى ، ومن ينفى عنها أوضار الذوق السوقى .

عبد السلام محمد هارون
عضو المجمع



لغة المسرح
بين العامية والفصحى
للدكتور شوقي ضيف

— ١ —

كثيرون يظنون أنه لم يكن لمصر عهد بالمسرح وتمثيلياته قبل محاكاتها للمسرح الأوربى فى النصف الثانى من القرن الماضى ، وهو ظن مخطئ ، إذ كان لديها من قديم مسرح خيال الظل ، وهو مسرح دمى متحركة متكلمة . وعرف العرب هذا المسرح فى مطالع القرن الثالث الهجرى إذ نجد فنانا خياليا يتوعد الشاعر الهجاء دعبلا إن هو هجا أباه أن يتخذ أمه فى الخيال سخرية يضحك عليها الناس . وشاع الخيال فى العالم العربى ، وعنيت به مصر زمن الدولة الفاطمية ، إذ كانت تكثر من الاحتفالات فى الأعياد الإسلامية ، والمسيحية والمصرية القديمة ، ويقول المقريزى : «كان الناس يطوفون فى تلك الأعياد بالخيال والتماثيل والسماجات » . والتماثيل هى دمى خيال الظل وأشباحه ، والسماجات : شخوص كانوا يتراءون فى صور منكرة مضحكة . ويقال إن صلاح الدين الأيوبى الذى كان فى شغل دائماً بحرب الصليبيين اختلس من أيامه التى كان يقضيها فى القاهرة بعض الوقت ليشاهد مسرح خيال الظل ، وأعجب بما رآه عليه من تمثيل و دمى متحاورة . ويرقى ابن دانيال أكبر الخياليين فى عصر المماليك بتمثيليات خيال الظل رقيا بعيدا إذ ألف له — كما ذكرنا فى كتابنا : «الفكاهة فى مصر» — ثلاث تمثيليات بديعة ، أولاها وأهمها تمثيلية « طيف الخيال » وهى ملهاة هزلية تصور جوانب من الحياة الاجتماعية فى عهد الظاهر بيبرس ، ونرى طيف الخيال فى فواتحها يعرض أمر بيبرس المشهور بتحريم الغوايات وتشديده فى أعقاب أصحاب الحانات ، ويتصور أن إبليس مات وانتهت غواياته ويرثيه رثاء هزليا مضحكاً ، واصفاً كيف كسرت أوانى الخمر ودنانه ، والخمارون يتباكون بدموع غزيرة . وتبدأ مشاهد الملهاة ، وهى تدور حول مشكلة الخاطبة فى العصور الماضية وما كان يحدث عن طريقها من أغلاط فى حقائق العروسين ، فالعريس يدعى أنه أمير من أمراء الموصل وحقيقته

(*) انظر التعقيبات على البحث فى محاضر جلسات مؤتمر الدورة السادسة والأربعين (جلسة السبت « العلنية » من جمادى الأولى سنة ١٤٠٠ هـ الموافق ٢٢ من مارس سنة ١٩٨٠ م) .

أنه بائس فقير ، والعروس شمطاء قبيحة منتهى القبح ، وتحدث فى أثناء الزفاف مفارقات مضحكة كثيرة يتخللها إنشادُ الشعر والغناءُ والرقص . وشخوص الملهاة فى غاية الوضوح : ويطرد فيها تسلسل منطقى محكم ، وبيئتها المصرية مصورة تصويراً دقيقاً سواء فى أحداثها السياسية أو فى علاقات الرجال بالنساء والشعب بحكامه . وتمثيليةُ ابن دانيال الثانية بعنوان «عجيب وغريب» وهى تصور سوقاً مصرية يدخلها واحد بعد واحد ، وكل منهم يتحدث فنضحك إذ يمثل فى حديثه وعلى لسانه حرفته التى يحترفها أو جاليته التى ينتسب إليها والتى هبطت القاهرة حديثاً . ونراهم وقد جمدت ألسنتهم عند صور معينة من الكلام . والتمثيلية الثالثة بعنوان : «المتيم» وهى خاصة بالحب وحيل المحبين ، وفيها مشاهد مضحكة من عراك الديكة ونطاح الكباش والثيران.

ومن يقرأ هذه التمثيليات يلاحظ تواً أن ابن دانيال مع محافظته على السجع فيها والشعر اقترب قرباً شديداً من لغة زمنه اليومية ، فأحيانا يسكِّنُ أواخر الكلمات غير ملتزم لعلامات الإعراب فيها ، وأحياناً يستخدم كلمات عامية . وكأنه أحسَّ بقوة أنه ينبغى أن يعرض على أفراد الشعب تمثيلياته بلغة قريبة من لغة التخاطب اليومية التى تجرى على ألسنتهم ، والتى تعودتها آذانهم وأسماعهم . وظاهرة ثانية تلاحظُ على مسرح خيال الظل ، هى ما يصحب الحوار فيه أحياناً من إنشاد الشعر والموسيقى والغناء، وكأن ابن دانيال تَنَبَّه — وتبعه الخياليون ينهون — إلى أن الشعب المصرى يَسْتَهوية الطرب والغناء ، ففسحوا لهما فى تمثيلياتهم ، حتى يشبعوا هذا الجانب عنده.

وبجانب هذا المسرح الكبير : مسرح خيال الظل عرفت مصر مسرحاً صغيراً للدمى كان إلى زمن قريب يتنقَّل بين أحياء القاهرة الشعبية ، هو مسرح الأراجوز ، ويقال إنه جاء من تركيا وهو فيها يسمى قراقوز : أى العين السوداء ؛ لأن كثرة من كانوا يعرضون على الجماهير هناك كانوا من الغجر الجوالين . وأكبر ظنى أن كلمة أراجوز إنما هى تحريف مع تطور الزمن لاسم قراقوش الذى فوّض له صلاح الدين بناء قلعة الجبل وكان فيه غفلة وحمق ، فعرضه ابن مماتى فى كتابه : «الفاشوش فى حكم قراقوش» بل عكسه فى مرايا محدبة تصور كثيراً من فكاهاته ونوادره ، واستغله أصحاب خيال الظل فى مسرحهم الصغير للدمى . وظل حيّاً فى مصر حتى نقله السلطان سليم مع خيال الظل إلى تركيا . وحُرِّف اسم قراقوش إلى قراقوز ، وعاد إلينا باسم أراجوز . وكانت تُستخدَمُ العاميةُ دائماً فى كل ما يمثَّل عليه ، وابن مماتى هو الذى أعده من قديم المدلك فإن نوادره القراقوشية التى صاغها فى كتابه الفاشوش مكتوبة باللغة العامية لزمنه .

— ٢ —

وتمضى مصر بهذا التراث التمثيلى الذى تسوده — أو تشيع فيه — العامية حتى النصف الثانى من القرن الماضى ويدخل إليها يعقوب صنوع لعهد الخديوى إسماعيل المسرح الغربى متخذا قاعة الأزبكية مكانا لفرقته المسرحية ، ويأنس المصريون إلى فرقته وما مثلت من مسرحياته الهزلية الاجتماعية ، وكانت بالعامية ، وكان يضمنها أغانى شعبية ، وكأنه أراد أن تكون نقاة طبيعية للجمهور المصرى من مسرح خيال الظل إلى المسرح الغربى الحديث . ويؤكد هذه الرغبة وتلك الصلة عنده أنه قدم على مسرحه أحيانا عروضا لخيال الظل بأغانيه ولغته العامية .

وكأن تراث مصر التمثيلى لخيال الظل والأراجوز أعدها لقبول المسرح الغربى ويدل على ذلك أوضح الدلالة أن بعض اللبنانيين والسوريين ممن عرفوا المسرح الأوربى وتمثيلياته حين رأوا أن يحتذوا على مثاله مسارح عربية فى وطنيهما : لبنان وسوريا منوا بإخفاق ذريع . وكان «مارون نقاش» اللبنانى أول من نهض بهذه المحاولة فى منتصف القرن الماضى ، فألف ثلاث مسرحيات استلهم فيها موليير واتخذ لتمثيلها مسرحا ملاصقا لبيته فى بيروت ولكن مواطنيه أعرضوا عنه ، فأخفقت محاولته ويحاول فى سوريا نفس المحاولة أبو خليل القبانى ، فيتخذ فى دمشق مسرحا يؤلف له طائفة من المسرحيات الغنائية وتنشب ضد مسرحه معارضة شديدة فيضطر إلى إغلاقه ، ويهاجر إلى مصر فى سنة ١٨٨٤ ، ويقيم لمسرحا بها ، أخذ يقدم عليه مسرحيات غنائية ، وجميعها تطبع بطوابع الركاكة والعامية . وراج هذا المسرح الغنائى عند المصريين وواكبوا عليه عند مؤسسة القبانى ثم عند خليفته إسكندر فرح ، ومن خلاله ظفرت مصر برائد فن الأوبرا والأوبريت فيها : الشيخ سلامة حجازى . وشغف المصريون به وبفرقته التى ظلت ناشطة حتى سنة ١٩١٤ وخلفه منذ سنة ١٩١٧ على هذا المسرح الغنائى الشيخ سيد درويش.

ويعود جورج أبيض من بعثة مسرحية فى مطلع العقد الثانى من القرن الحاضر ، ويؤلف فرقة مسرحية . ويقدم لها ترجمات دقيقة لمآس يونانية وغربية حديثة ، غير أن الجمهور أعرض عنها وعن مسرحه الجاد إذ كان مولعا حينئذ بمسرح الشيخ سلامة حجازى الغنائى . ونلتقى فى سنة ١٩١٣ بفرح أنطون ومسرحيته الاجتماعية : « مصر الجديدة ومصر القديمة » وسنخصها بكلمة عما قليل . ويدور العام فينشر مسرحيته التاريخية : «السلطان صلاح الدين » المكتوبة بفصحى مبسطة . ولايلبث إبراهيم رمزى أن ينشر فى سنة ١٩١٥ مسرحيته التاريخية «أبطال المنصورة» المكتوبة بفصحى رصينة ويكتب فى نفس العام مسرحيته الاجتماعية الشعبية : « دخول

الحمام مش زى خروجه ». وسرعان ماتلتقى بمحمد تيمور ومسرحياته الاجتماعية المكتوبة بالعامية . وتغرق المسارح فى العقد الثالث من هذا القرن فى ملاه ومهازل فكاهية على نحو ماهو معروف عن مسرحى نجيب الريحانى وعلى الكسار ، كما تغرق فى الميلودراما وكوارثها المفجعة الصارخة ؛ وتعم فى ذلك كله العامية . ومانكاد نمضى فى سنة ١٩٢٧م حتى ينشر شوقى مسرحيته الشعرية « مصرع كليوباترة » وتلاها بمسرحيتين شعريتين وطنيتين مثلها ، هما : «على بك الكبير» «وقمبيز» وبمسرحيتين شعريتين عربيتين هما «مجنون ليلى» « وعنترة». وأضاف إلى تلك المآسى الخمس ملهاة شعرية هى : « الست هدى» : وبذلك وضع أساس المسرح الشعرى الفصيح وأقام أركانه وعمده ورفع بناءه سامقا : وكان ذلك عملا باهرا ، لا من حيث إن شوقى صاغ هذا الفن المسرحى الشعرى فى الفصحى لأول مرة فحسب ، بل أيضا لأنه قاوم به تيار العامية الذى كان قد طغى على المسرح المصرى وفُتن به الشباب ، فجاهد ضده بقوة ، واستطاع أن يصرفهم عنه إلى حين ، إذ راعتهم مآسيه حين مثلت وكذلك ملهاته روعة بالغة . ومع ذلك انعقد غبار نقدى كثيف حول مآسيه ، وعُقدت له محاكمات شتى على أساس مخالفاته لصيغة المسرح الكلاسيكى الفرنسى فى قواعد المأساة ، إذا أدخل على مآسيه عناصر فكاهية . وأكبر الظن أن الذى جعله يندفع إلى ذالك نجاح مسرحى الريحانى والكسار حينئذ وإكباب الجمهور المصرى على هزلياتهما الفكاهية ، فرأى أن يدخل على مآسيه شيئاً من الفكاهة ، حتى يرضى ميول هذا الجمهور ويجذبه إلى مسرحه . وأيضا فإنه خالف صيغة المسرح الكلاسيكى الفرنسى فى قواعد المأساة ، إذ أدخل على مآسيه تيارا من القطع والأشعار الغنائية الملحنة ، وإنما دفعه إلى ذلك مارآه فى الجمهور المصرى من شغف شديد بالمسرح الغنائى وانصرافه عن المسارح الجادة مثل مسرح جورج أبيض كما أسلفنا ، فرأى أن يدخل هذا التيار على مآسيه استرضاء واجتذابا للجمهور . وفعلا ظفرت مآسيه حين مثلت بنجـاح منقطع النظـير كما ذكرنا : وكل ذلك وما يماثله قصد إليه شوقى عامدا فى مسرحه حتى يحدث للمسرح المصرى العربى صيغة جديدة فى المآسى ، صيغة تميزه . وبدلا من الإشادة بمقصده وبالصيغة الجديدة التى اقترحها للمأساة فى المسرح المصرى العربى أخذ النقد العنيف يُكال له كيلا : ومما يدل على نجاح مسرحه ومآسيه متابعة الأستاذ عزيز أباظة له فى التوفر على المسرح الشعرى الفصيح وإخراجه كثيرا من المآسى التى مثلت وأعجب بها الجمهور مثل «قيس ولبنى» و«الناصر» « وشهريار » وتلاه الأستاذ على أحمد باكثير بخرج مسرحيات شعرية تاريخية وإسلامية متنوعة :

ويلبي شوقي نداء ربه سنة ١٩٣٢ ويلمع فى النثر المسرحى الفصيح اسم الأستاذ توفيق الحكيم ، وكان قد وعى المسرح الفرنسى الغربى وعياً عميقاً ، فحاول صنع مسرحيات نثرية فصيحة على غرار مسرحياته ، مع بث الروح الشرقية فيما ينشىء من مسرحيات : ولم يلبث أن نشر فى سنة ١٩٣٤ أولى مسرحياته : «أهل الكهف» مقيما الصراع فيها بين الإنسان والزمان ، وتلاها بمسرحية « شهرزاد » مقيما الصراع فيها بين الإنسان والمكان . وتتوالى له مسرحيات يستوحيها من موضوعات دينية ومن أساطير إغريقية وغير إغريقية . ويذهب كثير من النقاد إلى أن مسرحه ذهنى تجريدى مما يجعل مسرحياته صالحة للقراءة أكثر من صلاحيتها للتمثيل . وجعله هذا النقد يضيف إلى مسرحياته الذهنية مسرحيات وطنية ، ومضى يتوسع فى المسرحيات الاجتماعية وأخذ هـذا الاتجاه يعمق عنده بعد الثورة . ومن أهم ما يميزه أنه غزير الإنتاج المسرحى وأنه لايكاد يترك فى المسرح الحديث بابا إلا ويفتحه على مصاريعه ، من ذلك فتحه لباب مسرح العبث أو اللامعقول ، وتأليفه فيه مسرحيته : «ياطالع الشجرة » . وله فى مسرحياته أسلوب عربى مبين غاية الإبانة ، شفاف غاية الشفافية ، أسلوب سلس متدفق عذب . ويعنى الأستاذ محمود تيمور بالإنتاج المسرحى ، وينشر فيه مسرحيات قصيرة وأخرى طويلة يستمدها من التاريخ القومى العربى ، مستخدماً فيها الفصحى ، وله مسرحية اجتماعية هى : «المخبأ رقم ١٣» وقد كتبها فى نسختين إحداهما بالفصحى والثانية بالعامية . ومرجع ذلك عنده ماصرح به فى كتابه «دراسات فى القصة والمسرحية» من أن الفصحى إنما ينبغى أن تكون لغة المسرحية المترجمة والتاريخية . أما المسرحية الاجتماعية فينبغى أن تكتب بالعامية لأنها لغة الكلام اليـومية المهيمنة التى تستعذبها الآذان والتى تستقر فى أعماق النفوس والأفئدة .

وتحدث نهضة مسرحية كبيرة بعد الثورة بما أنشىء من أكاديمية للفنون ومعهد عال للفنون المسرحية وبما أقيم من مسارح متعددة وكوّن من فرق مسرحية متنوعة . وسرعان ما ظهر أفذاذ فى المسرح الشعرى الفصيح وفى المسرح النثرى . ونلتقى فى المسرح الأول بالأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى ومسرحياته الشعرية من مثل « مأســاة جميلة المناضلة الجزائرية » ، « والفتى مهران » ، « والحسين شهيداً » ، واختار لمسرحياته الشعر الحر حتى يتيح لها — فى رأيه — شعراً دراميا متكاملا . وتلاه فى نفس الاتجاه المسرحى والشعر الدرامى الحر الأستاذ صلاح عبد الصبور فى مسرحياته من مثل «مأساة الحلاج» و « مسافر ليل» و « ليلى والمجنون» «والأميرة تنتظر» .

ونلتقى بكثيرين من كتاب المسرح النثرى ، وقليل منهم من يؤثر الفصحى فى كتابة مسرحياته

مثل الأستاذ فتحى رضوان فى مسرحيته «دموع إبليس» التى نشرها سنة ١٩٥٦ وله وراءها مسرحيات مختلفة. ويلقانا الأستاذ ألفريد فرج ويعنى بفصحى مبسطة فى كتابة مسرحياته التاريخية مثل سليمان الحلبى :

وتكثر العامية فى المسرحيات الاجتماعية الواقعية وكأنما تصر الكثرة من أصحاب هذا الاتجاه على أن تكون العامية أداة التعبير وحدها فى مسرحياتهم ونذكر منهم الأستاذ نعمان عاشور وهو غزير الإنتاج وله مسرحيات كثيرة منها «المغناطيس» و «الناس اللى تحت» و «الناس اللى فوق» و «سيما أونطة» و «عيلة الدوغرى» ونلتقى بالدكتور يوسف إدريس ومحاولته إيجاد مسرح مصرى أصيل : مسرح له صيغته وطبيعته المستقلة عن طبيعة المسرح الغربى وصيغته، وعرض نموذجاً لما يقدم من مسرحيات فى هذا المسرح هو «مسرحية الفرافير» استمدها من التمثيل الريفى الشعبى ملغياً فيها الحائط الوهمى بين منصة المسرح ومقاعد الصالة أو بعبارة أخرى بين الممثلين والمتفرجين. ويلقانا الأستاذ لطفى الخولى ومسرحياته من مثل «قهوة الملوك» و «القضية» ويريد بها قضية التغير الاجتماعى الاشتراكى، وللدكتور رشاد رشدى إنتاج مسرحى كثير، وهو متعدد الاتجاهات المسرحية، قد استغل الفن الشعبى القديم : فن خيال الظل فى مسرحيته « اتفرج ياسلام » وهى تحكى قصة تاجر وما لقيه من ظلم وهوان على يد حاكم ورجاله. وللأستاذ سعد الدين وهبة كثير من المسرحيات مثل السبنسة والمحروسة وسكة السلامة والمسامير وكوبرى الناموس، وللأستاذ ميخائيل رومان مسرحيات متعددة مثل الدخان والعرضحالجى والوافد ولن نستطيع أن نمضى فى استقصاء كتابنا المسرحيين النابهين الذين يؤثرون العامية فى كتابة مسرحياتهم لأنهم أكثر من أن نستقصيهم فى برهة زمنية قصيرة وإنما أردنا بمن ذكرنا منهم أن ندل على هذا المد أو السيل العامى فى المسرح المصرى المعاصر :

— ٣ —

ولعل فيما أسلفت ما يصور فى إجمال تاريخى قضية استخدام العامية والفصحى فى لغة المسرح منذ نشأته إلى اليوم، وكيف أنه بدأ عاميا أو يكاد، وظل على ذلك عشرات السنين سواء فيما وُضع له من مسرحيات غنائية أو فيما تُرْجِم له أو عُرِّب أو مُصِّر، حتى إذا كنا فى القرن الحاضر عُنى بعض الكتاب النابهين بكتابة مسرحيات نثرية جيدة، تتخذ الفصحى أداة لها فى التعبير على نحو ما ذكرنا عن فرح أنطون وإبراهيم رمزى فى مسرحيتيهما السلطان صلاح الدين وأبطال المنصورة. وعُنى كل منهما بتأليف مسرحية اجتماعية وفكّرا فى لغتها هل تكون فصيحة أو عامية ؟ أما إبراهيم رمزى فاختار لمسرحيته : « دخول الحمام مش زى خروجه » اللغة العامية الشعبية، وأما فرح

أنطون ففكّر طويلا فى لغة مسرحيته : «مصر الجديدة ومصر القديمة» وانتهى إلى أن يجمع فيها بين الفصحى والعامية ، فجعل الفصحى لشخوص الطبقة العليا والعامية لشخوص الطبقة الدنيا . واقترح لغة ثالثة للسيدات فى المسرحية ، سماها فصحى مخففة ، وكتب فى صدر المسرحية بيانا أوضح فيه موقفه من هذه القضية اللغوية فى المسرحية والحل الذى خلص إليه يقول : «إنما مجلس التمثيل (المسرح) مجلس أناس يقلدون غيرهم . فاذا كانت الروايات معربة صح جعل اللغة العربية الفصحى لغة لها ، بحسبان أن الرواية حكاية حال قوم لغتهم أعجمية ، ولنا حق اختيار اللغة التى نجعلها قالبا لتلك الحكاية ، ولكن إذا كانت الرواية تأليفا وإنشاء وموضوعها شئونٌ من لغتهم العامية ، وجعلنا لغة هذه الروايات اللغة العربية الفصحى صرفا خرجنا عن الطبيعة التى ما أنشئت الروايات التمثيلية إلا لتقليدها ، وخالفنا الواقع فى شكله وصورته ، وفى هذا هدم لأصل من أصول التمثيل الأساسية ، وكيف يستطاع مثلا جعل خريستو فى (مسرحية) مصر الجديدة ينطق باللغة الفصحى وهو أعجمى ؟ وما يكون رأى مشاهدى هذه الرواية إذا سمعوا فيها نساء قهوة الرقص وباعة الصحف والخادمين والبرابرة والسكارى المترنّحين بل والسيدات فى خدورهنّ ينطقون باللغة الفصحى ؟ ثم نرى من وجه آخر أننا إذا جعلنا تأليف الروايات التمثيلية الاجتماعية باللغة العامية حرصا على تقليد الطبيعة كل التقليد كما هى وظيفة مجالس التمثيل (المسارح) وقعنا فيما هو أشد وأنكى ، وقعنا فى إحياء العامية وإضعاف الفصحى : وهذا أمر يأباه كل من ذاق لذة هذه اللغة الجميلة التى جرى حبها منا مجرى الدم فى المفاصل ، وما كنت لأرضى بأن يكون الشروع فى أمر كهذا الأمر على يدى : هذا هو المشكل الذى وقعت فيه فى تأليف (مسرحية) مصر الجديدة ، وسيقع فيه بعدى كل من يتصدى لتأليف الروايات التمثيلية الاجتماعية باللغة العربية » .

ثم يذكر فرح أنطون الحلّ الذى ارتضاه لهذا المشكل ، وهو أن يجعل شخوص الطبقة العليا فى المسرحية ، كما قلنا ، يتكلمون الفصحى ، وشخوص الطبقة الدنيا يتكلمون العامية ، وجعل للسيدات فى المسرحية لغة ثالثة بين الفصحى والعامية سماها الفصحى المخففة : وبذلك أحال فرح أنطون مسرحيته إلى رقع لغوية : رقعة فصحى ورقعة عامية ورقعة بين بين تتوسطهما . وذكر آنفا أنه إنما أدخل العامية واللغة الثالثة على لسان الشخوص ليمثل الطبيعة فى المجتمع والواقع . وفاته ما قاله عن إيثار الفصحى للمسرحيات

المترجمة وأن الغرض من التمثيل حكاية حال قوم ، وأن من الخير أن تؤدى الحكاية فى تلك المسرحيات المترجمة باللغة الفصحى المحبوبة كما يقول . وهذا نفسه ينطبق على المسرحيات الاجتماعية ما دام الغرض من التمثيل دائما حكاية حال الناس فى المجتمع لا حكاية لشأنهم ، ومن المؤكد أن الطبقة العليا فى أيامه كانت مثل الطبقة الدنيا تتكلم العامية ، فكان ينبغى أن يعمم ، إما أن يختار ماقاله فى المسرحيات المترجمة أنها تمثيل حال لا تمثيل لسان ، ويطبق ذلك على الطبقة الدنيا كما طبقه على الطبقة العليا فيجعلها تتحاور مثلها بالفصحى ، وإما أن يختار ما قاله عن المسرحيات الاجتماعية من أنها تمثيل للطبيعة والواقع ويطبق ذلك على الطبقة العليا كما طبقه على الطبقة الدنيا فيجعلها تتحاور بالعامية . وكان ينبغى أن لا يفرد للسيدات حينئذ لغة ثالثة خاصة لأنهن كن يتحدثن العامية مثل الطبقتين الأخريين . وكل ذلك معناه أن تجربة فرح أنطون اللغوية فى مسرحيته : « مصر الجديدة ومصر القديمة » لم تكن تجربة سوية . ومع أنها مثلت على المسرح لم تلق النجاح المنشود ومن أجل ذلك لم يحاول فرح أنطون نفسه — فضلا عمن كانوا حوله أو جاءوا وراءه — تقليدها ، لأنها تحمل عدة صور من الأداء اللغوى ، وكان ينبغى أن يختار لمسرحيته إحدى اثنتين : إما أن يجعل مسرحيته فصيحة الأداء كمسرحية السلطان صلاح الدين ، وإما أن يجعلها عامية الأداء كمسرحية زميله رمزى الاجتماعية المار ذكرها ومثل مسرحيات معاصره محمد تيمور : الهاوية وغير الهاوية : ومن هنا كنا نرى أن فرح أنطون ترك المشكل اللغوى فى مسرحيته مصر الجديدة والمسرحيات الاجتماعية المماثلة لها دون وضع حل سديد له :

ومضى الكتاب المسرحيون بعده يقدمون أعمالهم للمسرح باللغة العامية نحاها شوقى عنه فى مسرحياته الشعرية كما ذكرنا ، وبالمثل نحاها الأستاذ توفيق الحكيم عن مسرحياته النثرية ، ومثلت له مسرحيته « أهل الكهف » سنة ١٩٣٥ ، ولكنها لم تلق النجاح المظنون لتمثيل الشخوص فيها لأفكار مجردة ، وكأنهم لا يزالون فى العالم الخيالى لأسطورتهم بعيدين عن عالم الواقع : وتوالت مسرحياته المستمدة من الأساطير غير أنها لم تحظ بالتمثيل على منصة المسرح ، لما تردد بين النقاد من أن تلك المسرحيات إنما تصلح للقراءة فقط ولا تصلح للتمثيل ، لأنها ذهنية تجريدية : ويسلم لهم توفيق الحكيم بوجهة نظرهم إذ يقول فى مقدمة مسرحيته بيجماليون التى نشرها سنة ١٩٤٢ :

إنى أقيم اليوم مسرحى داخل الذهن ، وأجعل الممثلين أفكاراً تتحرك فى المطلق

ن م المعانى مرتدية أثواب الرموز ... لهذا اتسعت الهوة بينى وبين خشبة المسرح ، ولم أجد قنطرة تنقل هذه الأعمال إلى الناس غير المطبعة : لقد تساءل البعض : أولا يمكن لهذه الأعمال أن تظهر على المسرح الحقيقى ؟ أما أنا فأعترف بأنى لم أفكر فى ذلك عند كتابة روايات مثل أهل الكهف وشهرزاد وبيجماليون : ولقد نشرتها جميعا ولم أرض حتى عن أن أسميها مسرحيات» : على أن الأستاذ الحكيم كان قد أخذ يتدارك الموقف بتأليفه — مع مسرحيات ذهنية أخرى — مسرحيـــات اجتماعية كثيرة ، نشرها مفردة أو فى مجموعات ، غير أن النقاد ظلـــوا يقولون إن طوابع مسرحه الذهنى لا تزال تسيطر على مسرحه الاجتماعى . فهو فيه لا يزال يبدأ من فكرة ويحاول تطبيقها فى المجتمع . حتى إذا قامت الثورة تطور الفن المسرحى الاجتماعى عند الأستاذ الحكيم متخلصا من آثار مسرحه الذهنى ممعنا فى تصوير واقع المجتمع متأثرا بفلسفة الثورة الاشتراكية على نحو ما يتضح فى مسرحيته « الصفقة » التى صور فيها الفلاحين فى قرية مصرية يناضلون نضالا مستميتا فى سبيل الحصول على قطعة زراعية من أرضهم الطيبة أيام استشراء الإقطاع وتفاقمه :

والأستاذ الحكيم فى هذه المسرحية لم يتحول فقط من مسرحه الذهنى إلى المسرح الاجتماعى الواقعى بالمعنى الدقيق ، بل أيضا تحول من لغته الفصيحة التى تخلو من أى أثر للعامية فى مسرحياته السالفة إلى لغة وسطى بين العامية والفصحى ، سماها « لغة ثالثة » متخذا من مسرحية « الصفقة » حقل تجربة لإيجاد حل للغة المسرح التى تخاطب أفراد الجمهور ، وينبغى أن يفهموها بمجرد سماعها : وكان الكلام قد كثر — منذ فرح أنطون — عن العامية والفصحى على المسرح وكان أنصار العامية يتمسكون دائما بأن التمثيل فن شعبى ، وينبغى أن يكون بلغة الشعب العامية المتداولة بين الناس : ورأى الأستاذ الحكيم تحت بصره مسرحيته « الأيدى الناعمة » تنقل من زيها الفصيح الذى وضعها فيه إلى زى عامى مُثِّلت به فى سنة ١٩٥٤ . لذلك استقر فى نفسه أن يستخدث للمسرح هذه اللغة الثالثة الجديدة التى كتب بها مسرحية الصفقة المنشورة فى سنة ١٩٥٦ وقد ألحق بها بيانا أوضح فيه الحاجة إلى تلك اللغة ، وفيه يقول :

«استخدام الفصحى يجعل المسرحية مقبولة فى القراءة ، ولكنها عند التمثيل تستلزم الترجمة إلى اللغة التى يمكن أن ينطقها الأشخاص : فالفصحى إذن ليست لغة نهائية فى كل الأحوال ، كما أن استخدام العامية يقوم عليه اعتراض وجيه ، هو أن هذه اللغة ليست مفهومة فى كل زمن

ولا فى كل قطر بل ولا فى كل إقليم، فالعامية إذن ليست هى الأخرى لغة نهائية فى كل مكان أو زمان . كان لا بُدَّ لى من تجربة ثالثة لإيجاد لغة صحيحة لاتجافى قواعد الفصحى ، وهى فى نفس الوقت مما يمكن أن ينطقه الأشخاص ولا ينافى طبائعهم ولا جَوَّ حياتهم ، لغة سليمة يفهمها كل جيل وكل قطر وكل إقليم . ويمكن أن تجرى على الألسنة فى محيطها ، تلك هى لغة هذه المسرحية . قد تبدو لأول وهلة لقارئها أنها مكتوبة بالعامية ، ولكنه إذا أعاد قراءتها طبقاً لقواعد الفصحى فإنه يجدها منطقية على قدر الإمكان . بل إن القارئ يستطيع أن يقرأها قراءتين : قراءة بحسب نطق الريفى فيقلب القاف إلى جيم أو إلى همزة تبعاً للهجة إقليمه ، فيجد الكلام طبيعيا مما يمكن أن يصدر عن ريفى ، ثم قراءة أخرى بحسب النطق العربى الصحيح ، فيجد العبارات مستقيمة مع الأوضاع اللغــوية السليمة . إذا نجحت فى هذه التجربة يؤدى ذلك إلى نتيجتين : أولا : هذا السير نحو لغة مسرحية موحدة فى أدبنا ، تقترب بنا من اللغة المسرحية الموحدة فى الآداب الأوربية ، وثانيتهما وهى الأهم : التقريب بين طبقات الشعب الواحد وبين شعوب اللغة العربية بتوحيد أداة التفاهم على قدر الإمكان دون المساس بضرورات الفن » .

وكل من يقرأ هذا البيان يمتلىء إعجابا بهذه التجربة اللغوية الجديدة التى ترفع فوق منصات المسارح الأسوار بين الفصحى والعامية ، وكأنما لم تكن كلها أسوار بالمعنى الدقيق لكلمة أسوار ، بل كان كثير منها أقواسا وهمية . وينبغى أن نعود إلى مسرحية الصفقة نفسها لنرى حقيقة ما رُفع من هذه الأسوار . وبمجرد أن نتصفحها نلاحظ فيها عملين كبيرين : عملا نتفق فيه مع الأستاذ الحكيم كل الاتفاق ، وعملا نختلف معه فيه كل الاختلاف ، فأما العمل الذى نتفق معه فيه فإدخاله فى مسرحيته كثيرا من العبارات والأمثال العامية ، وهى فصيحة تامة الفصاحة ، مع أنها كثيرة الجريان على الألسنة فى اللغة اليومية الدارجة ، ونضرب لذلك بعض الأمثلة من الفصل الأول فى المسرحية.

«لكن المسألة بالأصول — هى لا يهمها فلان ولا علان — هس من فضلكم اسكتوا دقيقة واحدة — عدّ لها له ربنا — لا له فى الثور ولا فى الطَّحين — ذنبكم على جنبكم — انهضوا هُمُّوا — ماله؟ — الله لا يكسبك — انت على راسنا من فوق لونها يقرف الكلب — تعمل الطاسة متسقى للكتاكيت — سرقنى جرّدنى — كل ما عندى مرصود للكفن والخرجة — حلفت بالله فى علاه وسماه ونبيّه الزّيْن — ما عندى لك غير كلمة واحدة — قال الله ولا قال لك —

يا كل مال النبي — ساعة القضا يَعْمَى البصر — صلاة النبي أحسن — ماباليد حيلة — احزموا أمركم — ما يقدر على القدرة إلا الله — عملتها فىَّ — ربنا أمر بالستْر — خَلّص لهم الموضوع بالتى هى أحسن — فكرة معتبرة — على شرط لا نكلمه هناك كلمة ولا نفتح له سيرة » .

وجميع هذه التعبيرات تدور على ألسنة العامة فى لغة التخاطب اليومية ، وهى فصيحة كاملة الفصاحة . وهو معنى ما قلناه من أن الأسوار بين الفصحى والعامية بدت فى جوانب من المسرحية ، وكأنها كانت أقواساً وهمية . ومسرحية « الصفقة » — بهذا الأداء اللغوى الجديد — تُعَدُّ إرهاصاً قوياً لتحول خصب فى لغة المسرح الفصحى ، إذ تلتحم بها العامية التحاماً من شأنه أن يمحو جانباً من الأسوار والحواجز التى كان يظن أنها تفصل بين عبارات العامية وعبارات الفصحى ، فإذا هما يتعانقان على منصة المسرح ويتحدان هذا الاتحاد الواضح وهذا العمل الأول فى مسرحية الصفقة جدير بكل ثناء .

أما العمل الثانى الذى قلنا إننا نختلف فيه مع الأستاذ الحكيم فهو : النطق بحروف بعض الكلمات فى المسرحية كما تُنْطَقُ فى العامية ، ومعروف أن عاميتنا أبدلت الذال دالا فى بعض الكلمات الفصيحة ، مثل ذاب تنطقها داب ، وأبدلت الثاء تاء فى مثل ثلج تنطقها تلجا ، وأبدلت الظاء ضاد فى مثل ظُلْمة أو ظَلْمة بفتح الظاء تنطقها ضلمة : فهل تُكْتَبُ مثل هذه الكلمات فى المسرحيات وتنطق على المسرح بصورتها العامية أو تُرَدّ إلى صورتها الفصيحة ؟ أما الأستاذ توفيق الحكيم فيرى أن نبقى لها صورتها العامية بدليل ما نقرؤه فى الفصل الأول من مسرحية الصفقة من مثل العبارات التالية :

« ندبح الدبيحة بدلا من نذبح الذبيحة — قاعد يَحْلِق دقنه بدلا من : قاعد يحلق ذقنه — تصح منك الكلمة دى ؟ بدلا من تصح منك الكلمة هذه ؟ — أنت راجل حاج تلات حجات بدلا من : أنت رجل حاج ثلاث حجات — سبق قلت لنا بعضمة لسانك — بدلا من : سبق قلت لنا بعظمة لسانك » .

وفى رأيى أنه كان ينبغى للأستاذ الحكيم أن لا يدفع تجربته الجديدة فى لغة المسرح إلى هذا المأزق ، لأنه بذلك يهبط بفصحى المسرح إلى العامية دون حاجة أو ضرورة واضحة . وكان المأمول أن يرتفع بالكلمات السابقة إلى الفصحى ويردها إلى صورتها الصحيحة على نحو ما رد كلمات عامية أخرى فى نفس هذا الفصل الأول من المسرحية ، فقد رد كلمة التور فى العامية إلى كلمة الثور الفصيحة فى المثل الآنف ذكره « لا له فى الثور ولا فى الطحين » . وكلمة « لاله » فى صدر هذا المثل هى فى

العامية « لا لو » فردها إلى نطقها الفصيح . وبالمثل رد كلمة التلت العامية إلى كلمة الثلث الفصيحة على لسان بعض الشخوص : ورد مراراً كلمة « مالو » العامية إلى كلمة « ماله » الفصيحة . وعلى هذه الشاكلة كان يحسن أن يرد الكلمات العامية المذكورة منذ قليل إلى النطق العربي الفصيح :

ونمضى مع الأستاذ توفيق الحكيم إلى سنة ١٩٦٦ وفيها ينشر مسرحيته : « الورطة » ويلحقها ببيان يتحدث فيه عن ظاهرة استبدال العامية لبعض الحروف العربية مسوغاً للكاتب المسرحى الإبقاء عليها فى حوار الشخوص أو على الأقل الإبقاء على طائفة منها ، يقول : « الدال والذال والضاد والظاء يحل أحدها فى النطق محل الآخر فى بعض البيئات والقبائل .. وعلى ذلك لاجناح فى نطقنا بالظبط بدلا من بالضبط ونطقنا داودى وده بدلا من ذا وذى وذه ولذلك ماسير على نهجها مثل كذا التى ننطقها كدا أو كده » ؛ وكل هذه الإبدالات موجودة فى المسرحية وموجود معها إبدال الثاء تاء فى بعض الكلمات فى مثل « يعنى التالتة تابتة » « بدلا من يعنى الثالثة ثابتة » . ومما يدل على أن ذلك يفتح باباكبيرا لاستبقاء الكلمات العامية المحرّفة فى الحوار المسرحى أن الذال لاتبدل فى عاميتنا دالا أحيانا فحسب ، بل قد تبدل زايا فى مثل كلمتى الذخيرة والذمة وأن الضاد لا تبدل فى عاميتنا أحياناً ظاء فحسب ، بل قد تبدل «دالا» فى مثل مدغ الطعام بدلا من مضغ الطعام ، وأيضاً الثاء لاتبدل تاء فحسب ، فقد تبدل سينا فى مثل الثروة والثمن . ولو أن الكاتب المسرحى كتب فى مسرحيته هذه الكلمات جميعاً بنطقها العامى مافهمها القارىء ولا الممثل للمسرحية ، وهل يستطيعان مثلا معرفة أن الزخيرة بالزاى هى الذخيرة بالذال وأن السروة بالسين هى الثروة بالثاء؟ إن مثل ذلك يؤدى إلى مشكلة لعلها أكثر تعقيداً من مشكلة النطق بالحروف المبدلة فى بعض كلمات العامية : ولا ريب فى أنه أولى لفصحى المسرح المقترحة أن تعدل هى فى نطق الحروف المبدلة فى الكلمات العامية وتردها إلى نطقها الصحيح ؛ وبذلك يرتفع الكتاب المسرحيون بلغتنا العامية ، إذ يشيعون النطق الصحيح للكلمات العامية المبدلة بعض حروفها بترداد الممثلين فى حوارهم لهذا النطق ومحاكاة الجماهير لهم فى ترداده .

وكلنا نعرف أن من الظواهر فى عاميتنا استخدام طائفة من الاختزالات فى الكلمات ، وقد سوغ الأستاذ توفيق الحكيم مجموعة منها استخدمها على لسان الشخوص فى

مسرحيته « الورطة » مثل « أيوه » اختزال « إى والله » و« إيه » اختزال « أى شىء » و« ليه » اختزال « لماذا » و« اللى » اختزال « الذى » يقول : « مثل هذه الرخص والاختزالات فى التخاطب يمكن قبولها ، إذ من الشطط أن نطالب الناس بالطفرة ونلزمهم فى مجالسهم العادية استعمال كلمة « لماذا » بدلا من « ليه » . . إذا أردنا أن نطاع فلنأمر بما يستطاع » . وفى رأيى أن استخدام الكتاب المسرحيين لصور اختزال الكلمات فى العامية على ألسنة الشخوص فى مسرحياتهم مثل استخدامهم لكلمات الفصحى المبدلة حروفها، كل ذلك من شأنه أن يهبط بالفصحى إلى دوائر العامية بدلا من أن يرتفع بالعامية إلى دوائر الفصحى ، وأيضاً فإنه يضيع علينا وعلى الأستاذ توفيق الحكيم النتيجة الثانية التى ذكر فى بيانه الملحق بمسرحية الصفقة أنها النتيجة المهمة فى رأيه كما أشرنا إلى ذلك آنفا وهى التقريب بين شعوب اللغة العربية بتوحيد أداة التفاهم ، إذ نعود ثانية إلى عاميتنا مبقين منها — فى لغة المسرح — أسوارا تحول بينها وبين ما نريد من فصحى مسرحية توحد بين الشعوب العربية .

وأنا — مع كل ماقدمت — أقول إن التاريخ الأدبى العربى المعاصر — وخاصة المسرحى منه — سيظل يذكر للأستاذ توفيق الحكيم أنه رفع صرح المسرح النثرى الفصيح على أسس وطيدة ، وأيضا سيظل هذا التاريخ يذكر له محاولته إيجاد لغة ثالثة مسرحية وسطى بين الفصحى والعامية ، وأنه وضع لها قاعدة مهمة هى استخلاص العبارات والتراكيب التى يظن أنها عامية ، بينما هى فصيحة ، واستخدامها على ألسنة الشخوص فى المسرحيات على نحو ما استخدمها فى مسرحيتيه : الصفقة والورطة ، وأضاف الأستاذ الحكيم إلى هذه القاعدة قاعدة ثانية فى بيانه الملحق بمسرحية الورطة ، هى استخدام كتّاب المسرح لكلمات تشيع فى استعمالنا الدارج ونحسبها عامية ، وهى — فى حقيقتها — فصيحة، وذكر أن الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى — رحمه الله — كان يستخدم فى كتاباته كثيرا من هذه الكلمات ، ومثل لها بقولنا فى العامية : « أشوفك بكرة » و « اخرج بره » و « خش فى الموضوع » و « زى زيك » و « بس » — وقد تجرد غير باحث لتأصيل الكلمات العربية فى العامية ، وألفت فى ذلك مصنفات مختلفة ، من أحدثها « معجم الألفاظ العامية المصرية ذات الأصول العربية للدكتور عبد المنعم عبد العال ، ولا تزال تبذل الجهود فى هذا الاتجاه ، وللاستاذ الدكتور محمد التنير جهد قيم فيه ، تفضل بإطلاعى عليه . وحبذا لو عنيت لجنة اللهجات فى مجمعنا الموقر بوضع معجم للكلمات العامية استعمالا العربية أصلا ونسبا ، حتى يجدها كتابنا المسرحيون ممدّ أيديهم وأبصارهم ؛

سيدائى ، سادئى

بالقاعدتين السابقتين اللتين وضعهما الأستاذ توفيق الحكيم للغة المسرح الثالثة ، بل بهذين الرافدين : رافد الكلمات العامية العربية ورافد العبارات العامية العربية ستظل الفروق بين فصحى المسرح والعامية تضيق تدريجا يوما بعد يوم ، حتى تتكون لنا فصحى مسرحية تعايش الجماهير فى محيطها اللغوى اليومى ويفهمها العرب فى مختلف بلدانهم من الخليج إلى المحيط . وإنى لواثق أن أعلام كتابنا المسرحيين سينفذون إلى تحقيق هذا الأمل المنشود للأمة العربية فيستحدثون لها هذه الفصحى المسرحية المبسطة ويظلون ينمونها دون تحيف أو تنقص لمقومات العربية . وبذلك ينهضون فى فصحى المسرح بنفس الدور اللغوى العظيم الذى نهض به أعلام كتابنا الصحفيين منذ القرن الماضى إلى اليوم نافذين إلى فصحى صحفية مبسطة ، فهمتها — وتفهمها — الجماهير الشعبية العربية فى يسر . وبالمثل ستتحقق للمسرح — كما تحقق للصحافة — فصحى مبسطة فى الغد مهما طال الزمن .

شوقى ضيف
عضو المجمع



وقفة

أمام قبر الرسول

صلى الله عليه وسلم

للدكتور حسن على ابراهيم

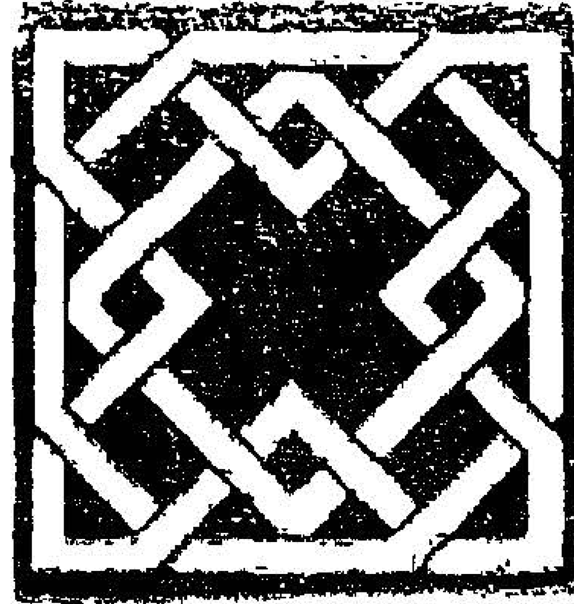
مشيت وفى قلبى وجيب ورهبة ... إلى خير قبر ضم أخير رفـــات
وهادىَّ حبى نحو مثوى محمد ... عليه لعمرى أطيب الصلـــوات
وحولى من الأقوام حشد ميمـمٌ ... إلى حيث يثوى منبع البركات
وفاضت عيون الناس دمعا وأجهشت ... نفوس لمنجيها من العثـرات
وفى النفس مافيها من الحب والتقى ... وفى النفس مافيها من الحسـرات
وقفت وما بينى وبين محمــد ... قرون خلت لا هذه الخطوات
وعادت بى الذكرى دهورا سحيقة ... إلى فجر دين عاطر النفحـات
هنا أكمل الروح الأمين رسالة ... أضاءت فلاة البدو والعرصـات
وشعت وراء الأفق حباً ورحمــة ... لتغشى بلاد الأرض والجنبـات
عـلى هـذه الممشاه سار محمدٌ ... إلى قدس محراب ومن حجرات
وفى هـذه الأرجـاء جلجل صوته ... وكم أمَّ من وعظ ومن ركعـات
هنا مست البطحاء طهر جبينــه ... وقد خرَّ للرحمن فى السجـدات
هنا جالس الأتباع جلسة والــد ... رحيم بأبنـاء لـه وبنـات
وكم جاء فظٌّ قد علته جهامـةٌ ... فقابله بالبشـر والبسمـات
وكم جاء من ساع إلى شرح دينه ... ففسَّر مايبغى بفضـل أنـاة
هنا خرَّ للرحمن يطلب نصره ... فينصره والنصر غـير مُـوات
فنى أحُدٍ لم يفزع الهول أنفسا ... بقين بحبـل الله معتصمـات
وولى عدو الله مانال مأربا ... وظلت قلاع الحق ممتنعات

(*) ألقيت هذه القصيدة فى الجلسة السادسة لمؤتمر المجمع فى الدورة السادسة والأربعين (يوم الأحد ٦ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٠ هـ ، الموافق ٢٣ من مارس سنة ١٩٨٠ م)

وفى غزوة الأحزاب حل بيثرب — من الكرب مايثنى عزيم عتاة
حصارٌ وقُرٌّ ثم جوع مدنِّفٌ — وحشد من الكفار بالعتبات
فأنزل رب البيت بالكفر فرقة — وأرسل ريحا ترسل الرعدات
فقوض ماقد طنبوه . وأدبروا — وأيديهمو قد أصبحت صفرات
هنا قد نعى الأبطال لحظة موتهم — بمؤتة فى الهيجاء حين وفاة
فزيد مضى يتلوه جعفر بعده — رواحةُ ، كانوا خيرة السرَّوات
فأوحى له الأنباء عبر مهامه — بلا رسل تجرى ودون رواة
إله بصير لاتنام عيونه — قدير مجيب مدرك الخلجات
وقيض رب العرش للنصر خالدا — فمكن جيش العُرْب من وقفات
إذا امتحن الإسلام حينا بشدة — فقد عم بالإيمان والعزمات
وقد سار من نصر لنصر مؤزر — فأحيا نفوسا فى عميق سبات
كما سارت المزن الثقال كريمة — بشؤبوبها تحيي موات فلاة
وقد كُلل الإسلام فى فتح مكة — بإظهار دين الحق والحسنات
وجاءت وفود المسلمين ليثرب — وقد برأت من سالف النزغات
هنا جاء كعب تائبا ومكفرا — وأنشد فيه أول البردات
فأرضى رسول الله إذ صار مسلما — وصار إلى الإسلام خير دعاة
فقد زخر الإسلام عفوا ورحمة — وما فيه من حقد وغل ترات
وذا كان دأب المسلمين وقد غدوا — جيوشا تدين الأرض بالغزوات
فكانوا لدى الهيجاء شر أشاوس — وعند حلول السلم خير عفاة
هنا شرّع الإسلام فرضا وسنة — بما أنزل الرحمن من كلمات
وقد قام بالتفصيل والشرح أحمد — بفعل وقول ضمّ جمّ عظات
ومن هذه الأنحاء سارت رسائل — تحادث بأختام لنعم حُداة
تهدى ملوك الأرض نحو إلههم — على ظل دين طاهر النفثات
هنا غالب الحمى وسار لمسجد — وعاد كليلا بعد جهد صلاة
وغاود ما أضناه مبفاة رهبه — وفى الجسم مافيه من الهفوات

وغصت قلوب المسلمين ووجهوا — نفوسا إلى الرحمن مبتهلات
ولما دنا وقت الرحيل وأزلفت — لعينيه أنوار من الرحمات
دعا ربه همسا ليأوى بمنزل — رفيقا لعال مانح الخيرات
هنا غار فى ذا الترب بدر هداية — وماغاب نور ساطع اللمعات
بحبك ياخير الأنام جميعهم — وهديك إنى قد ملأت حياتى
تذكر حبيبا أخلص الود والهوى — وكن لى شفيعا إذ يحين مماتى
ويارب عفوا من لدنك ورحمة — لعبد دعا فى أقدس الحرمات
فقد زرت ذاك البيت أدعو ملبيا — وجئت رسولك حاملا دعواتى
لقد رعت نفسى بشرخ شبيبتى — وفى غافل من غابر السنوات
إذا كنت قد أذنبت فالعذر لمتى — وكم فى سواد الفود من نزوات
فلما بدا شيب القذال وأفعمت — حياتى بأوزار وفيض هنات
لجأت إلى الرحمن أطلب عفوه — وربى غفور واسع الرحمات
فيارب ألف بين عرب تفرقوا — ووحد خطاهم بعد طول شتات
فتحنا فجاج الأرض والشمل جامع — وبالدين سرنا فى هدى وثبات
وكنا منار الأرض شرقا ومغربا — بعلم وإيمان وخير هداة
وهنّا إذ الأهواء شتى فباعدت — بأبناء قوم واحد ولدات
لكل جميل فى النفوس نهاية — وقد آن ترحالى لعرس حياة
مشيت ثقيل الخطو فى القلب حسرة — لتركى مقام الأعظم العطرات
رفعت إلى مثواه منى نواظرا — مودعة من دمعها شرقات
عليك سلام الله ما أشرق الضحى — وما لاح نور البدر فى الظلمات

حسن على ابراهيم
عضو المجمع



كلمة "الأريسيين"

في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل

للدكتور أحمد الحوفي

بعث النبي عليه الصلاة والسلام رسائل إلى الملوك والأمراء (1) يدعوهم فيها إلى الإسلام ، منها رسالة إلى هيرقل امبراطور الروم (الامبراطورية البيزنطية) جاءت فيها كلمة الأريسيين :

وقد اتفق مدونو السيرة النبوية وكتاب التاريخ ومؤلفو المعاجم اللغوية على النطق بهذه الكلمة ، ولكنهم اختلفوا في معناها ، فرأيت أن أجعلها موضوع هذا البحث .

واقتضى هذا أن يتقدم نص كتاب النبي إلى هرقل ، وكيف نطق السابقون بكلمة أريسيين ؟ وبم شرحوها ؟ ثم أعقب عليهم بكلمة ممهدة للكشف عن الصواب في نطق الكلمة وفي معناها ، ثم يجئ الرأي الذي لعاني اهتديت إليه .

رسالة النبي الى هرقل

أما رسالة النبي عليه الصلاة والسلام إلى هرقل فهي (2) :

« من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم :

سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، اسلم تسلم ، واسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم (الأريسيين) يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » .

لكن كلمة الأكارين أو كلمة الفلاحين وردت في بعض الروايات بدلا من كلمة الأريسيين (4) .

(*) انظر التعقيبات على البحث في محاضر جلسات مؤتمر الدورة السادسة والأربعين (جلسة الأحد ٦ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٠ هـ الموافق ٢٣ من مارس سنة ١٩٨٠ م) .

(1) كان هذا سنة ٩ هـ (٦٣٠ م) وقيل سنة ٨ هـ وقيل سنة ٦ . (تاريخ الطبري ٣ / ٨٩ وتاريخ الكامل لابن الأثير ٢ / ٨٠ والاستيعاب في معرفة الأصحاب ١ / ٤٦١ والإصابة في تمييز الصحابة ٢ / ٣٨٥) .

(2) صحيح البخاري ٤ / ٤٤ ، ٤٧ وصحيح مسلم ٣ / ١٣٩٦ ، وإنسان العيون المعروف بالسيرة الحلبية ٣ / ٢٨٣ ، وصبح الأعشى ٦ / ٣٧٦ ومجموعة الوثائق النبوية في العهد النبوي ٢٩ للدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي .

(3) سورة آل عمران ٦٤

(4) تاريخ الطبري ٣ / ٨٧ ، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢ / ٨٠ ، وصبح الأعشى ٦ / ٣٧٧ .

ولم أجد فى سيرة ابن هشام نصا لأية رسالة من رسائل النبى إلى الملوك والأمراء واكتفى ابن هشام بالإشارة إلى الرسائل .[1]

وأرجح أن كلمة الأريسيِّين هى الأصلية فى كتاب النبي عليه الصلاة والسلام ، وأن كلمة الأكارين أو الفلاحين رواية بالمعنى كما حدث فى كثير من النصوص .

١ — فكيف نطق القدماء كلمة الأريسيين ؟ لقد نطقوها هكذا (الأريسيين) بفتح الهمزة وكسر الراء الممدودة وكسر السين وبعدها ياء مشددة ممدودة[2] :

وجاء فى شرح صحيح مسلم أربع روايات فى ضبط الكلمة :

أشهرها فى روايات الحديث وفى كتب أهل اللغة هو الضبط السابق .

وثانيها مثله لكن بعد السين ياء واحدة .

وثالثها بكسر الهمزة وتشديد الراء وبعدها ياء واحدة وسين ممدودة .

ورابعها هكذا (اليرسيين) بياء مفتوحة وراء ساكنة وسين مكسورة بعدها ياء مشددة ممدودة :

٢ — وبماذا فسروها ؟
جاء فى السيرة الحلبية وفى شرح صحيح مسلم أن المراد الفلاحون ، وأشار أصحاب هذا التفسير إلى أن كلمة الأكارين أو كلمة الفلاحين وردت فى بعض روايات الرسالة بدلا من كلمة أريسيين ، وقالوا إن الأكار هو الفلاح ، لأن أهل السواد ومن والاهم أهل فلاحة ، والمراد عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك ، وينقادون لأمرك ، وخص هؤلاء بالذكر ، لأنهم أسرع انقيادا من غيرهم ، إذ الغالب عليهم الجهل والجفاء وقلة الدين[3] .

وقال القلقشندى — بعد أن أورد صورة ثانية للرسالة من كتاب الأموال لأبى عبيدة جاء فيها قول النبى لهرقل :

« فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه » — إن أبا عبيدة قال : أراد بالفلاحين أهل مملكته ، لأن العجم عند العرب كلهم فلاحون ، وأهل زرع وحرث[4] .

وفى شرح صحيح مسلم أن المراد اليهود والنصارى ، وأتباع رجل اسمه عبد الله بن أريس :

وفى المعاجم الثلاثة : لسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس[5] : الأريسى والأريس على وزن جليس ، والإريس على وزن سكيت : الخادم ، والأكار ، وفلاح السواد الذى لا كتاب له .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤ / ٢٥٤
(٢) المراجع السابقة .
(٣) إنسان العيون ٣ / ٢٨٣
(٤) صبح الأعشى ٦ / ٣٧٧
(٥) مادة أرس .

وقيل إن الأريسيين قوم من المجوس لايعبدون النار ، ويزعمون أنهم على دين إبراهيم ، ويعبدون الله تعالى ، ويحرمون الزنا ،وصناعتهم الحراثة .

وقيل إنهم الأمراء وكبراء القوم الذين يمتثل الناس أمرهم ، ويطيعونهم .

فهم فى الكتاب النبوى القادرون على هداية قومهم ولم يهدوهم ، وأنت أريسيهم الذى يطيعونك ، ويجيبون دعوتك ، ويمتثلون أمرك ، وإذا دعوتهم إلى أمر أطاعوك ، فلو دعوتهم إلى الإسلام لأجابوك ، فعليك إثمهم .

وقيل إن فى أتباع هرقل ملك الروم فرقة تعرف بالأروسية ، فجاءت كلمة الأريسيين على النسب إليهم .

أوهم عبدة النار من الفرس ، لأنهم كانوا يفلحون الأرض بالشام ، إذ أنهم زراع ، وأهل الشام صناع .

وقيل إنهم أتباع عبد الله بن أرْس ، وهو رجل كان فى الزمن الأول ، وقد قتلوا نبيا بعثه الله إليهم .

أما أريسى فجمعه أريسيون ، وأما أريس فجمعه أريسون ، وأرارسة ، وأراريس وأرارس .

والفعل أرس يأرس من باب ضرب وأرّس يؤرِّس تأريسا .

وفى كتاب من معاوية إلى ملك الروم ، وقد بلغه أنه يقصد بلاد الشام أيام صفين : لأردنك أريسا من الأرارسة ترعى الدوابل[1] .

وفى حديث آخر : فعليك إثم الأريسيين .

٢ — لكن هذا التفسير يقتضى التعقيب :

(أ) فهو لا يتفق على معنى كلمة (أريسيين) ، لأنهم الفلاحون ، أو الخدم ، أو الفلاحون الذين لاكتاب لهم ، أو قوم من المجوس يعبدون الله ولايعبدون النار ، أو الأمراء والكبراء ، أو القادرون على هداية الناس ، أو هم فرقة من أتباع هرقل لم يبين الشراح حقيقتها ، أوهم أتباع رجل اسمه عبد الله بن أرْس أو ابن أريس ، أوهم اليهود والنصارى .

(ب) وإنى أستبعد من المناقشة الزعم بأنهم أتباع رجل اسمه عبد الله بن أرْس أو ابن أريس لأن هذا كلام لا أصل له ، ولا سند ، ولو فرضنا أنه شبه صحيح لجاء النسب إلى أرس على هذه الصورة أرْسيون .

كما أستبعد أنهم جماعة من المجوس يعبدون الله تعالى ، ولا يعبدون النار ، لأن المجوس كلّهم منذ كانوا عبدة للنار ، وليست فيهم طائفة تعبد الله ، وإلا ما كانوا مجوسا .

(١) الدوابل : جمع دوبل وهو الخنزير

وليس من الصواب في شيء أن تفسر الكلمة بأنها تعني الأمراء والكبراء والقادرين على هداية الناس ، فإنه لا مسوغ لهذا التفسير .

ومن الميسور دحضه بعدة اعتراضات :

لماذا اختص النبي الأمراء والكبراء بالذكر ؟

وهل كان الأمراء والكبراء في أي بلد وفي أي عصر سباقين إلى اتباع المذاهب الجديدة ؟

ألم يكونوا حراصا أشد الحرص على مناصبهم ومنافعهم ونفوذهم ؟

وهل كانوا يطمئنون إلى أن الدين الجديد سيكفل لهم ما يتمتعون به من نفوذ ومكانة؟

لا ، فإنهم كانوا يتخوفون من الدين الجديد أن يسلبهم ماليس لهم بحق ، فلا بد أن يعارضوه وأن يصدوا الناس عنه .

وقد حدث فيما بعد ما يؤكد هذا ، إذ تصدى كثير من كبراء الشام للدعوة الإسلامية ، وحاربوها حينما بلغتهم حتى نصر الله دينه في خلافة أبي بكر وعمر .

ولم يكن النبي عليه الصلاة والسلام ليحمل هرقل أوزارهم ، وهم ليسوا أسرع تقبلا للإسلام من غيرهم ، ولم يكن النبي ليختصهم ويهمل ذكر الشعب وهم الأكثرية ، وهم الأقربون قبولا للإسلام.

ومما ذكروه في معنى الكلمة أنهم الفلاحون .

وهذا تفسير بعيد ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يذكر في كتبه الأخرى إلى الملوك والولاة صنفا من الناس ذوى حرفة ، فمثلا في كتابه إلى المقوقس عظيم مصر قال : فإن توليت فإنما عليك إثم القبط[1] ولم يقل : فعليك إثم الأكارين أو الفلاحين :

وأنذر كسرى بأنه إن تولى فعليه إثم المجوس[2] ، وأوعد النجاشي أنه إن صد عن الإسلام فعليه إثم النصارى من قومه[3] .

فلماذا اختص الفلاحين في كتابه إلى هرقل ؟

أما القول بأنهم سكان السواد فإنه واضح البطلان ؛ لأن السواد جزء من العراق الخاضع لفارس في ذلك الوقت ، لا جزء من الشام .

وكأنما حاول القائل به أن يسوغه ، فقال إن سكان السواد من أبناء الفرس كانوا يفلحون الأرض بالشام ، إذ إن أهل الشام

(١) تاريخ الطبرى ٣/٨٥ وإنسان العيون ٣/٢٩٥ ومجموعة الوثائق النبوية ٥٠ وصبح الأعشى ٦ / ٣٧٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ٣ / ٩٠ وصبح الأعشى ٦ / ٣٧٨ وإنسان العيون ٣ / ٢٩١ و مجموعة الوثائق النبوية ، ٥٤ وتاريخ الكامل لابن الأثير ٢ / ٨١ .

(٣) تاريخ الطبرى ٣ / ٨٩ ومجموعة الوثائق ٢٦ .

صناع لا يجيدون الفلاحة ، وأهل فارس زراع لا يحسنون الصناعة :

وهذا تأويل لا سند له من تاريخ الأمتين .

ثم إنه ليس من المعقول أن يُلقي النبي على كاهل هرقل ملك الروم وزر قلة ضئيلة من مجوس الفرس مقيمين فى ملكه، ويخليه من أوزار أكثر قومه ، وهم نصارى أقرب من المجوس إلى تعاليم الإسلام وإلى تقبله ؟

وليس من الصواب الزعم بأن العجم كلهم فى نظر العرب أهل زرع وحرث :

وإنه ليدحض هذا الرأى أن كتب النبي الأخرى إلى العجم الآخرين لم ترد فيها كلمة الفلاحين :

ومن مجافاة الصواب القول بأن الأريسيين هم اليهود والنصارى ، لأن هذه الكلمة لم تستخدم للدلالة عليهم فى أى عصر وفى أى وطن :

وقد جرى القرآن الكريم على إطلاق (أهل الكتاب) على اليهود تارة وعلى اليهود والنصارى تارة ، على حين أنه إذا أراد اليهود وحدهم كان يسميهم أحيانا اليهود وأحيانا بنى إسرائيل ، وإذا أراد النصارى وحدهم كان يطلق عليهم كلمة النصارى .

وإذا ما رجعنا إلى كتب النبى التى بعثها إلى الملوك نجده ذكر كلمة النصارى فى كتابيه إلى النجاشي والمقوقس ، فمن غير المعقول أن يعبر عن اليهود والنصارى معا بكلمة الأريسيين فى كتابه إلى هرقل :

أما الزعم بأن اليهود والنصارى اتبعوا ذلك الشخص المسمى بعبد الله بن أرِّس أو أريس[1] فهو زعم يحمل بطلانه ، لأنهم لم يجتمعوا فى عهد ما على عقيدة ، ولم يلتفوا يوما ما حول داعية ، إذ أن بينهم من العداء والاختلاف مالا تنطفىء ناره ، وذلك الاسم المزعوم لا يعدو أن يكون أسطورة :

أما قول الزبيدى : وقيل إن فى أتباع هرقل ملك الروم فرقة تعرف بالأروسية ، فجاءت كلمة الأريسيين على النسب إليهم فهو أقرب إلى الصواب مما عداه :

ولكن النسب إلى الأروسية كان ينبغى أن يكون أروسين لا أريسين كما وردت الكلمة فى الروايات المعتمدة :

كلمة كاشفة

فى تاريخ المسيحية داعية كبير عظيم الشأن اسمه أريوس[2] Arius دعا فى مصر إلى التوحيد الخالص ، وأنكر ما جاء فى الأناجيل يوهم ألوهية المسيح عليه السلام ، وقال إن الأب وحده هو الله ، وإن المسيح مخلوق مصنوع ، وقد كان الأب إذ لم يكن الابن ، وبهذا

(١) كما جاء فى شرح مسلم أو ابن أرّس كما جاء فى تاج العروس .

(٢) ولد حوالى ٢٥٦ وتوفى سنة ٣٢٥ م بالقسطنطينية .

عارض ما كانت تذيعه كنيسة الإسكندرية من ألوهية المسيح [1].

وذاعت تعاليم أريوس ، وصار له كثير من الأشياع ، فدانت بها كنيسة أسيوط ، واعتنق مذهبه كثير من الأتباع الأقوياء فى الإسكندرية نفسها ، وفى مقدونية وفلسطين والقسطنطينية .

وأراد بطريرك الإسكندرية أن يقضى على تعاليم أريوس ، لكنه خشى إن اعتمد على المحاجة والمناقشة أن ينتصر عليه أريوس ، فعمد إلى لعنه وطرده من حظيرة الكنيسة ، واعتمد فى هذه العقوبة على أنه رأى فى المنام أن السيد المسيح يتبرأ من أريوس ويلعنه .

لكن آراء أريوس لم تزل قوية منتشرة .

فلما تولى أمر كنيسة الإسكندرية البطريرك إسكندر لجأ إلى الأناة ، والدهاء فكتب إلى أريوس وكبار أنصاره يدعوهم إلى الخضوع لتعاليم كنيسة الإسكندرية ، فلم يستجيبوا له ، فعقد مجمعا بكنيسة الإسكندرية حكم على أريوس بالحرمان ، فلم يرهب أريوس ، ولم يخضع ، وغادر الإسكندرية إلى فلسطين ، وشجعه على إصراره أن كثيرا من الأساقفة يدينون بما يدين به ، مثل أسقف فلسطين وأسقف مقدونية وأسقف نيقومدية ، وكنيسة أسيوط .

فلما تفاقم الخلاف تدخل قسطنطين الأول امبراطور الروم ، فأرسل كتابا إلى أريوس وإلى أسقف الإسكندرية يدعوهما إلى الوفاق ، ثم جمع بينهما ، فلم يتفقا ، فدعا إلى عقد مجمع كنسى عام فى مدينة نيقية (أزنيك الحالية فى آسيا الصغرى) سنة ٣٢٥م .

اجتمع فى هذا المجمع ألفان وثمانية وأربعون أسقفا من مذاهب متعددة فى شأن السيد المسيح وأمه السيدة مريم .

وكان رأى بولس الرسول أن المسيح إله ، وتبعه فى هذا الرأى ثلاث مئة وثمانية عشر أسقفا ، وخالفه الباقون ، وجنح الإمبراطور قسطنطين الأول إلى هذا الرأى الذى دانت به الأقلية ، وعقد مجلسا خاصا لهؤلاء ، وجلس فى وسطهم ، وانتهى إلى فرض اعتقاد ألوهية المسيح بالقوة والسيف ، وإحراق الكتب المخالفة لها ، وتحريم قراءتها ، والحكم على تعاليم أريوس بأنها بدعة وإلحاد ، وتقرر نفيه .

لم يغرب رأى أريوس ، على الرغم من قوة الامبراطور وقرار مجمع نيقية ، بل ظل قويا بأنصاره والدعاة إليه ، ومن مظاهر قوته أنه فى المجمع الإقليمي بمدينة صور احتدم الجدال بين أوسابيوس أسقف مدينة نيقومدية والفريق المشايع له ــ وهم

---

(١) كتب أريوس تعاليمه فى رسالته ثاليا Thalia ولم تصل إلينا منها إلا مقتبسات فيما كتبه أثناسيوس . Athrasius

يدينون بمذهب أريوس - وبين رئيس كنيسة الإسكندرية ، حتى إنهم ضربوه، وكادوا يقتلونه .

كذلك من مظاهر قوة تعاليم أريوس أنها في عهد قسطنطين الثاني ابن قسطنطين الأول سادت في القسطنطينية وبيت المقدس وأنطاكية وبابل والإسكندرية وأسيوط ، حتى إن ابن البطريق قال إن أكثر سكان مصر والإسكندرية كانوا على مذهب أريوس ، وقد غلبوا على الكنائس ، ووثبوا على أثناسيوس بطريرك الإسكندرية ليقتلوه فهرب واختفى .

كانت القوة الحاكمة تصادر مذهب أريوس ، ولكنه كان أقوى منها بالدعاة إليه ، مثل مقدونيوس ، إذ جاهر بأن الروح القدس ليس إلها ، بل هو مخلوق مصنوع ، فاجتمع في القسطنطينية مئة أسقف وخمسون ، واختاروا أسقف القسطنطينية رئيسا عليهم ، وقرروا لعن مقدونيوس ومن يقول بمقالته .

وظهر بعد ذلك من أتباع تعاليم أريوس داعيـــة آخر اسمه نسطور ، دان بأن المسيح إنسان مملوء بالبركة والنعمة ، وأنه رسول من الله وملهم وموحى إليه، وكان لنسطور أتباع هم الناطرة .

فاجتمع مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١م ومجمع أفسس الثاني سنة ٤٤٩م ، وصدر من كل منهما قرار ببطلان رأى نسطور ، ولعنه ، ونفيه إلى مصر .

ثم كان مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ م لتأييد قرار مجمع أفسس الثاني . لكن المذهب بقي ذا آثار في العراق والموصـــل والفرات والجزيرة .

ثم ظهر يعقوب البراذعي - وهو من أشياع مذهب أريوس - فجعل يذيع في حماسة وقوة حجة وإقناع مذهب التوحيد في البلاد الرومية وفي مصر ، ورسم تسعة وثمانين أسقفا وألوفا من الكهنة والقساوسة، وكان ذلك في القرن السادس الميلادى .

ويعنينا في هذا المقام أن تعاليم أريوس كانت ذائعة وقوية في الشرق منذ عصره إلى القرن السابع الميلادى .

وقد كانت رسالة النبي إلى هرقل في سنة ٦٣٠ م أي في الثلث الأول من هذا القرن .

(٣)
راى جديد

بعد هذا التطواف آمل أن أكون قد عثرت على المفتاح الذى أستفتح به الخزانة المغلقة التي كنزت النطق الصحيح والمعنى الصواب لكلمة أريسيين هذا الزمان الطويل .

والذى أرجحه أن الكلمة منسوبة إلى أريوس ، على هذه الصورة (أرْيُس) ، وجاء جمعها على هذه الصورة (أرْيُسيِّين).

فهى تعنى أتباع أريوس ، لأنهم يدينون بالتوحيد الخالص الذى جاء به الإسلام ، وأكده القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف .

وقد اختصهم النبي بالذكر ، لأنهم سيرحبون بالإسلام ، ويعتنقونه ويذيعونه حينما تبلغهم دعوته القائمة على التوحيد الخالص ، وعلى التصديق بالرسالات السابقة والكتب المنزلة الماضية ، وعلى الاعتقاد بأن عيسى عليه السلام إنسان ولدته أمه السيدة مريم العذراء من غير أب :

فعلى هرقل أن يفسح الطريق لإبلاغهم هذه الدعوة . ليكون له أجران ، أجر على نصرانيته ، وأجر على إسلامه إذا أسلم :

فإن أعرض عن الإسلام ، وصدّ عن الدعوة إليه ، كان عليه وزر هذه الفرقة المسيحية الموحدة التى ستتلقى الإسلام إذا بلغها بهشاشة وتأييد. وإنه ليعزز هذا أن كلمة أريوس Arius تنطق هكذا (أرْيُس) بغير مد الياء ، فالنسب إليها أرْيُسِىٌّ وجمعه أريسيون .

فهل اتضح النطق الصحيح للكلمة التى وردت فى كتاب النبي ؟ نعم ، إن الصواب النطق بها فى التعبير هكذا : فعليك إثم الأرْيُسيّين (بفتح الهمزة وسكون الراء وضم الياء وكسر السين وبعدها ياء مشددة مكسورة ممدودة) .

وليس من الصواب النطق بها هكذا : أريسين (بفتح الهمزة وكسر الراء الممدودة وكسر السين وبعدها ياء مشددة مكسورة ممدودة) كما نجد فى المصادر القديمة كلها.

ويعزز هذا أن رسم الكلمة واحد فى النطقين ، فالتبس النطق الصحيح على المدونين ، فاختلفوا فى معناها كما تقدم .

وبعد :

فإننى أرجو أن يكون قد تكشف النطق الصائب والتفسير الصحيح للكلمة .

أغلب ظنى أن كلا منهما قد اتضح واستبان ، والله الموفق والمستعان .

المراجع

١ ـ أخبار قبط مصر ؛ المقريزى . طبعة جونتجن ١٨٤٥ م :

٢ ـ الاستيعاب فى معرفة الأصحاب : ابن عبد البر . مطبعة نهضة مصر .

٣ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة . ابن حجر العسقلانى . مطبعة نهضة مصر .

٤ ـ إنسان العيون فى سيرة الأمين والمأمون المعروف بالسيرة الحلبية :

برهان الدين الحلبى .

٥ ـ تاج العروس . الزبيدى .

٦ ـ تاريخ الأقباط فى مصر . زكى شنودة .

٧ – تاريخ الأمة القبطية . سليم سليمان . مطبعة التوفيق ١٩٣١ .

٨ – تاريخ الرسل والملوك . المطبعة الحسينية بمصر .

٩ – تاريخ الكتاب المقدس : الدكتور يوسف منصور :

١٠ – الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة : طبعة ١٩٢٣ :

١١ – السيرة النبوية . ابن هشام . تحقيق السقا وزميليه .

١٢ – سيرة الآباء البطاركة . أبو البشر ساويرس أسقف مدينة الأشمونين (الملقب بابن المقفع) بيروت سنة ١٩٠٧م :

١٣ – صبح الأعشى : القلقشندى . مطبعة دار الكتب المصرية .

١٤ – صحيح البخارى . المطبعة الأميرية ١٣١٤ هـ .

١٥ – صحيح مسلم . دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٥ هـ ١٩٥٥ م .

١٦ – الفصل فى الملل والأهواء والنحل : ابن حزم .

١٧ – قصة الكنيسة القبطية : إيريس حبيب المصرى .

١٨ – القاموس المحيط . الفيروزابادى .

١٩ – الكامل فى التاريخ . ابن الأثير ، مطبعة بولاق ١٣٠٣ هـ :

٢٠ – لسان العرب . ابن منظور .

٢١ – مجموعة الوثائق النبوية والخلافة الراشدة محمد حميد الله الحيدر أبادى

٢٢ – محاضرات فى النصرانية . محمد أبو زهرة .

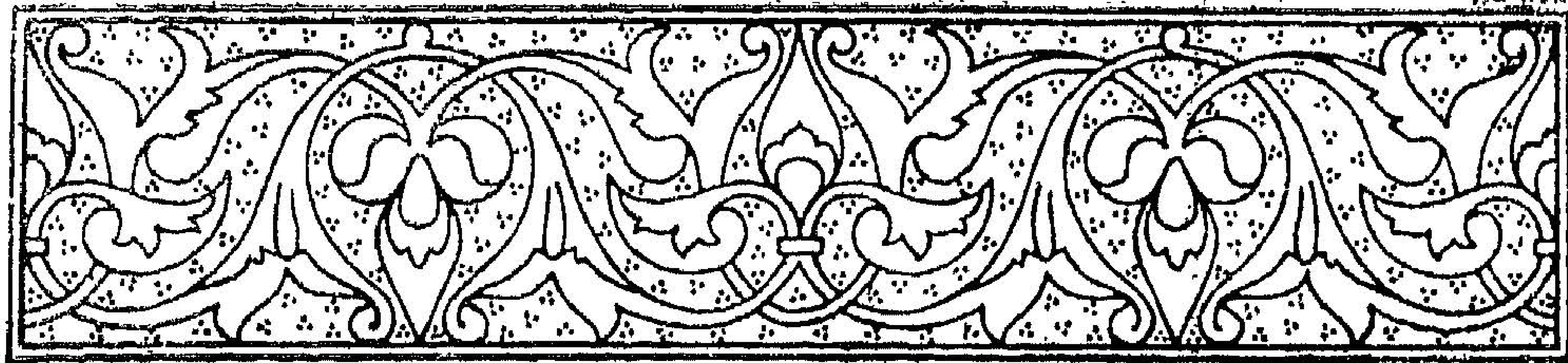
٢٣ – الملل والنحل . الشهرستانى .

٢٤ – نظم الجوهر : سعيد بن البطريق . مطبعة اليسوعيين ١٩٠٦ م .

٢٥ – THE OXFORD DICTIONARY OF THE CHISTIAN CHURCH

أحمد الحوفى

عضو المجمع



قضايا حول الشعر العربي

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

أيها السيدات والسادة :

قضايا الشعر في القديم والحديث كثيرة، والشعراء لايستريحون ولا يريحون . . . فهم منذ القدم أثاروا كثيرا من المسائل المشكلة والأمور المعضلة . . . ألم يثيروا في أدبنا المعاصر قضية « الشعر الحر » أو الشعر المنفلت أو الشعر المتسيب أو الشعر المتمرد كما يحلو لخصوم هذا الشعر أن يسموه نكاية به وإزراء عليه . كأننا في هذا العصر القلق المتعب لم تكفنا مشاكل السياسة ، ومشاكل الطعام، ومشاكل غزو البلاد الآمنة المطمئنة، ومشاكل حصار السفارات وحجز الرهائن الأبرياء لشهور طوال ، فجاءنا إخواننا شعراء التجديد، بمشكل جديد. فصرنا منهم كما قال شاعرنا القديم :

ولو كان هما واحدا لاحتملته
ولكنه هم ، وثان ، وثالث

ونحن في هذا المقام — الذي لو يقوم فيه الفيل أو فياله لزل عنه وزحل — لنرجو أن يكون كلامنا خفيفا على قلب هؤلاء الشعراء المتمردين على قيود العروض ، حتى ولو كانت تلك القيود مجدولة من الذهب والجمان الخالص . .

ومن الغريب أن شيخنا وإمامنا وأميرنا « شوقي » قد رفض كل قيد في الحياة ، اتباعا لمذهبه العظيم في تقديس الحرية الغالية حين قال :

والقيد لو كان الجمان مفصلا لم يحمل

إلا قيود الشعر بأوزانه وقوافيه فقد قبلها شوقي راضيا مختارا ، ونظم منها كل شعره المعجز المبدع . فما استعصى عليه معنى ، ولاعزت عليه فكرة ، وجاء شعره سويا كالطبع السوي ، والخلق الرضي . وكذلك كان أستاذنا وزميلنا الراحل عزيز أباظة حين دافع عن قيود الوزن والقافية في محاضرته الرائعة (الشعر بين أصيل وهزيل) (التي ألقاها في مؤتمر الدورة السابعة والثلاثين سنة ١٩٧١ م) ولهذا لن نتعرض الليلة لقضية « الشعر الجديد » إيثارا للسلامة ، واكتفاء بما قاله الكرام الراحلون من أمثال : عباس محمود العقاد ، وعزيز أباظة ، وعلي الجندي ، وبهجة الأثري ، وصالح جودت، في الرد على هذا المذهب الوافد الغريب . ولأننا نود أن نصبر على هذا المذهب زمنا حتى يثبت جفاءه من نفعه ،

(*) انظر التعقيبات على البحث في محاضر جلسات مؤتمر الدورة السادسة والأربعين (جلسة الثلاثاء (العلنية) ٧ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٠ هـ ، الموافق ٢٥ من مارس سنة ١٩٨٠ م) .

ولأننا من ناحية ثالثة لانود أن نتعرض لعداوة الشعراء : عملا بالحكمة الشعرية القديمة القائلة :

وعداوة الشعراء بئس المقتنى !

كما لن نتعرض هذه الليلة للخطأ اللغوى فى الشعر، ولو أنه شائع اليوم بلا انضباط بين أبنائنا وإخواننا الشعراء العموديين ، أو بعبارة أدق شعراء الوزن والقافية ؛

وسكوتنا عن التعرض للخطأ فى الشعر ليس لضعف منا ،ولا لإباحة له . ؛ ولكنا نكتفى بما حكم به عليه شيوخ النقد فى القديم من أمثال الجرجانى صاحب الوساطة وأبى هلال العسكرى صاحب الصناعتين والقزاز القيروانى صاحب كتاب (ما يجوز للشاعر فى الضرورة) وابن فارس صاحب كتاب (الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها) وصاحب رسالة (ذم الخطأ فى الشعر) التى نشرها الدكتور رمضان عبد التواب محققة مدققة فى الجزء الذى صدر أخيرا من مجلة معهد المخطوطات العربية.

ولابن فارس كلام جيد لابأس أن نستحضره هنا حيث يقول : (فإن قالوا إن الشاعر يضطر إلى ذلك لأنه يريد إقامة وزن شعره، ولو أنه لم يفعل ذلك لم يستقم شعره ، قيل لهم : ومن اضطره أن يقول شعرا لايستقيم إلا بإعمال الخطأ ؟ ونحن لم نسمع بشاعر اضطره سلطان أو ذو سطوة بسوط أو سيف إلى أن يقول فى شعره مالا يجوز أو مالا تجيزونه أنتم فى كلام غيره .فإن قالوا إن الشاعر يعنّ له معنى ، فلا يمكن إبرازه إلا بمثل اللفظ القبيح المعيب قيل لهم: هذا اعتذار أقبح وأعيب. وماالذى يمنع الشاعر إذا بنى خمسين بيتا على الصواب أن يتجنب ذلك البيت المعيب ، ولايكون فى تجنبه ذلك مايوقع ذنبا أو يودى بمروءة ؟)

الواقع أن التشدد فى نقد الأخطاء فى الشعر سيحمد أثره، كنقد الأخطاء فى الوزن والقافية . ولن يجرنا إلى أن نلتقى مع شاعر كبير من الرواد فى اللغة والشعر ، والأدب حين يقول — رحمه الله — من قصيدته عن الأم (ست الحبايب)

ما أشق الحياة لولا نسيم
من لدن أمهاتنا يهب نديا

بزيادة سببين خفيفين فى الشطر الثانى انكسر بهما الوزن كسرا لايجبر، وصوابه أن نعدل عن صيغة الجمع فى (أمهاتنا) إلى صيغة المفرد، فيعتدل الميزان حين نقول :

(من لدن أمنا يهب نديا) ولو أن التعبير بالجمع هو الأليق والأوجب هنا : والتشدد فى النقد أيضا لن يجرنا إلى أن نلتقى مع هذا الشاعر الكبير نفسه فى قوله من قصيدة (لغز الألغاز) والضمير فى البيت يعود على (حواء) ، وهى كناية عن المرأة فى كل العصور .

وهى فينا تقدست ذاتها تسطيعُ

منالا لكل مالا ينال

والبيت كما تشهد آذانكم الموسيقية وقواعدنا العروضيـة مكسور كسرا لايصلحه « برسوم » المجبر ، ولاحتى زميلنا الراحل الطبيب الجراح مجبر العظام الدكتور محمد كامل حسين ، عليه رضوان الله .

بعد هذه المقدمة — وقد طالت والتمست عفوكم — سيكون حديثنا الليلـة حول قضيتين اثنتين من قضايا الشعر : الأولى : اضطراب الوزن وعدم إقامته ، والثانية نسبةُ الشعر إلى غير أصحابه الأصليين .

وسنرتد بالقضيتين إلى الأدب القديم ، وصولا بنا إلى الأدب المعاصر الذى هو مناط دورتنا المجمعية الحاضرة السادسة والأربعين ، ومدار المحاضرات فيها .

يدخل الشعر العربى مجال الاستشهاد به من أبواب كثيرة . . فهو مليح حين يُقرأ أو يسمع ، وهو مليح حين يُستشهد بالبيت أو الأبيات منه لتأييد قضية ، أو إذاعة محمدة ، أو بناء مكرمة ، مما يؤكد صدق شاعرنا أبى تمام :

ولولا خلال سنّها الشعر مادرى

بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

ويبدو أن كثرة الاحتفال بالشعر ، والاحتشاد به فى الاستشهاد كانت سببا فى الجناية عليه .. كما أن العناية بروايته أدت إلى قلة الاهتمام بمتنه ونصه ، ووزنه وصحة نسبته إلى أصحابه .

وبهذا غدونا أمام سيل عرم من الأوهام والأخطاء ، وأصبح كل مايروى يسمى شعرا . سواء أكان موزونا أم غير موزون .

وإذا كنا قد أنزلنا الشعر منزل الاحتفال والاهتمام ، والإيثار بالاستشهاد ، فلا بد أن نرويه على أصح وجوهه ، وأسلم أوزانه ، وإلا عدونا الحدود التى وضعها له العرب . وخلطنا فى روايته بين عمل صالح وآخر سيئ .

ولايقال فى هذا المقام إن النبى عليه السلام كان لايفرق بين الشعر الموزون وغير الموزون ، على الرغم مما أثر عنه من تقدير للشعر الكريم الصـادق ، ولكرام الشعراء الذين نظموه . فإن الله ماعلمه الشعر مخافة أن يتهم بما لم يسلم منه الشعراء وأتباعهم من الغاوين . . وقد شهد الله له بقوله : (وما علمناه الشعر وماينبغى له) .

وهنـاك أكثر من حادثة تؤكد أن النبى عليه السلام لم يكن يقيم وزن الشعر حين يستشهد به أو يرويه : وليس ذلك بعائبه أو ناقص من قدره . . فأنه من الفصاحة بالمكان الذى لايطاول ، ومن البلاغة فى قمة لاتدانى ، ولكنه فى الشعر غير ذلك

يروى أن الشاعر « سحيما » عبد بنى الحسحاس — وديوانه محقق منشور بعناية العلامة المغفور له عبد العزيز الميمنى الراجكوتى — كان النبى صلى الله عليه وسلم —

يستشهد ببعض شعره الحكيم . فتمثل يوما بقوله :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

ولكنه رواها هكذا : كفى بالشيب والإسلام للمرء ناهيا

مما أخل بالوزن ، وجانب الأصل . وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه حاضرا ذلك المجلس النبوى ، وسامعا رواية النبى فقال : إنما هو : (كفى الشيبُ والإسلام) . . فأعادها النبى عليه السلام كالأول على غير وجهها الموزون ، فقال أبو بكر معقبا ومعلقا : (أشهد أنك لرسول الله ، وماعلمناه الشعر وماينبغى له) .

وفى حادثة ثانية روى النبى عليه السلام بيت الشاعر طرفة بن العبد:

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأخبار من لم تزود

هكذا :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك من لم تزود بالأخبار

فاختل الوزن وتغيرت القافية ولكن بقى المعنى الجليل كما هو لم تغيره الرواية . .

وفى حادثة ثالثة روى عليه الصلاة والسلام بيت الشاعر العباس بن مرداس :

أتجعل نهبى ونهب العبيد
بين عيينة والأقرع

هكذا :

أتجعل نهبى ونهب العبيد
بين الأقرع وعيينة

ولا يعنى هذا إغفالا من النبى عليه السلام لقدر الشعر أو إهمالا له ، وإلا فكيف يتفق هذا مع اهتمامه بروايته والاستشهاد به ؟ وإنما كان ذلك انصرافا منه عن قول الشعر وإقامة وزنه حين يرويه ، حتى تتحقق شهادة الله له كاملة من ناحية النظم أو الإنشاد أو الاستشهاد . وقد عرفنا موقفه الكريم من الشعراء الذين نصروه بألسنتهم ، حين دعاهم إلى الرد على شعراء قريش من أمثال عبد الله بن الزبعرى ، وكعب بن الأشرف ، وأبى سفيان بن الحارث . وهل ننسى شعر حسان ابن ثابت فى الدعوة وفى الدفاع عن النبى ؟ وفى هجاء المشركين من قريش ؟ وهل ننسى شعر عبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ؟ وهل ننسى — فوق ذلك — أنه كان عليه السلام يكثر من استنشاد الشاعرة «الخنساء» شعرها فى رثاء أخيها صخر ، ويقول لها : هيه ياخناس ! أى زيدينا . وهل ننسى أنه استمع لكعب بن زهير وهو ينشد أمامه

---

(١) العبيد بضم العين اسم فرس للشاعر .

لاميته المعروفة باسم « بانت سعاد » فعفا عنه ، وأثابه عليها بردة اشتراها منه معاوية ابن أبي سفيان بمال كثير ؟؟

ونحن حين ندعو إلى ضرورة إقامة الوزن حين ننظم الشعر أو نرويه — منشدين أو مدونين — لا نجرى هذه القاعدة الحتمية على النبي محمد بن عبد الله ، ولا نلزمه بها ، فقد رفعه الله بشهادته فوق هذه القاعدة ، أما من عدا محمدا من كل عربي أو ناطق بالعربية فإننا نأخذه بقيود الشعر وحدوده التي وضعها له العرب ، لانستثنى من ذلك أحدا مهما كان شأنه ، وإلا بات أمر الشعر فوضى ، وتفلتنا من ذلك القيد الذهبي الجميل الذى قيدته به الأوزان والقوافى : . .

ومن عجيب الأمر أن شاعراً جاهلياً مرموق المكان ومن أصحاب المعلقات قد اختل الميزان الشعرى بين يديه فى معلقته أو مجمهرته التى مطلعها :

أقفر من أهله ملحوب
فالقطبيات فالذنوب

ونستطيع أن نسمى شعرها مكسوراً إذا قسناه بالمقاييس الصحيحة الدقيقة التى وضعها الخليل بن أحمد . ولم يستطع أحد أن يعلل لنا سبب اضطراب الوزن عند (عبيد) ، ولماذا كانت نغمات هذا الشاعر المجود نشازا فى الشعر العربى كله ؟ أكان ذلك منه فقدانا لحاسة الوزن السليم عند العربى الشاعر مهما كانت طبقته بين أصحاب الطبقات ؟ أم كان ذلك من اختلاف الرواة ؟ ولكن مهما اختلف الرواة فإن عجيباً أن يرووا شعرا غير مستقيم الوزن . وهل فاتهم ذلك الاضطراب فى الوزن ، أم عرفوه — بفطرتهم — وتركوه على حاله أمانة فى الرواية ؟؟

وأيا ما كان الأمر فإن هذه الظاهرة الغريبة فى شعر « عبيد » لم تفت أبا العلاء المعرى الذى جاء بعد « عبيد » بقرون فقال مشيراً إلى اختلال الوزن عنده :

وقد يخطئ الرأى امرؤ وهو حازم
كما اختل فى وزن القريض « عبيد »

وإذا كان عبيد بن الأبرص الجاهلى لم يسلم من اختلال الوزن فى شعره كما لم يسلم من التفاتة ابن منظور والمعرى إليه ، فإن الشاعر الجاهلى الآخر : (المرقش الأكبر) لم يسلم من اضطراب الوزن بين يديه فى ميميته المشهورة المنشورة فى « المفضليات » بتحقيق المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر ، وزميلنا الأستاذ عبد السلام محمد هارون ومطلعها :

هل بالديار أن تجيب صمم
لو أن رسما ناطقا كلم
الدار قفر : والرسوم كما
رقش فى ظهر الأديم قلم

ولم يسلم (المرقش) كذلك من نقد ناقد قديم بصير هو ابن قتيبة فى كتابه (الشعر والشعراء) حيث قال عن هذه الميمية : (والعجب عندى من الأصمعى إذ أدخله فى متخيره ، وهو شعر ليس بصحيح الوزن ، ولا حسن

الروى ، ولا متخير اللفظ ، ولا لطيف المعنى ، ولا أعلم فيه شيئا يستحسن إلا قوله :

النشر مسك والوجوه دنا
نير وأطراف الأكف عنم

أقول : ومن الطريف هنا أن « ابن قتيبة» قد جانب الصواب حين زعم أن الأصمعى قد أدخل تلك الميمية فى اختياراته المسماة « بالأصمعيات » فهى لم ترد فيها ،ولكن وردت فى « المفضليات » للضبى ، وهو غير الأصمعى ... وشتان بين الرجلين، وبين الكتابين . . . وهو وهم من ابن قتيبة يؤكد من جديد أن الكمال لله وحده . وقد صححه زميلنا العضو عبد السلام هرون مشتركا مع المرحوم الشيخ أحمد شاكر.

وإذا كنا رأينا الآن أن الوزن الشعرى لم يستقم عند شاعرين من شعراء العصر الجاهلى ، فإن شاعرين من فحول الشعراء فى القرن الثالث الهجرى ، بل من فحول الشعراء فى تاريخ الشعر العربى كله قد أخذ على كل منهما اختلال الوزن واضطرابه بين أيديهما ، وهما أبو تمام والبحترى . فالناقد الإمام الحسن ابن بشر الآمدى ت ٣٧٠هـ وصاحب كتاب (الموازنة) المشهور يقع على بيت مكسور من همزية للبحترى .

والبيت هو :

ولماذا تتبع النفس شيئاً
جعل الله الفردوس منه بواء

ويقول الآمدى فى تعليقه على هذا الكسر : (وكذلك وجدته فى أكثر النسخ. وهذا خارج عن الوزن) ثم أخذ عقب هذا يقطع البيت تفعيلة تفعيلة ليكشف زيادة سبب خفيف فى البيت ، وهو الهاء من الله واللام من كلمة الفردوس . وهذا عيب فظيع فى الشعر . ولكن الناقد عاد فروى للبيت رواية أخرى تقول : (جعل الله الخلد منه بواء) . ثم اعتذر له بقوله : (فإن يكن هكذا قال فقد تخلص من العيب ..)

وفى كتاب (عبث الوليد) المنسوب إلى «المعرى» ذكر البيت مختلا كما فى(الموازنة) ولكن فيه مايؤخذ منه أن الذى أصلح الخلل ووضع (الخلد) مكان (الفردوس) هو ابن العميد .... والغريب أن « أبا العلاء »فى (عبث الوليد) أضاف بيتاً آخر مضطرب الوزن عند البحترى . وهو قوله :

وأحق الأيام بالحسن أن يؤ
ثر عنه يوم المهرجان الكبير

والآمدى فى الموازنة كشف آخر عن وزن مضطرب فى شعر البحترى وهو قوله:

حلأتنا عن حاجة ممنوع * مبتغاها وحاجة ممطولة

فتقطيعه ووزنه هكذا فى العروض : فاعلاتن مستفعلن مفعولن . وهذا لايجوز

فى العروض إلا فى حالة التصريع ، أى إذا كان البيت مصرعاً .

وقد تعقب الناقد الآمدى (أبا تمام) كما تعقب البحترى ، فوقع عنده على زحافات كثيرة فى الصدر ، أو فى العجز ، أو فيهما معا . . . والزحافات جائزة غير منكرة إذا قلت ، ولكنها إذا جاءت فى بيت واحد فى أكثر أجزائه أو تفعيلاته فإن هذا فى نهاية القبح ، ويكون بالكلام المنثور أشبه منه بالشعر الموزون . ومن أمثلة ذلك عند أبى تمام قوله :

يقول فيسمع ويمشى فيسرع
ويضرب فى ذات الإله فيوجع

فحذف النون من (فعولن) الأولى . وحذف الياء من مفاعيلن التى تليها . وحذف بعد ذلك النون من فعولن التى هى فى أول الشطر الثانى . وهذا الحذف لخامس فعولن وخامس مفاعيلن هو (القبض) عند أهل العروض . وهو كله زحاف جائز . إلا أنه لما جاء على الكثرة والتوالى فى بيت واحد قبح جدا . ومن هنا صح للشاعر المطبوع (دعبل) أن يقول : (إن شعر أبى تمام بالخطب وبالكلام المنثور أشبه منه بالكلام المنظوم) . ولا يجيز مثل هذا الاضطراب النادر جدا فى شعر أبى تمام والبحترى أن يتخذ منه الشعراء الضعاف غير مكتملى العدة تكأة يسترون بها ضعفهم ، ويسوغون بها أخطاءهم .

والحقيقة أن الشعر مركب صعب لا يجوز أن يجترئ عليه ضعيف الأداة أو ناقصها وكما اضطرب الشعر عند بعض الشعراء القدامى — على خطأ منهم أو على جهل من الرواة أو النساخ — فأنه قد اضطرب أحيانا عند بعض الأدباء القدامى . فقد ذكروا أن « أبا على القالى » صاحب « الأمالى » كان لا يقيم أوزان الشعر على كثرة روايته له ، واستشهاده به . ومما يروى فى ذلك أنه حين وفد على الخليفة الأموى الأندلسى (الناصر) هيأوا له ركبا إلى قرطبة حاضرة الخلافة فى احتفال عظيم ، احتشد فيه عدد من أدباء الأندلس وعلمائها ، احتفاء بهذا الأديب الوافد من المشرق . وكان (الناصر) — وابنه الحكم من بعده — يكرمان الأدباء أوفى تكريم . وأخذ ركب الأدباء يتذاكرون الأدب والشعر مع القالى فى خلال مسيرتهم إلى قرطبة . . . إلى أن تحاوروا يوما — وهم على المطايا — فى أدب «عبدالملك بن مروان » ومساءلته جلساءه عن أفضل المناديل فى بيت الشعر الجاهلى لعبدة :

ثمت قمنا إلى جرد مسومة
أعرافهن لأيدينا مناديل

فروى (القالى) البيت هكذا :

. . . .
أعرافها لأيدينا مناديل

بدلا من (أعرافهن) ، مما انكسر معه وزن البيت ...فأنكرها واحد من أدباء الركب هو « ابن رفاعة الألبيرى » .

وكان أديباً ولكن فى خلقه زعارة ، وفى صدره حرج . . . واستعاد أبا على القالى مرتين مستوثقا ، فأعادها القالى : (أعرافها) لا(أعرافهن) .. فلوى ابن رفاعة عنان مطيته منصرفا عن الركب ، قائلا فى حدة وسخرية وتعجب : أمع هذا يوفد على أمير المؤمنين ، وتتجشم الرحلة لتعظيمه . وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا يغلط فيه الصبيان ؟ والله لا تبعته خطوة ! وانصرف عن الركب ...

ولم يقف ركب الذين لايقيمون وزن الشعر منذ ذلك الزمن القديم إلى يومنا هذا ... حتى كبار الشعراء من أهل عصرنا هذا أخذت عليهم مآخذ فى الوزن حين نظموا من بحور فيها مزالق الخطر .. ومن ذلك ماأخذه الشيخ إبراهيم اليازجى على «شوقى» فى روايته (عذراء الهند) حيث يقول :

هذى سماء الهند شاهدة
وأرضها والجبال والسهل

فإن نقلنا لبقعة قدما
فللهوى لا البقعة النقل

فجاء الشطر الثانى من البيت الثانى على وزن مغاير للبحر الذى منه البيتان .
فالبيتان من المنسرح ولكن « شوقى » نقل الشطر الأخير إلى البحر الكامل فى ضربه الأحذّ المضمر ....

ومازلنا نقع فى المجلات والصحف العربية على شعر مكسور لزملاء ورفقاء فى الدرب يعز علينا أن يختل فى أيديهم الميزان ، مابين زيادة أو نقصان ...

ولعل من أعجب الأوهام فى هذا الباب عند القدماء مافعله « ابن اسحاق » المؤرخ الإخبارى الذى أخذ عنه « ابن هشام » سيرة الرسول عليه السلام . فإن ابن إسحاق لم يكن ذا بصر بالشعر ولا صاحب علم به . ومن هنا تسربت إلى السيرة التى دونها ابن هشام أشعار كثيرة ، ولم يرد الرجل — وهو بالشعر جد عليم — أن يسكت عنها ، أو يصمت عن التعليق عليها ، فيعيدها مضبوطة مستقيمة سوية .

والشعر المرويُّ يملأ صفحات كثيرة من كتب الأدب والتاريخ والسير والطبقات والتراجم والمحاضرات والأخبار والنوادر : « كالبداية والنهاية » لابن كثير . « والعقد الفريد » لابن عبد ربه ، « وعيون الأخبار» لابن قتيبة ، «ونفح الطيب للمقرى» ، «والكشكول» للعاملى ، « ومحاضرات الأدباء » للراغب الأصبهانى ، « وسراج الملوك للطرطوشى » ، « والمستطرف للابشيهى » وغيرها . ولابد أن نأخذ الشعر فى هذه الكتب بحذر ، وخاصة فيما ظهر منها غير محقق أصلا ، أوغير دقيق التحقيق فإن فيه اختلافا فى الوزن وتحريفا فى الكلام يخرجه عن وجهه ، وفيه خطأ فى نسبته إلى قائليه ، وذلك باب اضطراب فى رواية الشعر العربى .

ومن حسن الحظ أن يكون عالم فقيه «كالإمام الغزالى» ذا بصر بالشعر الذى يرويه فى (إحياء علوم الدين)، فهو يسوقه للتدليل والاستشهاد، ويدونه على أصح وجوهه وأسلم رواياته وأبعدها من الاضطراب فى الوزن، وإن كان فى كثير من الأحيان لا ينسب الأشعار إلى قائليها، بل يكتفى بمثل قوله: قال الشاعر، بدون تعيين. وهو فى هذا على الضـــد من الإمام «أبى الحسن البصرى الماوردى» صاحب «أدب الدنيا والدين» و«الأحكام السلطانية»، و«أدب القاضى» وغيرها من الذخائر النفيسة.

فهو يسوق فى كتابه (أدب الدنيا والدين) كثيراً جداً من الشعر للاستشهاد، فيحسن روايته ويقيم وزنه، وينسبه الى قائليه فى كثير من الأحيان، فإن كان على غير علم أو يقين بالقائل سكت ولم يعين، وما كان أكثر تحقيقه وهو يروى شعراً «لعدى بن زيد» العبادى الجاهلى كان يتوهم أنه لغيره. وروى الإمام الماوردى شعراً للعباس بن الأحنف يوهم أنه لغير العباس، ولكن بالرجوع إلى ديوانه نجده له.

وعلى سبيل التقابل يحضرنا هنا المؤرخ ابن كثير، فيبدو من تصفح كتابه (البداية والنهاية) أنه كان لا يقيم وزن الشعر، هذا إلى أخطاء النسخ والطباعة فى كتابه، وإن كان «النعيمى» يقول عنه فى كتابه (الدارس فى تاريخ المدارس) أنه نظم الشعر .. ولكن يبدو لنا من إجازته الشعرية لأحد تلاميذه أن الوزن الشعرى لم يستقم بين يديه.

والشعر العربى مظلوم جداً حين يظلمه أصحابه اليوم بالكسر واختلال الوزن تحقيقاً للتراث، وممارسة، وإلقاء . . . وكثيراً ما تستك مسامعنا فى المذياع والتليفزيون وعلى خشبة المسرح بشعر يلوى مهشم الأضلاع. وإذا كان (سيبويه) يضج اليوم — وهو فى رحاب الله — بأخطاء النحو، وكذلك (الخليل) يضج بعثرات الشعر والشعراء، فإنا لنرجو للنحو والشعر اليوم صلاحاً على أقلام الأدباء والمتأدبين، وعلى ألسنة الرواة والمنشدين. وهناك طامة كبرى فى زماننا هذا غير طامة الكسر فى الشعر المنظوم والمروى فى كتب التراث المحققة والمنشد فى المناسبات، وهى — أعنى الطامة — نسبة الشعر إلى غير أصحابه الحقيقيين، وقائليه الأصليين. وإذا كان هذا حادثاً وجائزاً فى العصور السابقة أيام كان الناس يعتمدون على الرواية الشعرية الشفوية، ولم يكن هناك شعر مدون مسطور، وإنما كان شعرا محفوظاً فى الصدور، فإن هذا غير جائز فى زماننا هذا، حيث يتم تسجيل الشعر وتدوينه عن طريق الكتاب المطبوع الذى تعد نسخه بالآلاف، لا كما يعد الكتاب المخطوط على أصابع اليد الواحدة، أو اليدين على الأكثر . . .

وأوهام القدماء فى نسبة الشعر إلى غير قائليه كثيرة جداً، تقع فى البيت الواحد

والبيتين والمقطوعة والقصيدة الكاملة . وهذا باب فى بحر لا ساحل له ، ولا سبر لأغواره ، ويحتاج تحقيقه وضبطه وتصحيح نسبه إلى مجلدات ، وإلى محققين ثقات ، يقابلون كتب الأخبار والنوادر والمحاضرات والأدب بعضها ببعض ، ويرجعون إلى دواوين الشعراء فى مخطوطاتها المتنوعة ، ليبحثوا عن البيت المختلف فى نسبته . ويسلك بعض المحققين اليوم هذا المسلك الدقيق ، ولكنه عمل يحتاج إلى جهد كبير من رجال التحقيق العلمى للتراث .

وأذكر هنا بعض أوهام القدماء واضطرابهم فى نسبة مقطوعة كاملة ، أو قصيدة برمتها إلى غير قائلها الحقيقى ، وهى مثال صغير جداً من ذلك المزدحم الذى يعج به هذا الباب :

فهناك أربعة أبيات قافية رقيقة فى الغزل الذى ينفطر فيه قلب المحب ، وهى مشهورة فى الحفظ ولكنها مضطربة فى النسب ، وهى :

إذا جَنّ ليلى هام قلبى بذكركم
أنوح كما ناح الحمام المطوق
وفوقى سحاب يمطر الهم والأسى
وتحتى بحار بالأسى تتدفق
سلوا « أم عمرو » كيف بات أسيرها
تفك الأسارى دونه وهو موثق
فلا هو مقتول ففى القتل راحة
ولا هو ممنون عليه فيطلق

فذكر « ابن خلكان » فى الوفيات أنها للصوفى الكبير سيدى أحمد الرفاعى المغربى الأصل العراقى المولد المشهور الطريقة المعروفة بالأحمدية ، أو البطائحية ، أو الرفاعية والمتوفى سنة ٥٧٨ هـ . وفى « طبقات الأولياء » لابن الملقن أنها للرفاعى أيضا . وذكر ابن الجوزى المؤرخ - ضمنا لا صراحة - أنها لغير الرفاعى . وأيد صاحب « شذرات الذهب » ما ذكره ابن خلكان من أنها لسيدى أحمد الرفاعى . وقد جاء الوهم والخلط مما ذكره ابن الجوزى ، فقد قال إن سبب وفاة الرفاعى رضى الله عنه أبيات أنشدت بين يديه ، تواجد عند سماعها تواجداً كان سبب مرضه الذى مات فيه ، وكان المنشد لهذه الأبيات - بين يدى الرفاعى الشيخ - « عبد الغنى بن نقطة » .

وهذا النص واضح الدلالة على أن الشعر أنشده ابن نقطة فى مجلس الرفاعى . فهو ليس للرفاعى . ولا لابن نقطة . ولكنه لشاعر آخر لا يزال غير محقق ، ولا يزال ينتظر من يكشف اللثام عن أصله . . .

وأعجب من هذا قصيدة طويلة كاملة فى وصف الربيع الذى نعيش الآن فى كنفه ، يقول فيها صاحبها :

ورد الربيع فمرحبا بوروده
وبنور بهجته ونور وروده
وبحسن منظره وطيب نسيمه
وأنيق ملبسه ووشى بروده

فصل إذا افتخر الزمان ، فإنه
إنسان مقلته ، وبيت قصيده
يا حبذا أزهاره ، وثماره
ونبات ناجمه ، وحب حصيده
وتجاوب الأطيار فى أشجاره
كبنان (معبد) فى مواجب عوده
والغصن قد كسى الغلائل بعدما
أخذت يدا (كانون) فى تجريده
والورد فى أعلى الغصون كأنه
ملك تحف به سراة جنوده
وانظر لنرجسه الجنى كأنه
طرف تنبه بعد طول هجوده
وانظر إلى المنظوم من منثوره
متنوعاً بفصوله ، وعقوده
أو ماترى الغيم الرقيق ومابدا
للعين من أشكاله وطروده ؟
والسحب تعقد فى السماء مآتما
والأرض فى عرس الزمان وعيده
فابكر إلى روض (الصراة) وظلها
فالعيش بين بسيطه ومديده

وقد نسب مؤرخ الأدب : (المرادى) صاحب « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » هذه القصيدة إلى (محمد بن الطيب المغربى الفاسى نزيل (المدينة المنورة) وهو ممن ترجم لهم المرادى فى كتابه . وهذا وهم كبير من صاحب سلك الدرر ، فالقصيدة من شعر صفى الدين الحلى ، ومودعة ديوانه قبل أن يولد ابن الطيب المغربى بقرون ، وقد جاءت فى مجانى الأدب «للأب شيخو» صحيحة النسب إلى صفى الدين . ولو أن «المرادى » استعمل الطريق العلمى فى التحقيق لتبين له أن «روض الصراة » هو روض مشهور بين بغداد والكوفة ، فهو من بلاد صفى الدين الحلى . . . أما ابن الطيب فهو مغربى لم يبرح المغرب إلا حاجا لبيت الله ومجاورا فى الحرم المدنى ، فهو لا يعرف العراق ولا «روض الصراة» ولا مر بهما . .

أما أوهام المحدثين والمعاصرين فى نسبة الشعر إلى أصحـــابه فهى ثقيلة وغليظة ، ولا مقتضى لها مع وجود الكتب المطبوعة على أعين أصحابها . . .

■ ومن هذه الأوهام ما وقع للأبيات الآتية :

سهرت أعين ونامت عيون
لأمور ، تكون أو لا تكون
فاصرف الهم ما استطعت عن النـ
ـفس فحملانك الهموم جنون
إن ربا كفاك بالأمس ما كا
ن سيكفيك فى غد ما يكون

فقد نسبها صاحب كتاب (حفيدة الرسول) ص ٣٦ إلى السيدة زينب رضى الله عنها ، كما نسبها العالم السعودى المعاصر الشيخ أحمد العربى إلى الإمام الشافعى فى كتابه : (الإمام الشافعى) . وكلتا النسبتين غير صحيحة ، والصحيح والمحقق أنها لأبى عبد الله المالقى القرطبى ، كما ذكر ذلك

الإمام السيوطى فى كتابه (بغية الوعاة) حـ ٢ / ٣٧ . والقرطبى هذا هو غير الإمام القرطبى المفسر المشهور .

ومن أغرب الأوهام ما وقع فيه لغوى معاصر من نسبة البيتين الآتيين إلى شاعر معاصر :

قل لمن لا يرى الأواخر شيئا
ويرى للأوائل التقديما
إن ذاك القديم كان جديداً
وسيغدو هذا الجديد قديما

والصحيح المؤكد أنهما لابن شرف القيروانى صاحب (رسائل الانتقاد) التى نشرها المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب باشا عضو مجمعنا . والقيروانى هذا غير ابن رشيق القيروانى صاحب كتاب (العمدة) فى صناعة الشعر ونقده ، وكانا متعاصرين وبينهما خصومات أدبية ومهاجاة .

● ومن الأوهام فى نسبة الشعر كذلك ما وقع فى أبيات وصف القطار الحديدى التى تقول :

طرائق فى نواحى القطر تبلغنا
أقصى المراد ولم ننقل بها قدما
مصر كصفحة قرطاس بتربتها
غدا القطار عليها الخط والقلما
لنا غنى عن قطار السحب منسجما
ولا غنى عن قطار النار مضطرما

إلى أن يقول بيته المشهور فى ختامها :

مع السلامة يامن سار مرتحلا
عنا . وأهلا وسهلا بالذى قدما

فقد نسبها المرحومان عبد الفتاح صبرى باشا وعلى عمر بك فى كتابهما : (القراءة الرشيدة) إلى مصطفى بك نجيب والد المرحوم سليمان نجيب مدير دار الأوبرا سابقا ، والصواب أنها للشيخ نجيب الحداد الشاعر اللبنانى المتمصر ، وابن شقيقة اليازجى ، ويراها القارئ فى ديوانه :

● وهناك الأبيات الرقيقة التى منها :

صاح فى العاشقين بالكنانة
رشأ فى الجفون منه كنانه
بدوى بدت طلائع لحظيه
فكانت فتاكة فتانه

إلى أن يقول ناظمها هذا البيت المشهور :

خطرات النسيم تجرح خديه
ولمس الحرير يدمى بنانه

فقد نسبها قوم إلى بعض المشارقة ، وتوقف قوم عن نسبتها لأنها لم يثبت لها عندهم قائل . . . ونسبها صاحب كتاب (الشوارد) — وهو من المجمعيين المراسلين — إلى أبى فراس الحمدانى . والصحيح واليقين أنها للشاعر المصرى الحلبى الأصل : «الشهاب الأعزازى» من شعراء العصر المملوكى ، واشتهر بالموشحات وأبدع فيها ، كما يشهد له ابن تغرى بردى فى «المنهل الصافى» ، .

وابن حجر فى « الدرر الكامنة » . وتوجد هذه القصيدة الرقيقة فى ديوان الأعزازى المخطوط ، والذى توجد منه نسخة جيدة الخط بمعهد المخطوطات العربية :

● أما القصيدة الوعظية التى اشتهرت بين الداعين إلى الزهد فى زماننا هذا ، والتى تقول :

الزم باب ربك واترك كل دون
لا تجزع لرزقك ما قدر يكون

فقد اختلف قوم فى نسبتها إلى قائلها، حتى لقد نسبها صاحب كتاب (الشرق فى فجر اليقظة) إلى الشيخ حمزة فتح الله المفتش الأول للغة العربية ، وصاحب كتاب (المواهب الفتحية) ، والصحيح أنها للشيخ محمد عليش شيخ المالكية بالأزهر فى عهد إسماعيل :

● ولقد نسبوا فى كتبهم الحديثة أيضا إلى الشاعر محمود سامى البارودى الأبيات المشهورة :

أمطرى لؤلؤا جبال سرنديب
وفيضى آبار تكرور تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتا
وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ونفسى
نفس حر ترى المذلة كفرا

ولعل الشبهة جاءت من (جبال سرنديب) لأن البارودى الثائر نفى بعد إخفاق الثورة العرابية إلى جزيرة سرنديب أو سيلان وقضى فيها مع رفاق النفى شطرا من عمره ، فتوهم المتوهمون أن سرنديب لا تأتى إلا على لسان البارودى ، ولا تخرج إلا من بين شفتيه ، فنسبوا الأبيات إليه ، وهى من ديوان الشعر الذى ينسب إلى الإمام الشافعى . وقد ذكرها المرحوم مصطفى منير أدهم فى كتابه (رحلة الإمام الشافعى إلى مصر) منسوبة إليه .

● أما الأبيات التى تقول :

ولست أبالى أن يقال محمد
أبل أم اكتظت عليه المآتم
ولكن دينا قد أردت صلاحه
أحاذر أن تقضى عليه العمائم

فقد نسبوها ظلما إلى الإمام محمد عبده : ولعل الشبهة هنا جاءت من رفض الدعوة إلى الإصلاح الدينى ، بل وهم السيد رشيد رضا صاحب (المنار) وتلميذ الأستاذ الإمام وصفيه فنسبها إليه أيضا فى كتابه الضخم : (تاريخ الأستاذ الإمام) ج ١ ص ١٠٢٦ ، على الرغم من شدة قربه له وصلته به . والصحيح أنها لعالم وفقيه ووزير مغربى مصلح هو الشيخ محمد كنسوس ، أو أكنسوس ، المتوفى سنة ١٨٧٧ م أى قبل أن يرتفع للأستاذ الإمام ذكر ،

أو يدعو إلى إصلاح ، وقد نظمها هذا الوزير الأديب الشاعر أسفا على ماأصاب وطنه الإسلامى من جهل رجال الدين وتقاعسهم . ونحن مدينون بهذا التصحيح إلى كتاب (الآداب العربية فى القرن التاسع عشر) للأب لويس شيخو اليسوعى .

● ونسبوا إلى إسماعيل باشا صبرى هذين البيتين :

أقول لهم فى ساعة الدفن خففوا
على ولا تلقوا الصخورعلى قبرى
ألم يكف هم فى الحياة حملته
فأحمل بعد الموت صخرا على صخرى ؟

وكأنهم استبعدوا أن يكون هذا الشعر لقائله الحقيقى : أحمد شوقى مع ما رزقه الله من ثراء ينتفى معه الهم ؛ ونسوا أن الهم قد يطرق باب المثرى ، كما يطرق باب المكدى على السواء . فليست هموم الدنيا فقد مال وحسبُ ، وفاتهم أن شوقى قال هذين البيتين فى ساعة من ساعات الضيق فى الحياة ونشرهما صديقه : أنطون الجميل فى مجلته (الزهور) فى حياة شوقى سنة ١٩١٠ فلو لم يكونا لشوقى لأنكر نسبتهما إليه ، ولصحح ذلك فى « الزهور » أو فى غيرها ، ولكنه لم يفعل ، ونحن نكبر شوقى أن ينتهب لنفسه شعرا ليس هو صاحبه . . .

● ونختم هذه الأنساب والنسب الكاذبة فى الشعر ببيتين قالوا إن حافظ إبراهيم نظمهما فى شيخ عصرى مشهور ، وكان معهما ، فى المجلس : مجلس الشراب أديب اشتهر بظرفه . . فقام الشيخ يصلى حين حان وقتها ، وبقى حافظ والآخر مكبين على الكئوس ، فقال حافظ :

الشيخ قام يصلى
ونحن نشرب عنه
تقبل الله منا
ولا تقبل منه . .

والواقع أن حافظ إبراهيم لم يكن ناظما للبيتين ، ولكنه كان مستشهدا بهما من محفوظه ، فنسبهما أصحاب الفكاهات إليه ، وهما من منظوم « المقرى » صاحب نفح الطيب وصديقه المولى أحمد بن شاهين أديب دمشق وظريفها فى القرن الحادى عشر : والحادثة هنا كالحادثة هناك فى ذلك الماضى البعيد . : رحم الله الجميع ، وهدانا جميعا سواء السبيل .

محمد عبد الغنى حسن
عضو المجمع

توحيد المصطلح العلمي في النقل والتعريب

للدكتور شوقي ضيف

– ١ –

أمتنا العربية أمة ذات وحدة لغوية ، وهى وحدة جعلت لنا عالما متميزا ، تتماثل شعوبه فى حياتها الروحية والفكرية والحضارية ، وهو تماثل قديم بدأ مع الفتوح الإسلامية ؛ إذ هجرت تلك الشعوب لغاتها واتخذت العربية لغة القرآن الكريم لسانا لقلوبها وعقولها ، بحيث أصبحت منذ هذا التاريخ القديم تكون عالما واحدا عربى اللغة والوجدان والفكر . وسرعان ما تحولت العربية من لغة بداوة الى لغة علم تستوعب كل ماعرفت الأمم القديمة من علوم ، وتضيف إليها إضافات رائعة ، مستغلة ، فى وضع مصطلحاتها العلمية ، ثروتها الهائلة من الأصول والمشتقات فى الأفعال والأسماء ، وهى ثروة تفوق فيها العربية جميع لغات العالم فى القديم والحديث ومن أكبر الدلالات على هذه الطاقات التى حازتها العربية قديما فى دنيا العلوم أنه حين بدأت إيران حركاتها الاستقلالية فى القرن الرابع الهجرى ، وأخذت تستظهر لغتها الفارسية لم تجد بدا من أن تظل قرونا عدة متمسكة بالعربية لغة للعلم ، مؤمنة بأن الفارسية لا تستطيع فى هذا المجال أن تسد مسدّها أو تغنى غناءها ، ويصور البيرونى فى القرن الخامس الهجرى بوضوح هذا المعنى قائلا : « إلى لسان العرب نُقلت العلوم فى أقطار العالم وازدانت وحلت إلى الأفئدة ، وسرت محاسن اللغة منها إلى الشرايين والأوردة . . ويعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسية ذهب رونقه وكسف باله وزال الانتفاع به » وهى شهادة قديمة من عالم إيرانى كبير بعبقرية العربية فى أداء العلوم ؟

ومن أهم ملامح هذه العبقرية أنها مكنت بقوة لتوحيد المصطلحات العلمية فى جميع البيئات العربية وعلى ألسنة جميع الأسلاف من العلماء فى الماضى ، فمصطلحات علم

(*) انظر التعقيبات على البحث فى محاضر جلسات مؤتمر الدورة السادسة والأربعين (جلسة الأربعاء ٩ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٠ هـ ، الموافق ٢٦ من مارس سنة ١٩٨٠ م) .

كالطب مثلا فى كتاب « القانون » لابن سينا كانت هى نفس مصطلحاته عند مهذب الدين الدخوار وابن القف الدمشقيين وعند ابن رضوان وابن النفيس المصريين وعند ابن رشد وابن زهر الأندلسيين . وهكذا مصطلحات بقية العلوم ، مما هيأ لكل علم تعاونا علمياً خصباً مثمرا فى مشارق العالم العربى ومغاربه ، فما يؤلفه عالم وينفذ إليه من تجارب ونتائج علمية فى أى بلد عربى يشيع توآً فى الأمة ويتدارسه أبناؤها فى كل مكان ، ويبنى فيه الخالف على ماأسس السالف ، مما أتاح لكل علم نهضة كبرى ، إذ تضافرت فيه الأمة بجميع علمائها ، ولذلك مظهر واضح فى كتب التراجم عند الأسلاف ، فإنهم حين أرخوا للعلماء وكتبوا سيرهم لم يخصوا علماء أى بلدة بكتاب خاص أفردوه لتراجمهم ، بل جمعوهم دائما فى كتاب واحد إيمانا منهم بأن وحدة علمية تجمعهم ، وهى وحدة دعمت الأواصر الثقافية بين أسلافنا طوال القرون الماضية ، فكنا أمة واحدة فى علمها ، تتعدد بلدانها ، وتتوحد علومها ، بحيث يشعر العالم فى كل مصر بصلة وثقى تربطه لا بعلماء أمته الماضين فحسب ، بل أيضا بعلمائها المعاصرين له على اختلاف أمصارهم ، حتى لنجد نفرا منهم يرحلون من بلدانهم إلى بلدان أخرى كى يلقوا زملاءهم فى هذا العلم أو ذاك ، ويتحاوروا معهم فيه وفيما حققوا من تجاربه ، على نحو ما صنع ابن بطلان طبيب بغداد ، إذ رحل إلى ديار مصر ، للقاء على بن رضوان طبيب القاهرة بعد أن كثرت بينهما المراسلات والمراجعات فيما يؤلفان من الطب والعلوم الحكمية . وكان لقاؤهما سنة ٤٤١ وظل ابن بطلان بمصر ثلاث سنوات ملأها مع الطبيب المصرى بالمناظرات والمحاورات فى علم الطب وأمراضه وأدوائه ، وهما فى أثناء ذلك يستخدمان لغة طب واحدة ومصطلحات طبية واحدة ، ولو كانت هذه المصطلحات غير موحدة ما اجتمعا ولا اشتركا فى مناظرة أو حوار ، بل ما ازدهر الطب ودراساته وتجاربه واكتشافاته فى ديارنا ، وإنما ازدهر وآتى ثماره بفضل توحيد لغته ومصطلحاته ومشاركة جميع أطباء العرب فيه على اختلاف أمصارهم وأعصارهم ، وهذه الوحدة فى الطب ومصطلحاته كانت تسرى فى جميع العلوم العربية مما هيأ لنا نهضة علمية عظيمة أثرت فى الحياة الإنسانية آثارا بعيدة ، امتدت شرقا إلى الهند وبلاد الصين وغربا إلى أوربا فى عصر النهضة وقبله وبعده أجيالا وراء أجيال ،

ـ ٢ ـ

وقد تجمعت الخطوب على هذه الوحدة العلمية فى البلاد العربية مع الاحتلال العثمانى ، فإذا حياتنا ، فى العلم وغير العلم ، تفضى إلى ركود شديد ، ثم تكون الطامة الكبرى فى العصر الحديث باحتلال الإنجليز والفرنسيين لديارنا ، وبمجرد أن ثَبَّتوا فى أرضنا الطاهرة أقدامهم الدنسة عملوا بقوة على أن يسيطروا على التعليم وأن يدرسوا للناشئة العلوم بلغتيهما الأجنبيتين ، حتى يقطعوا الصلة الثقافية بين ماضينا وحاضرنا ، حتى تنهار وحدتنا العلمية ولاتقوم لنا قائمة . وتنبهت مصر لهذا الخطر الداهم ، فعرَّبت منذ أوائل هذا القرن العشرين العلوم فى التعليم العام . ويدور الزمن دورة ، وتؤسَّس الجامعات فى مصر وفى البلدان العربية ويُسْتَقْدَمُ العلماء الغربيون لتدريس فروع العلم بها ، ونعود ثانية فى جامعاتنا إلى الاستعجام فى العلوم ، وتُرْسَل بعوث كثيرة إلى الغرب ، ويعود لنا أفذاذ من العلماء النابهين فى علوم الطب والطبيعيات والرياضيات والهندسة والكيمياء ، غير أنهم لا يتخذون العربية لسانا لمحاضراتهم فى الجامعات ، بل يتخذون نفس لغات العلوم التى حذقوها وما استقر فى أذهانهم من مصطلحاتها العلمية .

وحتى اليوم لاتزال كثرة علمائنا فى الجامعات ترى أن يظل تعليم العلوم فيها باللغات الأجنبية ، محتجة بأن المصطلحات العلمية تتكاثر فى الغرب يوما بعد يوم فى كل علم ، بحيث يصعب متابعتها وحصرها ، ثم تعريبها ونقلها إلى لغة الضاد . وهى حجة واهية ، إذ صعوبة شىء لا تمنع من محاولة تذليله ، وخاصة إذا كان هذا التذليل يُعَدُّ ضرورة لامفر لنامنها لاستعادة نهضتنا العلمية ، وأيضاً هو ضرورة لا مفر لنا منها لإنقاذ الشباب العربى من التمزق بين لغة أدبية قومية ولغة أو لغات علمية أجنبية . ومن المؤكد أن الانفصام القائم وبين ما ننطقه عربياً من العلوم الإنسانية وما ننطقه أعجمياً من العلوم الغربية .. يعود بأسوأ الأضرار إلى حياتنا الأدبية لأنه يجعل العربية فى عصرنا لغة أدب فحسب ، أدب لاتصقله المعرفة العلمية ، ومعروف أن عصور الازدهار الأدبى عند جميع الأمم كانت تقترن فيها النهضة الأدبية بنهضة علمية وفلسفية قوية ، على نحو ماحدث عند اليونان فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، وعلى نحو ماحدث عند الغربيين فى العصر الحديث ، وأيضاً على نحو ماحدث عند أسلافنا فى الماضى فإن نهضتهم الأدبية التى أنتجت أبا تمام والجاحظ وابن الرومى والمتنبى وأبا العلاء اقترنت بنهضة فلسفية وعلمية رائعة .

وإنه لحق للأمة العربية ووحدتها الثقافية علينا أن نعمل بكل ما نستطيع من جهد على رفع الأسوار اللغوية التى تفصل بين

حياتنا الأدبية وحياتنا العلمية ، حتى يزول هذا التقاطع القائم بين الحياتين : بل إنه لحق للأمة العربية ووحدتها الثقافية أن يحاضر علماؤنا فى الجامعات ويؤلفوا كتبهم للشباب بلغة عربية موحدة المصطلحات العلمية ، فإن علما من العلوم حين تختلف مصطلحاته فى بلداننا العربية وتفترق لا يصبح علما معربا كامل التعريب ، بل يظل مستعجماً من بعض الوجوه ، فما يكتبه عالم ببغداد مثلا له مصطلحاته العلمية الخاصة لا يفهمه عالم بالمغرب مثلا له فيه مصطلحات مختلفة مقابلة . وحتى فى العلوم الإنسانية مثل علم النفس يكاد يستعجم أو يغمض مايكتب منه فى بيئة عربية على بيئة عربية أخرى .

ولا ريب فى أننا إن لم نعمد سريعاً إلى توحيد المصطلحات العلمية فى تعريب العلوم فإن الغاية المثلى من هذا التعريب — وهى وحدتنا العلمية والثقافية — تضل منا وتختفى فى الطريق . ومن الحق أن أمتنا لا تريد فقط من تعريب العلوم أن تتغير حروفها الأجنبية وتصبح عربية ، بل تريد أن تشيع فيها وحدة لغوية ، وإلا ظلت بيئاتنا العربية فى العلوم متقاطعة متنابذة ، لكل بيئة لغتها العلمية المستقلة التى تحول بينها وبين الاتصال المنظم بعلوم البيئات العربية الأخرى . وحينئذ يضيع منا ما نأمله من وحدتنا العلمية ومن نمونا العلمى الجماعى المتكامل ، كما نمت علوم أسلافنا فى القديم ، فإنها لم تنم متفرقة متنافرة ، فى بيئاتها العربية المختلفة ، بل نمت متواصلة متشابكة ، تشدها وحدة علمية وثقى .

— ٣ —

ومعنى ذلك أننا لا نبتغى تعريب العلوم الغربية فحسب ، بل نبتغى أيضاً توحيد هذه العلوم بتوحيد مصطلحاتها بحيث يكون علم الكيمياء مثلا بمصطلحاته فى بغداد هو نفسه فى دمشق وبيروت والرياض والقاهرة والخرطوم وطرابلس وتونس والجزائر والرباط ، لا أن تكون عربيته إقليمية لكل بلد عربى فيه كتبه ومصطلحاته ، بل تكون عربية مشتركة ، بحيث تنمو جميع البلدان العربية نموا علميا معاً ، وبحيث يعود لنا مجتمعين دورنا العلمى القديم ، وتعود لنا المشاركة العلمية الخصبة فى الفكر العالمى .

ونحن بذلك لا ننشد تعريب العلوم الغربية فحسب ، بل ننشد ما هو أبعد من ذلك : أن يتجمع علماؤنا فى وحدة علمية قوامها وحدة المصطلح العلمى فى التعريب والنقل ، حتى تكون لغتنا فى كل علم واحدة ، وحتى لا يمس بلداننا أى شىء من التناكر ، ولا يمس أواصرنا الثقافية أى شىء من الوهن ، وإلا كان ما ينهض به علماؤنا من تعريب لا يؤدى بحال إلى الغاية المرتقبة من الوحدة الثقافية بيننا ،

ونحن نريد أن تعود هذه الوحدة قوية ، وأن تُرْفَعَ من طريقها كل الأسوار اللغوية ، ولن يتمّ ذلك على الوجه الأكمل إلا إذا اتحد المصطلح العلمي فى كل كتاب علمى عربى من الخليج إلى المحيط .

وإنى لشديد الأمل فى أن يؤمن علماؤنا فى الجامعات والمعاهد العليا أن مهمتهم ليست فقط أن يحذقوا هذا العلم الغربى أو ذاك فى لغته الأجنبية ويحاضروا بها الطلاب ، بل مهمتهم قبل كل شىء أن يضيفوا إلى هذا الحذق حذقاً لا يقل عنه بدقائق العربية وأوضاعها ، حتى يحاضروا بها الطلاب ، وينقلوا إلى أوانيها اللفظية العلم الذى تخصصوا فيه نقلا متقنا . ولهم قدوة أو ينبغى أن تكون لهم قدوة بكبار النقلة والعلماء فى العصر العباسى ، إذ بلغ من إتقانهم العربية أن أدخلوا فيها علوم الأوائل وصبّوها فى قوالبها دون أى مساس بأوضاعها ومقوماتها الأصيلة . ويكفى أن نذكر منهم ابن المقفع أكبر النقلة عن الفارسية فقد كان فى الذروة من بلغاء عصره . وكان حنين بن إسحق أكبر النقلة عن اليونانية يحذق العربية ، ويبلغ من حسن أدائه فيها أن رسم له المأمون وزن مايترجمه وينقله ذهباً . وكان ابن سينا أكبر أطباء عصره وفلاسفته يبلغ فى العربية طبقة رفيعة ، وكان يكبّ على المعاجم يقرؤها ، ومما قرأه معجم تهذيب اللغة للأزهرى .

ولا أشك فى أن من علمائنا المعاصرين ، وخاصة المجمعيين ، من يتقنون العربية فقها وفهمـا وعلما بدقائقها وخصائصها ، والأمل معقود على أن يصبح هذا الاتقان عاماً بين جميع علمائنا فى التعليم العالى حتى نفذ سريعاً إلى تعريب العلوم وتوحيد مصطلحاتها العلمية . ومن العقبات التى تقف فى طريق هذا التوحيد اللغة التى يعرّب منها علماؤنا وينقلون مصطلحات العلوم ، ففى الشام : فى سوريا ولبنان وفى المغرب : فى الجزائر وتونس ومراكش يعربون وينقلون من اللغة الفرنسية ، وفى العـراق والأردن والسـعودية والسودان يعربون وينقلون عن الإنجليزية ، وعنها يغلب التعريب والنقل فى مصر ، وقـد يكونان عن الفرنسية . وأدّى ذلك إلى اختلافات كثيرة فى المصطلحات العلميـة واستخدامها فى البلدان العربية وحتى عنوانات بعض العلوم حدث فيها اختلافات عن طريق النقل والتعريب ، فعلم مثل علم الطبيعة الذى نقلته بعض البلدان العربية بهذا الاسم يسمى باسم الفيزياء تعريبا فى بلدان ثانية ، وباسم الفيزيقا فى بلدان ثالثة . وإذا كان هذا يحدث فى أسماء بعض العلوم ، فما بالنا بما حدث فى مصطلحاتها المتنوعة .

وكثيرون فى عصرنا يحذرون من التوسع فى تعريب المصطلحات العلمية ، يقولون إن من شأن هذا التوسع أن يفتح أبواب

العربية على مصاريعها لدخول كلمات أجنبية كثيرة ، ليست منها ، وإنها لتبدو بوضوح كالرقع فى نسيجها ، وخاصة تلك التى تخرج على أبنيتها وأوضاعها اللغوية .

وهو تحذير ينبغى أن لانبالغ فيه ، لأن أسلافنا أنفسهم أجازوا التعريب وتوسعوا فيه يوم أن كانت المصطلحات العلمية لاتزال محدودة ، فما بالنا الآن وهى تتكاثر يوماً بعد يوم ، حتى ليصبح من العنت أكبر العنت أن نغلق أبواب العربية من دون هذه المصطلحات إلى أن نجد لها مايقابلها فى اسانننا عن طريق تراثنا العلمى أو عن طريق المجاز والاشتقاق ، فإن ذلك يحول بيننا وبين التعريب السريع للعلوم . وحقاً مانجد له مقابلا فى العربية وما نستطيع نقله نضعه فيها وننقله ، ولكن ستبقى دائماً فى كل علم مصطلحات كثيرة يعوزنا فيها أن نجد لها مقابلا أو ترجمة فى العربية وإذن لابد من تعريبها وإدخالها فى عربيتنا بصورتها الأجنبية مع تغيير طفيف أحياناً وبدون هذا التغيير أحياناً أخرى ، تيسيرا علينا فى حركة التعريب والنقل للعلوم الغربية . وهو حق مقرر فى العربية من قديم سبقنا إلى تقريره الأسلاف ، إذا أجازوا ، — وفى مقدمتهم سيبويه — تعريب الألفاظ الأجنبية أو كما كانوا يسمونها الأعجمية ، سواء حدث تغير فى بعض حركاتها وحروفها أو لم يحدث ، وسواء ألحقت بأبنية الكلام فى العربية أو لم تلحق . وبهذه الرخصة الواسعة عرّب الأسلاف كثيراً من الكلمات اليونانية والفارسية والسريانية ، وحاجتنا اليوم إلى ذلك أشد من حاجتهم لتشعب العلوم الغربية وكثرة مصطلحاتها كثرة مفرطة .

— ٤ —

وسنظل نبدىء ونعيد : أننا لانريد تعريب العلوم الغربية فحسب ، بل نريد أيضاً وحدة المصطلح العلمى فى التعريب ، حتى تصبح لنا لغة علمية واحدة ، كتلك التى كانت لأسلافنا فى القديم ، فهم جميعاً كانوا يحاضرون ويؤلفون بلغة علمية واحدة ، ولم يكن لأى بلد عربى علماء مستقلون ، بل كانوا جميعاً علماء عالم تعددت أقطاره ، ولكل قطر دولته السياسية ، أما فى العلم فكانوا جميعا لوطن واحد ، بل كأنهم لجامعة واحدة أو مؤسسة علمية واحدة . وهو مانريده لأنفسنا ولعلمائنا اليوم : أن تكون لهم لغة علمية واحدة يتداولونها ويتعاملون بها ، عملة علمية تُستَخدم فى جميع البلدان العربية ، يستخدمها جميع علمائنا من الخليج إلى المحيط ، بحيث يكوّنون عالما علميا واحداً ، تتعدد بلدانه ، وتنتسب جامعاته ومجامعه ودور العلم فيه إلى مايشبه مؤسسة علمية واحدة : وبذلك تتم لنا وتتكامل وحدتنا العلمية ، ونعود ثانية إلى الظهور على مسرح العلم العالمى بلغتنا العلمية العربية الموحدة ، لنؤدى دورنا من جديد فى التأثر والتأثير العلميين ، فكما تأثر

أسلافنا بعلوم العالم القديم ، وأضافوا إليها مكوّنين علومهم ، ومضوا يؤثرون بها فى الغرب والشرق ، كذلك نحن فى عصرنا الحاضر نتأثر بعلوم العالم الغربى الحديث ، ونضيف إليها ، ونكوّن علومنا ، ونعود إلى التأثير بها شرقا وغربا .

وهذه الوحدة العلمية العربية المرتقبة التى ستمدّ أطنابها حتى تظلّ الوطن العربى جميعه بكل مافيه من مجامع لغوية وعلمية وجامعات ومعاهد عليا ليست خيالا ولا وهماً، بل هى حقيقة لابدواقعه،يوم يتم لنا تعريب العلوم الغربية وتوحيد مصطلحاتها العلمية : وينبغى أن نتعجلها ونسرع إليها الخطى، والطريق إلى الإسراع بها سهل ميسر متى صحت منا العزائم . وأقترح لذلك أن تتألف هيئة علمية تتبع اتحاد المجامع اللغوية ، تتكون من بعض أعضائها العلماء الأعلام ، بحيث تكون مهمتها وضع البرامج التى تكفل قيام هذه الوحدة العلمية العربية الكبرى والإشراف على تنفيذهذه البرامج سريعابالوسائل الممكنة .

وفى تقديرى أن الفرص مهيئة للنهوض بهذا العمل الجليل ، فقد وضع مجمعنا اللغوى عشرات الآلاف من المصطلحات العلمية ، ويكفى أن نذكر فى هذا الصدد أن مجمعنا وضع حتى الآن فى مختلف العلوم نحو ستين ألف مصطلح علمى منقول ومعرب ، وتحولت أثبات منها إلى معاجم لتلك المصطلحات فى الفيزيقا النووية ، وفى الجيولوجيا ، والجغرافيا والفلسفة : وستتوالى لهذا المجمع معاجم فى فروع العلوم المختلفة . وبجانب ذلك وضع أفذاذ من علمائنا النابهين معاجم فى الطب والتشريح والثدييات والطبيعة والرياضيات والزراعة والنباتات والحيوان والفلك والقانون :

وهذا الرصيد الهائل من المصطلحات العلمية آن أن تتوفر عليه الهيئة العلمية المقترحة ، مستعينة بحشود من الخبراء والمحررين لتدوينه وتسجيل الموحد منه فى جداول وكذلك المختلف . وقد عنى مجمعنا دائماً بتوحيد المصطلحات العلمية ، مما جعله شديد الحرص فى مؤتمره السنوى على إشراك طائفة من علماء البلدان العربية ، وعرضه فيه ما انتهت إليه لجانه من مصطلحات علمية ، حتى تكون ثمرة إجماع عربى ، وهذا العمل السنوى يُعَدّ أكبر خطوة اتخذها مجمعنا حتى الآن فى سبيل توحيد المصطلحات العلمية نقلا وتعريبا .

وأرى أن تتسع مهمة الهيئة العلمية المقترحة ، فتعمل على استخدام المصطلحات العلمية موحّدة فى المجال العلمىّ : مجال التدريس والمحاضرات فى الجامعات والتعليم العالى ، عن طريق اختيار أمهات الكتب فى كل علم لكى تعرّب وتنقل إلى العربية ، وتضاف كتب بجانبها لعلمائنا وبذلك يتم فعلا تعريب العلوم الغربية ، ونقلها إلى لساننا العربى من الوجهتين النظرية والعملية .

شوقى ضيف
عضو المجمع

تأصيل بعض الدخيل من أسماء : الملابس والأطعمة في كتاب الجبرتي

للدكتور أحمد السعيد سليمان

قبل الحديث فى الدخيل من أسماء الملابس والأطعمة ، أرجو أن يؤذن لى بكلمة قصيرة تكون مدخلا إلى هذا الدخيل وكيفية استعمال الجبرتى له :

كانت الدولة العثمانية عند فتح مصر قد بلغت ثمانية عشر ومائتى عام ، ثابتة الأركان ، مكتملة النظام ، وورثت كثيراً من ألفاظ الحضارة والإدارة عن البيزنطيين والسلاجقة والايلخانيين وصقالبة البلقان .

وما إن تحولت مصر المملوكية بالفتح العثمانى من سلطنة مستقلة إلى بلد تابع يحكمه وزير عثمانى برتبة باشا حتى صارت اللغة التركية لغة رسمية ، ووفدت على مصر جماعات من الموظفين الأتراك ليعاونوا الباشا على حكم مصر .

وقد أحلَّ هؤلاء الموظفون العثمانيون مصطلحهم الملفق من شتّى اللغات محل المصطلح الأيوبى المملوكى الذى شارك فى تعريبه وصياغته كبار أرباب القلم كالقاضى الفاضل والعماد الأصفهانى وابن فضل الله العمرى والقلقشندى :

ومن ذلك أنه كان يقال لوزير المالية فى العصر المملوكى « ناظر الأموال » فقيل له بعد الفتح العثمانى « الدفتردار » ، وكان يقال للرئيس المالى فى الإقليم من اقاليم مصر « المتحدث » أى صاحب الكلمة فى مالية الإقليم فقيل له بعد الفتح «الأفندى» .

وبطل أيضا استعمال كلمات فارسية معربة كانت قد ذابت فى العربية حتى لم يعد الأدباء يتحرجون من استعمالها فى الشعر وفى النثر الفنى ككلمة «برددار» أى صاحب الستارة فقد وردت فى قول ابن النبيه :

قلت لليل إذ حبانى حبيبا
وغناء يسبى النهى وعقارا
أنت ياليل حاجبى فامنع الصـ
ـبح وكن أنت يادجى برددارا

أخرجت هذه الكلمة من الاستعمال لتقوم مقامها الكلمة التركية «قبوجى» أى البواب أو الكلمة الفارسية التركية «جوخدار»

(*) انظر التعقيبات على البحث فى محاضر جلسات مؤتمر الدورة السادسة والأربعين (جلسة السبت ١٢ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٠ هـ ، الموافق ٢٩ من مارس سنة ١٩٨٠ م) .

أى لابس الجوخ لأن زى صاحب الستارة كان من الجوخ ولكن هاتين الكلمتين الجديدتين لم تذوبا فى اللغة العربية ولم نصادفهما فى شعر أو نثر فنى .

ومن الفارسى المعرب الذى بطل استعماله فى مصر بعد الفتح العثمانى كلمة جاليش أى الراية وطليعة الجيش، ولم يكن يخلو من هذه الكلمة حديث عن الحروب والمعارك فى العصرين الأيوبى والمملوكى، وقد وردت كثيرا فى سجعات العماد الأصفهانى فى كتابه الفيح القسى فى الفتح القدسى ، ومن ذلك قوله « وأسرعت الأعنة وأشرعت الأسنة ونقع النقع أوام الجو وأجاب الصدى دوى الدو وجال الجاليش وطار السهم المريش (١٠٧) .

وفى صبح الأعشى « وكم ساروا إلى بلاد ملوك الأعداء فثلوا لهم عروشا ، وكم كانوا على أعقاب العساكر المؤيدة الاسلامية ردفا ومقدمتهم فى المحاصرة جاليشا ٣٧ر١٣.

أخرجت هذه الكلمة أيضا من الاستعمال وحلت محلها كلمة تركية يظن أنها من أصل صينى وهى كلمة طوخ بالخاء أو طوغ بالغين .

* * *

وقد كان الجبرتى رحمه الله محيطا بالمصطلح العثمانى ملما بالمصطلح المملوكى يستعمله أحيانا مع المصطلح العثمانى ؛ فهو يستعمل مثلا كلمة جاليش التى بطل استعمالها رسميا ، والتى يجهلها الترك لأنها من الفارسى الذى لم يدخل المعجم التركى ، يستعملها الجبرتى ويشرحها بالكلمة التركية الوافدة مع الجيوش العثمانية وهى كلمة طوخ فيقول « نصب جاليش شريف باشا المعبر عنه بالطوخ عند بيته بالأزبكية » ٢٤٦ر٣ .

وكان الجبرتى يستعمل من المصطلح المملوكى كلمة المستوفى وهى اصطلاح قديم استعمله السلاجقة الكبار وسلاجقة الروم والإيلخانيون ثم المماليك ؛ فقد كان فى دولتهم مستوفيان : مستوفى الدولة ، ومستوفى الصحبة ، وهما منصبان كبيران للمراقبة المالية ، ولما كان العثمانيون لم يعرفوا وظيفة الاستيفاء ولا صاحبها ولم تدخل الكلمة فى معجمهم اللغوى أو الإدارى فقد استعملها الجبرتى استعمالا خاصا لم تستعمل فى مثله فى العصر المملوكى ، فجعلها بمعنى ناظر الدائرة فى لغتنا المعاصرة ، وقال : إن عائلة الشرايبى كان لها مستوف .

ويستعمل الجبرتى الكلمة المملوكية «رنك» ، وهى فارسية الأصل معناها اللون ، ولكنها لم تستعمل فى العصر المملوكى بمعناها اللغوى الأول ، وإنما استعملت بمعنى اصطلاحى خاص هو الشعار سواء كان آرما أو بنديرة أى راية ، وفى النجوم الزاهرة :

« وضرب رنكه على اصطبل شيخون بالرميلة تجاه باب السلسلة » ١٥٨ر١١ .

وفى شعر للشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة التلمسانى :

لآل رسول الله جاهٌ ورفعة
بها رفعت عنا جميع النوائب
وقد أصبحوا مثل الملوك برنكهم
إذا ما بدوا للناس تحت العصائب

نفس المصدر ١١،٥٧

نعم لقد دخلت هذه الكلمة فى اللغة التركية العثمانية ولكن بمعانيها اللغوية فقط؛ فالعثمانيون لم يقولوا للشعار العسكرى أو السياسى رنك، وإنما استعملوا للدلالة على الشعار كلمة فارسية أخرى هى النيشان؛ فنيشان الانكشارية مثلا هوشارتهم المميزة.

وقد استعمل الجبرتى الاصطلاحين المملوكى والعثمانى معاً فى مواطن كثيرة منها: « ودخلت بلوكات الينكجرية وطافوا بالأسواق ووضعوا رنكهم ونشاناتهم على القهاوى والحوانيت » ٣ر١٩٧

* * *

ولقد كان رحمه الله يحاول الرقى بأسلوبه، فينتقل من استعمال التركية العثمانية إلى استعمال المصطلح المملوكى، فهو يقول فى الجزء الأول من تاريخه ص ٦٣ « ورمحوا إلى الباب فطردوا البكجية» أى طردوا الحراس ثم نراه يترك هذه الكلمة ويستعمل بدلا منها الكلمة ذات الأصل العربى « الحرسجية »، ثم نراه يترك هذه الكلمة العربية التركية ليستعمل الاصطلاح المملوكى الفصيح (الحرسية) فيقول فى الجزء الثالث ص١١٢ « وأغلق بينه وبينهم الباب ووقف (الحرسية) أمام الباب الآخر » .

وقد كان لفظ الحرسية شائعا فى كتب العصور الوسطى. يقول خليل الظاهرى فى زبدة كشف الممالك «وعلى كل برج منه أعلام وطبلخاناه وأبواق وحرسية » ويقول المقريزى « وكلما وصلوا إلى ساحل وجدوا عليه حرسية » انظر ترجمة كاترمير :

ولقد كان الجبرتى على حبه للمصطلح المملوكى يعى كثيرا من الدخيل العثمانى ويستعمله فى تاريخه ، ولكنه لم يكن يلتزم فى بعض الكلمات برسم إملائى واحد لأنه كان يسمع هذا الدخيل صحيحا تارة، ومحرفاً تارة أخرى، فهو يقول مثلا البرشان بالراء، ثم يقول فى موضع آخر البيلشان باللام، وهما من الكلمة الفارسية المتركة بريشان بمعنى المشتت والمبعثر، وقد استعملها الترك اسما لنوع من العمائم المهلهلة الشاش المتراكبة اللفائف.

ويقول الجبرتى البيورلدى فيرسمها رسما صحيحا كأنه ينقلها من المعجم التركى ولكنه لا يلبث أن يكتبها برسم آخر هو البيوردى بحذف اللام، والبيورلدى أمر دون الفرمان.

ويقول الجبرتى : اليطقان بتقديم الطاء واليقطان بتقديم القاف والأولى أقرب إلى الأصل التركى والثانية محرفة، واليطقان خنجر يعلق أفقيا فى الوسط .

ويقول النمشاه بالألف والنمشه بغير ألف ، ولابد أن الألف فى النمشاه مملوكية الأصل ، فقد كان كتاب ذلك العصر يزيدون ألفاً قبل الهاء الأخيرة فى الكلمات الفارسية ، فقالوا فى البروانه بمعنى الوزير البارواناه ، وفى الشرابخانه الشربخاناه ، وفى النمجة النيمچاه ، وفى النجوم الزاهرة « فأوهم كرجى أنه يصلح الشمعة فرمى الفوطة على النيمچاه» ثم قال فضربه كرجى بالسيف على كتفه فطلب السلطان النيمچاه فلم يجدها ، ثم قال « وأخذ نوغيه السلاحدار النيمچاه وضرب بها رجل السلطان فقطعها ١٠٢ر٨ ، ووردت فى نفس الكتاب بغيرياء مع الإبقاء على هذه الألف الزائدة قال : « وسير بذلك أصلم الدوادار ومعه النمچاه وقال فوافاه أصلم الدوادار بالنمجاه» ٥ر٤ر٩

وهذه الصيغ كلها من الفارسية نيمچه « من نيم» أى النصف ، «وچه» علامة التصغير أى النصيف ، وهو اسم سكين قصير يستعمل فى الطعان ، ويقول الجبرتى «الفرتينه» بالياء « خرجت فرتينه بريح عاصف أظلم منها الجو » ٥٢ر١ ؛ ثم يقول فى موضع آخر « الفرتونه » بالواو « ثم خرجت فرتونه نكباء شرقية شمالية » ١٧١ر٢ :

والأصل فى الكلمتين فيرطينه بكسرتين مفخمتين سمع الجبرتى هذه الكسرة فلم يدر كسرة هى أم ضمه فكتبها بالواو مرة بالياء مروة .

وهكذا نرى أن تاريخ الجبرتى مصدر من أغنى مصادر الدخيل من ألفاظ الادارة والحضارة بلغاته ولهجاته المختلفة ، وإليكم الآن جزءاً من الدخيل من أسماء الملابس المدنية والعسكرية وما يتصل بها وأسماء الأطعمة وأنواع الحلاوى ، وقد ذكر الجبرتى بعض هذه الأسماء فى وصف المواكب والحفلات ، وبعضها فى وصف حوادث الشغب فى القاهرة ، وبعضها فى التراجم وبعضها فى أحاديثه عن الغلاء بسبب نقص قيمة العملة وارتفاع المكوس واحتكار الباشا لبعض الأصناف وعسف الملتزمين :

من اسماء الملابس ومايتصل بها

الأتك فى التركية أتك Etek ذيل الرداء ، وفى الجبرتى : وكذلك أرباب العكاكيز فيطلعون إلى القلعة ويمشون أمام الباشا من باب السراية إلى جامع الناصر ابن قلاوون ، فيصلون العيد ويرجعون كذلك ثم يقبلون أتكه ويهنئونه ٢٥٩ر١

ويقول أيضا : « وانخضع مراد بيك فى تلك الليلة للباشا جدا وقبل أتكه وركبته ويقول يا سلطانم نحن فى عرضاك » ١١٥ر٢

الألاجه تركية فى الفارسية والتركية آل ، وآلا بمعنى أحمر فاتح وبراق وجه أداه تصغير أى ضارب إلى الحمرة ، ثم أطلق على القماش يتراءى فيه أكثر من لون ، ونوع من الحرير الملون كان

يصنع فى جهات مختلفة من الأناضول والشام.

وفى الجبرتى «.. فيباع الثوب الواحد من القماش الشامى المسمى بالألاجه الذى كانت قيمته فى السابق مائتى نصف فضة بألفين فضة ١٦٧ر٤

ج : ألاجات

ونهبوا ما وجدوه من النقود وأنواع الأقمشة وأنواع الأطلس والألاجات.» ٢٣٨ر٤

الأوية : تركية من المصدر أويمق بمعنى أن يحفر وتطلق على الزخارف التى تحفر فى جدران الغرف وعلى واجهات البيوت ويطلق على صانع هذه الزخارف فى لغة الصناع فى مصر، اللفظ التركى أويمجى والأوية زخارف حريرية أو كتانية تنسجها النساء على حواشى ملابسهن ولا تطلق الأوية إلا على الطراز القديم المشغول باليد فإن كانت الزخارف الخيطية مجلوبة من أوربا فهى الدانتلة.

وفى الجبرتى : « فرأيت قماشا على هيئة الأوية على عمود. قائم وهو ملون أحمر وأبيض وأزرق على مثل دائرة الغربال» ٣٣ر٣

البنش : فى التركية بينيش من المصدر بينمك أن يركب، والبنيش فى التركية هيئة الركوب وطرازه والزى الخاص براكب الفرس ، وجبة واسعة كان العلماء يلبسونها فى بعض المواسم.

وفى الجبرتى « وطفق كلما أعطاهم شيئاً حسبه عليهم من الوصية حتى إذا أعطى البلك والبنش لنعمان بيك مثلا يعطيه له أنقص من بنش أمين بيك» ١٢٤ر٤

وفيه أيضا « ولبس خلعته وهى فروة على بنش لأنه بطوخين ١٣١ر٢

ج بنشات : يقول فى وصف موكب كسوة الكعبة الشريفة : «وأمامها الوالى والمحتسب وعليهم القفاطين والبنشات وجميع الأشاير بطبولهم وزمورهم » ١٥ر٣

الجوزة : عمامة كبيرة يلف شاشها مرتين وهى شبيهة بالجوزة « ثم نزلوا وركبوا وصحبتهم أغات النيكجرية بهيئة الموكب وعلى رأسه الجوزة الكبيرة» ١٧٥ر٤

الضلمة : فى التركية طولامه : لباس قديم يشبه الجبة كان يصنع من الجوخ ويلبسه الرجال والنساء ، مفتوح من أمام وتضم حاشيتا الفتحة فوق الصدر ، والكمان واسعان متموجان ، ونصف الضلمة الأعلى ضيق ونصفها الأسفل واسع ، والضلمة النسائيـــة تتجاوز الركبـــة قليـــلا إلى أسفل ، ولكن الضلمة التى كان يلبسها الإنكشارية والخاصكية طويلة ويشد على وسطها حزام مخطط. وكان الإنكشارية يلبسون فوقها القبوط أو معطف المطر. وفى الجبرتى « وكان مصطفى جاويش أوده باشه فلبسه جركس الضلمة » ١٤٣ر١

وفيه أيضا « طاف آلاى جاويش بالأسواق على صورة الهيئة القديمة فى المناداة على المواكب العظيمة وهو لابس الضلمة والطبق على رأسه وراكب حماراً عاليا» ١٣٥ر٤

الظلمة : الضلمة وفى الجبرتى « واتفقوا أنهم لا يرضون أفرنج أحمد باش أوده باشا ، فإما يلبس الظلمة أو يكون جربجيا فى الوجاق » ٣٨ر١

القاووق : فى التركية قاوق وقاغوق وقاووق ،ويظن أنها من الكلمة التركية قوف أو قاو بمعنى أجوف .

قلنسوة عالية يلف حولها شاش كان الترك يغطون بها رؤوسهم قبل اتخاذهم الطربوش غطاء للرأس ،وكان لكل طائفة من رجال الدولة طراز خاص من القواويق .

يقول الشيخ السقاف فى مقامة أوردها الجبرتى :

« ثم أخذت الأبريق ،وملت عن الطريق ، واستكت واغتسلت وتوضأت واكتحلت وتنحنحت وسعلت وخرجت ثم ملت إلى الصندوق وألقيت القاووق » ٣٣١ر١

ويقول الجبرتى : « وعثمان بيك ذو الفقار أصابه سيف فقطع شاشه وقاووقه» ١٥٤ر١

ج : قواويق « لبس الأمراء الكبار القواويق على رؤوسهم ٢٠٥ر٣ ومنها أن الوزير أمر المصرليه (أى المماليك) بتغيير زيهم وأن يلبسوا زى العثمانية فلبس أرباب الأقلام والأفندية والقلقات القواويق الخضر » ١٢٣ر٣

والقاووقجية : صناع القواويق وقد كانوا على وشك الانقراض فى القاهرة فى أواخر القرن الثامن عشر ، وحل محلهم الطرابيشية فى الغورية وما جاورها من الأسواق (اندريه ريمون ٢٣٦) ، وكان شيخا القاوقجية فيما بين عامى ١٦٧٩ و ١٧٠٠ انكشاريين :

وفى الجبرتى ، يصف حفل ختان أولاد البكوات بالقلعة « ودعوا فى أول يوم المشايخ والعلماء وثانى يوم أرباب السجاجيد والخرق ، ثم ذكر الصناجق والأغوات والجوربجية ثم التجار ثم القاووقجية والعقادين » ١٠٣ر١

القلبق : فى التركية قلبق وقلباق بالباء المشربة ، غطاء رأس من الوبر مدبب أو أسطوانى ، دخلت هذه الكلمة فى اللغة الفارسية بلفظها ومعناها ودخلت أيضا فى اللغة الفرنسية بصيغة Colbac :

كان القلبق غطاء رأس للجركس وللتتر خاصة ،وكذلك لبسه اليونان والأرمن، وتطلق كلمة قره قلبق أى أصحاب القلابق السود على عشيرة من عشائر تركمان خوارزم.

وفى الجبرتى «وقد كان طلب منه معجونا للباءة فوضع له السم فى المعجون وأحضره له فأمره أن يأكل منه أولا فتلكأ واعتذر فأمر بقتله، وكان عبدالله الحكيم هذا نصرانيا روميًا يلبس على رأسه قلبق سمور » ٢٥٨ر١

القنطش : فى التركية قونتوش Kontos وقونطايش ، وربما قالوا قونتوز مجرية كما يقرر باك آلين وهى اسم لكرك خاص من الجوخ أو السمور أو السنجاب أو القاقم، ضيق الأكمام مطرز الحواشى يلبسه كبار رجال الدولة ، ويذكر باربييه دومينار أنه كان زى خان التتار وكبار رجال دولته

وقال فانيان : إن القنطش نوع من الدرع :

ج : قناطيش :

وفى الجبرتى « اتخذ الباشا عسكرا من طائفة التكرور الذين يأتون إلى مصر بقصد الحج ، فعرضهم واختار منهم جملة ، وطلبوا الخياطين ففصلوا لهم قناطيش قصاراً من جوخ أحمر ، وألبسة من جوخ أزرق ، وصدريات ، وجميعها ضيقة مقمطة مثل ملابس الفرنسيس وعلى رؤوسهم طراطير » ٢٣٤ر٣

الييلك : من الكلمة التركية يل بمعنى الريح ولك أداة نسبة فالييلك هو الهوائى أو الريحى وهو لباس بلا أكمام يلبس على الصدر فيدفع عنه الهواء فهو الصدار :

وفى الجبرتى « كان الأمير ذو الفقار بيك أميراً جليلاً شجاعاً بطلاً مهيباً كريم الأخلاق مع قلة إيراده وعدم ظلمه وكان يرسل الييلكات والكساوى فى شهر رمضان لجميع الأمراء والأعيان والوجاقات » ١٤٦ر١

التطلى : من التركية طاتلى الحلو اللذيذ، ثم صارت اسماً لما يختم به الأكل من حلو الطعام كالمهلبية وغيرها وفى الجبرتى :

« واستعد فراشو الباشا بالتطلى والقهوة والشربات ١,٢٥٩ » :

الرشال : فى الفارسية رجال بكسر الراء الحلوى ، وفى التركية رجل بفتح الراء الفاكهة المطبوخة المسكرة :

وفى الجبرتى :

« وكسروا أوانى الحلاوى وقدور المربيات وفيها ما هو من الصينى والبباغورى والأفرنجى ومجامع الأشربة وأقراص الحلوى الملونة والرشال والملبس والفانيد »٢٣٨ - ٤ :

الزرده : فى الفارسية زرده طعام من أرز وعسل وزعفران ، دخلت التركية بلفظها ومعناها قال سامى بك : وجرت العادة على أن تؤكل بالأرز فى الأفراح :

وفى الجبرتى « ... ولهم عادات وصدقات فى أيام المواسم مثل أيام أول رجب والمعراج ونصف شعبان وليـالى رمضان والأعياد وعاشوراء والمولد الشريف يطبخون فيها الأرز باللبن والزرده ، ويملأون من ذلك قصاعاً كبيرة » ١,٢٠٨ :

الشريك : فى التركية چورك بالجيم المشربة وضمة مبسوطة مرققة Côrek المدور والقرص أو القرصة : خبز ناعم مدور يلت

بقليل من السمن أو الزيت وكثيراً ما توضع به الحبة السوداء حتى لتسمى هذه الحبة فى اللغة التركية (جورك أوتى) أى نبتة الشريك .

وفى الجبرتى : « وكسد فى هذا العيد سوق الخياطين وما أشبههم من لوازم الأعياد ولم يعمل فيه كعك ولا شريك ولا سمك مملح » ٤,٢٤٣ .

وفيه أيضاً « واتخذت مسكناً ملاصقاً لقبره أقامت به نحو الثلاثين سنة مع دوام عمل الشريك والكعك بالعجمية والسكر وطبخ الأطعمة للمقرئين » ٤,٢٥٨ .

الخشكار : من الفارسية خشك بمعنى جاف وخشن وآرد بمعنى الدقيق وقد سقطت دال كلمة آرد فى الكلمة الفارسية نفسها فالخشكار فى الفارسية هو الدقيق الخشن لم تفصل نخالته قال بديع الزمان الهمذانى : « ومنهم من يحتمل الود أيام خشكاره حتى إذا أيسر جعل ميزانه وكيله وأسنانه أكيله وأليفه رغيفه. الرسائل ص ٦٧ » .

ونقل أبو شامة فى الروضتين : « كان الإمام كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن ابن محمد بن أبى السعادات الأنبارى النحوى . يفطر على الخبز الخشكار ويبتاع برغيف أرزاً وماشاً » ٢,٢٧ .

وفى صبح الأعشى : ومن ركن فى أمرها إلى الإخلاد والإخلال، وسكن إلى الإهمال، ولم يرض بأن راية الذلة الصفراء على رأسه تشال فأوسعه إنكاراً وألزمه منها شعاراً وإن قام بحضره منهم معشر خشن فأرهم به العلامة خشكارا » ١١,٣٨٨ » .

والعلامة اسم للدقيق الناعم النقى المنخول مرات وهو خلاف الخشكار .

وفى الجبرتى : «والعيش العلامة خمسة أواق بجديدين والكشكبان ستة أواق بجديدين » ١,١٠٦,١٠٧

الكشكبان : نوع من الجبن الرومى كان يعرف فى التركية باسم : قاشقاوال قال كاظم قدرى هو من الإيطالية Cacio Cavallo وكاشيو أى الجبن وكافالو أى الحصان فالكشكبان جبن من لبن الخيل .

ويقرر المعجم الطليانى أن الـ Caciocavallo جبن يؤكل فى جنوب إيطاليا .

وفى الجبرتى : « والجبن الكشكبان بثلاثة أنصاف فضة ١٠٦ - ١ » .

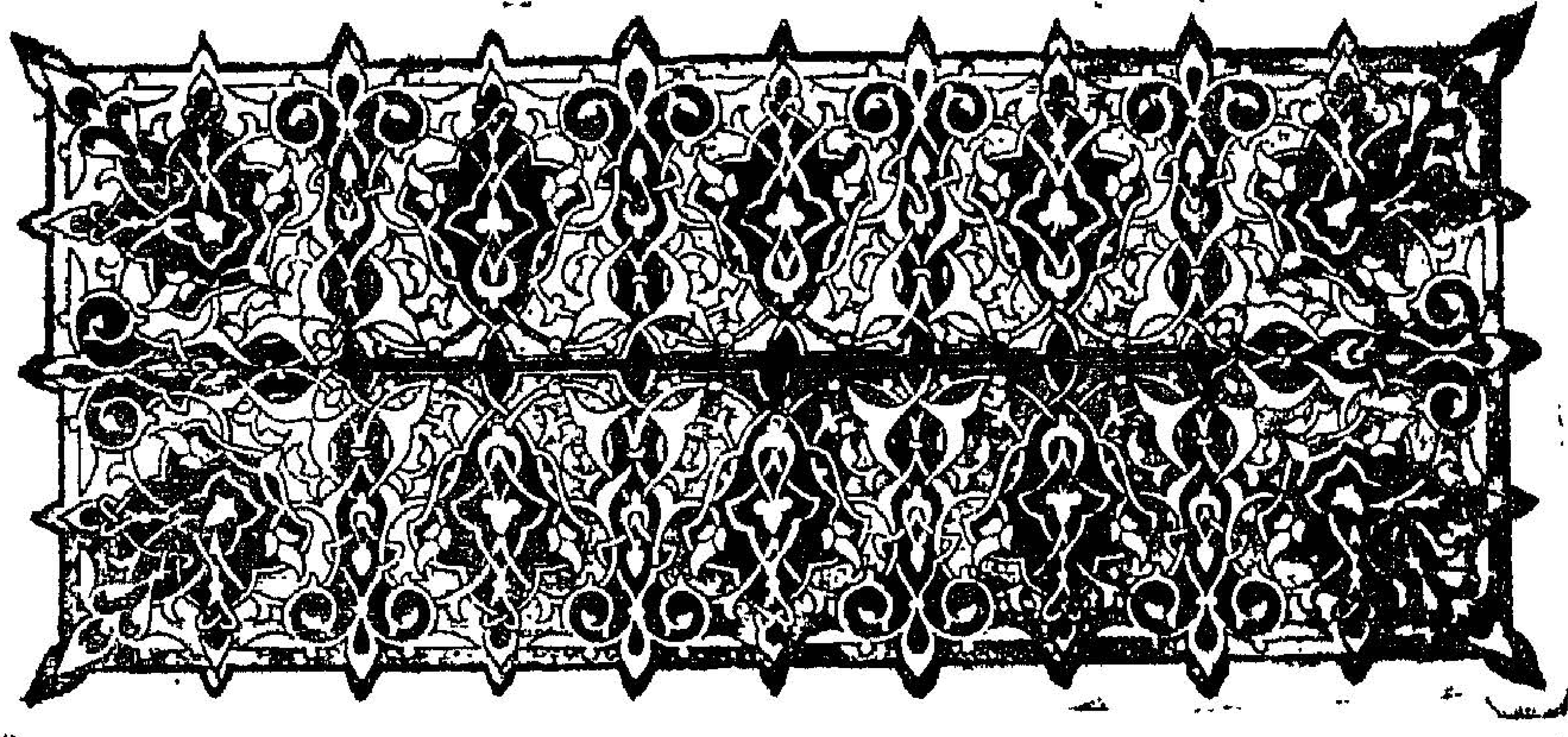
اليميش : من التركية يمش ويميش ثمر الشجر من كل مايؤكل من فاكهة وغيرها، وإذا كانت الكلمة مشتقة من المصدر التركى ييمك بمعنى أن يأكل فاليمش هو الأكل بضمتين فى العربية، فالأكل من أكل واليميش من المصدر نفسه بالتركية وكلاهما بمعنى الثمر .

وفى الجبرتى : وصل إلى ساحل بولاق عدة مراكب بها بضائع رومية ويميش.

وفيه أيضاً : « وأما الزبيب والتين واللوز والبندق والجوز والأشياء التى يقال لها اليميش التى تجلب من بلاد الروم فبلغت الغاية فى الثمن » ٤،٢٤٦ .

رحم الله الجبرتى ، فقد حدثنا حديث صدق عن تاريخ مصر فى الفترة من سنة ثمان وثمانين وستمائة وألف إلى سنة إحدى وعشرين وثمانمائة وألف ، وكان كما قال فى مقدمة كتابه « . . ولم أقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين الأخلاق لميل نفسى أو غرض جسمانى . . » .

أحمد السعيد سليمان
عضو المجمع



يزيد بن محمد المهلبي

للدكتور الشيخ محمد رفعت فتح الله

أبو خالد

يزيد بن محمد المهلبي أديب شاعر قديم كمعاصر، ظهر أدبه وشعره في القرن الثالث الهجري، حين كانت الخلافة العباسية — بألوان مدنيتها وثقافتها — أظهر ما سطعت عليه الشمس حينئذ.

واجهني وجه أدبه وشعره في كتبنا الكبرى القديمة، فأردت أن أطلع على ترجمة له موفية أو تقارب الإيفاء، وبحثت فأطلت البحث، ولكني لم أقف إلا على أطلال ترجمة في تاريخ بغداد، وفهرست ابن النديم، ولآلي البكري، والوافي بالوفيات، وشرح أبيات المغني لصاحب خزانة الأدب. جاء فيها أنه يزيد بن محمد بن المهلب بن المغيرة بن حرب بن محمد بن المهلب بن أبي صفرة، وأنه بصري قدم بغداد، وكان أديبا شاعرا محسنا، وقد أسند الحديث عن عبيد الله بن عبد المجيد وغيره، وحدث عنه أبو بكر بن أبي داود السجستاني، ومحمد بن عبد الملك التاريخي، وأنه نديم لمتوكل، وقد توفي في حدود الستين والمائتين:

ولعلنا إذا نظمنا ما تناثر حول يزيد ابن محمد المهلبي مع جلائه بشيء من سوانح الفكر وصلنا إلى صورة مستبينة لهذا الأديب الشاعر.

إن يزيد بن محمد من آل المهلب، «وهم أهل بيت كبير اجتمع فيه خلق كثير من الأعيان والأمجاد النجباء» وكان أبوه محمد يتولى نواحي نهر تيرى، فنشأ يزيد نشأة كريمة، واستقى العلم والأدب من المناهل الطيبة، وصار «له من الكتب كتاب المهلب وأخباره وأخبار ولده»:

وقد مدح كثير من الشعراء بني المهلب كقول الفرزدق — حين ولى يزيد الأكبر أمر خراسان والعراق بعد أبيه المهلب —:

فلأمدحنّ بني المهلّب مِدحة
غرّاءَ قاهرة على الأشعار

... الخ:

وكقول ربيعة بن ثابت الأسدي، وهو يمدح يزيد الكبير بن حاتم بن قبيصة بن المهلب والي مصر وأفريقية

ألا إنما آل المهلب غُرَّةٌ ..... الخ:

(*) انظر التعقيبات على البحث في محاضر جلسات مؤتمر الدورة السادسة والأربعين (جلسة الأحد ١٣ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٠ هـ، الموافق ٣٠ من مارس سنة ١٩٨٠ م)

وقد أثّرت فى نفس يزيد نشأتُه المهلبية العالية ، فصار يحفظ كرامته ويرفع رأسه بانتسابه ، وإن كان مادحا آخذا للجوائز ، فقال فى مدحه إسحاق بن إبراهيم :

إن أكن مهدياً لك الشعر إنى
لا بنُ بيت تُهدى له الأشعار

وقال فى مدحه الوزير سليمان بن وهْبٍ :

وكم ملحفٍ قد نال مارام منكمو
ويمنعنا من مثل ذلك التجمّلُ

وعَوّدتمُونا — قبل أن نسأل — الغنى
ولابذْلَ للمعروف والوجه يُبذَلُ

ثم إن يزيد بن محمد قد عنى بالأدب والشعر عناية عظيمة مما أعده لمجالسة الرواة والأدباء والشعراء ومنادمة الخلفاء والوزراء إعداداً موفورا، وكان هؤلاء يحبون الشعر والاستشهاد به والنقد الأدبى وحسن المحادثة وحذق المجالسة .

وصار يزيد محدثاً فطناً لبقاً ، يعرف مواقع الكلم ومزالق القدم ، ويعلم كثيراً من أخبار القصور والولاة والشعراء والمغنين ، وهو خبير بأسلوب التحديث فى حياة الأدب وأدب الحياة ، حتى إننا نحس أنه لا يبعد عن أسلوب الحديث أو المقال الجارى عندنا فى صحيفة أو إذاعة .

وكان يزيد صاحب مجلس أدبي فى (سر من رأى) وهي (سامراء) مدينة المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر ، فيجتمع فى مجلسه الأدباء والشعراء ، وهو يسمع ويقول ويبدي رأيه ويكتب ما يستحسنه .

قال أحمد بن على الأنبارى : كنا فى مجلس يزيد بن محمد المهلبى (سر من رأى) ، فجرى ذكر أبى العبر الشاعر ، فجعلوا يذكرون حماقاته ، فقلت ليزيد : كيف كان عندك فقد رأيته ؟ فقال : ما كان والله إلا أديباً فاضلا ، ولكنه رأى الحماقة أنفق وأنفع له ، فتحامق ، فقلت له : أنشدك أبياتا أنشدنيها . فقال : أنشدنيها ، فأنشدته قول أبى العبر فى قاضيين أعورين :

رأيت من العجائب قاضيين
هما أحدوثة فى الخافقين

هما اقتسما العمى نصفين قدّاً
كما اقتسما قضاء الجانبين

. . . الخ ، فجعل يضحك . ثم كتب الأبيات .

وسأله ابنه أحمد — وكان راوية له — عن (دنيا) التى ذكرها أبو عيينة بن محمد ابن أبى عيينة فى شعره ؟ وقال : إن قوما يقولون إنها كانت أمة لبعض مغنى البصرة ؟ فقال يزيد : لا يابنى ، كان أبو عيينة يكنى بـ(دنيا) عن (فاطمة بنت عمر بن حفص) صاحبته ، لا أنه كان يهوى جاريتها (دنيا) ، ثم أنشد يزيد شعراً لأبى عيينة فى تصديق ذلك .

وقال يزيد : كان أبو نواس صادقا فى حبه (جنان) من بين من كان يشبب به

من النساء ويداعبه ، ورأيت أصحابنا جميعا يصححون ذلك عنه، فكان لها محبا، ولم تكن تحبه حتى استمالها بصحة حبه لها فصارت تحبه .

وقد نادم يزيد بن محمد الخليفة الواثق : قال يزيد : خرجنا مع الواثق إلى القاطول للصيد ، ومعنا جماعة الجلساء والمغنين ، فتصيدنا على القاطول . . . الخ . والقاطول : نهر حفره الرشيد عند موضع (سر من رأى) .

وقال أيضا : كنا عند الواثق فغنته (شجا) . . . إلخ .

وقال أيضا : كان الواثق قد غضب على (فريدة) لكلام أخفته ، فعرفنا ذلك ، فغناه عبد الله بن العباس الربيعى المغنى شعراً للأحوص يناسب ذلك ، فاستعاده الواثق مراراً وأعجب به .

ونادم يزيد المنتصر ، وهو ولى للعهد حين كان أبوه المتوكل خليفة، وأعجب به المنتصر وأحبه ، ولكن المتوكل دخل على ابنه المنتصر دخلة على حين غفلة ، فسمع كلام يزيد ، واستحسنه فأخذ يزيد ليستخلصه لنفسه ، وجعله من ندمائه المقربين . وكان (المنتصر) يريد من يزيد أن يلازمه كما كان ، فلم يقدر يزيد على ذلك ، لملازمته الأب (المتوكل) ، فعتب عليه لتأخره عنه على ثقة بمودة وأنس به . . .

فلما أفضت الخلافة إلى (المنتصر) وجاءه يزيد المهلبى حجبه قليلا ، ثم أذن له ، وقال للمغنى (بنان بن عمرو) : غن ، فغنى بهذا البيت :

غدرتَ ولم أغدرِ ، وخُنتَ ولم أخن
ورُمتَ بديلاً لىِ ولم أتبدّلِ

فعلم يزيد أن (المنتصر) قائل هذا البيت وهو يعنيه بقوله، فقام فقال : والله ما اخترت خدمة غيرك ولا صرت إليها إلا بعد إذنك ، فقال : صدقت أترانى أتجاوز بك حكم الله عز وجل إذ يقول : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم ، وكان الله غفوراً رحيما » . ثم أنشاه يزيد قصيدته التى قال فيها :

جفانى سيد قد كان بَرّا
ولم أذنب ، فما هذا الجفاء ؟

فوصله (المنتصر) بثلاثة آلاف دينار .

ولما استوزر (المهتدى) (سليمان بن وهب) رأى يزيد المهلبى أن يمدح (سليمان) وآل وهب بقصيدة ، فجاءه ، فأجلسه الوزير إلى جانبه وهو ينشد قوله :

وهبتم لنا يا آلَ وهب مودّةً
فأبقت لنا جاها ومجدا يؤثَّلُ

فقطع عليه الوزير الإنشاد، وقال له : فأنت والله عندى كما قال عمارة بن عقيل لابنه :

أقُبِّهقه مسروراً إذا أبت سالما
وأبكى من الإشفاق حين تغيب

وتابع يزيد إنشاده لقصيدة المدح حتى تممها، فقال له سليمان بن وهب : لا تبرح والله إلا بقضاء حوائجك كائنة ما كانت ..... »

استطاع يزيد بن محمد المهلبى أن ينفع — بمنادمته ومجالسته — بعض أصحابه الذين يرى فيهم البراعة :

فإن يزيد هو الذى ذكر أبا العباس المبرد للمتوكل والفتح حتى وصل هذا العالم إليهما :

قال أبو بكر الزبيدى : كان سبب حمل المبرد من البصرة إلى (سرمن رأى) أن المتوكل قرأ يوما — وبحضرته الفتح بن خاقان « وما يشعركم أنها إذا جاءت » (بفتح همزة أنها) فقال له الفتح : ياسيدى « إنها » بالكسر ، ووقعت المشاجرة ، فتبايعا على عشرة آلاف دينار ، وتحاكما إلى يزيد ابن محمد المهلبى — وكان صديقا للمبرد — فخاف يزيد أن يسخط أحدهما فقال : ما أعرف الفرق بينهما ، قال المتوكل : فليس ههنا من يُسأل عن هذا ، فقال يزيد : ما أعرف أحدا يتقدم فتى البصرة يعرف (المبرد) ، فقال المتوكل : ينبغى أن يشخص مكرّما . وإن يزيد هو الذى أحسن تقدير البحترى أمام الفتح بن خاقان حتى دعا الفتح ببدرة ، وقال اقتسماها بينكما إلى أن أكلم أمير المؤمنين ، فلما خرجا من عند الفتح قال البحترى ليزيد أحسن الله عنى جزاءك ياأخى وابن عمى !

ولما أنشد البحترى الخليفة المتوكل قصيدته : « عن أى ثغر تبتسم ؟ » وصار يختال ويعجب بما يأتى ، غمز المتوكل أبا العنبس فأنشد أبيات سوء بتغيير الألفاظ من قصيدة البحترى ، فولى البحترى من المجلس مغضباً ، وخطر له أن يخرج إلى بلد آخر ، ولكنه ذهب إلى يزيد المهلبى وقال له : أنت عشير وابن عم وصديق ، وقد رأيت ما جرى علىّ ، فهدأه يزيد ، وذهب به إلى الفتح ليتم تهدئته :

وكان يزيد بن محمد المهلبى يحب الشعر المطبوع السهل المذهب القريب إلى النفس وإحساسها ، لذلك قال فى نقده لشعر المنتصر : كان طبع المنتصر متخلفاً فى قول الشعر ، وكان متقدماً فى كل شىء غيره ، وكان حسن العلم بالغناء ، فلما ولى الخلافة قطع ذلك . . . وقد استحسن يزيد من شعر المنتصر قوله :

متى ترفع الأيام من قد وضعته
وينقـــاد لى دهر علىّ جموح ؟
أعالِ نفسى بالرجاء وإننى
لأغدو على ما ساءنى وأروح

فإن هذا الشعر يصور ما عند المنتصر — بعد ماغاضبه أبوه الخليفة — من ألم النفس الجريح ، وهزتها بجموح الزمن الجَمُوح !

وإن شاعرنا يزيد كان ذا شعر مطبوع ؛ سهل المتناول ، قريب إلى النفس وإحساسها ، يجرى فيه ماء المجتمع وتظهر عليه صوره :

وقد مضت الإشارة إلى المدح فى شعر يزيد ، وأما الهجاء فقليل فى شعره ، وأظهره

ما كان من مهاجاته لعبد الصمد بن المعذل الشاعر الهجاء، فقال يزيد قصيدة ذكر فيها أحداث شؤم صورها ونسبها إلى عبد الصمد، ثم قال :

ولم ينزل بـدار ثم تمسى
ولمـا يستمع لطم الخـدود
وكل مـديح قـوم قال فيهم
فإن وراءه « يا عين جودى »
إذا رجل تسمع منه مـدحـاً
تنسم منه رائحـة الصعيد

فألصق يزيد صور الشؤم بعبد الصمد حتى اشتهر بالشؤم اشتهاراً أليماً .

ثم نقدم ألواناً من شعر يزيد بن محمد :
قال في ذم كأس النبيذ :

لعمرك ما يحصى على الكأس شرها
وإن كان فيهـا لذة ورخـاء
مراراً تريك الغى رشداً ، وتارة
تخيـل أن المحسنين أساءوا
وأن الصديق الماحض الود مبغض
وأن مـديح المـادحين هجـاء
وجربت إخـوان النبيـذ فقلما
يدوم لإخـوان النبيذ إخـاء

وقال :

وخل لنا كنا قـديمـاً نصاحبه
تأمر فاعتاصت علينا مـذاهبه
إذا نحن غبنا عنه لم يهجر ذكرنا
وإن نحن جئنا صدنا عنه حاجبه
وما أشكل إلا حسن ظن بصاحب
خذول إذا ما الدهر نابت نوائبه
فاجرر أخاك الحبل واترك جذابه
فإنك إن جاذبته الحبل قاضبه
فإن المديف الجـون يخلف برقه
وإن الحسام العضب تنبو مضاربه
ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها
كفى المرء نبلاً أن تعـد معايبه

* * *

وقال :

لا تخافى إن غبت أن تتناسا
ك ، ولا إن وصلتنا أن نملا
إن تغيبي عنا فسقياً ورعيا
أو تحلى فينا فأهلاً وسهلا

ومن أشد مواقف يزيد على نفسه وأهزها لشعوره وأبعثها لشعره موقفه ليلة قتل الخليفة جعفر المتوكل فى قصره (الجعفرى) فقد كان يزيد والبحترى حاضرين مجالسين للمتوكل ووزيره الفتح ، فدخل الأتراك عليه دخلة الهجوم ليقتلوه ، وشاهد الشاعران هذا المشهد المرعب ، وسارع كلاهما إلى مختبأ قريب يختبىء فيه .

قال الحصرى فى زهر الآداب :
وقد رثاه البحترى ويزيد المهلبى بمرثيتين من أجود ما قيل فى معناهما .

قال البحترى :

تغير حسن (الجعفرىّ) وأنسه
وقوض بادى (الجعفرى) وحاضره
تحمــل عنه ساكنــوه فُجاءةً
فاضــت سواءً دورُه ومقابره

. . . . إلخ .

وقال يزيد بن محمد المهلبى قصيدة أولها :

لا وجــد إلاّ أراه دون ما أجد
ولا كمن فقدت عينــاى مفتقَدُ

وذكر فيها مقتل الخليفة وموعظته والأسف عليه فقال :

ولاّ يبْعــدَن هالك كانت منيته
كما هوى من غطاء الزُبية الأسدُ
جاءت منيته والعين هاجعة
هلاّ أتته المنايا والقنا قِصدُ
فخرّ فوق شرير المُلك منجدلا
لم يحمه ملكه لما انقضى الأمدُ
ضجّت نساؤك بعد العز حين رأت
خدا كريماً عليه قارت جسد
إذا بُكيتَ فإن الدمع منهمك
وإن رثيت فإن الشعر مطرد
أضحى شيد بنى العباس موعظة
لكل ذى عزة فى رأسه صَيَدُ
خليفــة لم ينل ما ناله أحــد
ولم يُضَع مثله روحٌ ولا جسد

وقال عارضا حقارة القاتل وعظامة المقتول وفجيعة الحزنان وسمود المدهوش واضطراب الناس :

علتك أسياف من لا دونه أحد
وليس فوقك إلاّ الواحد الصمد
جاءوا عظيما لدنيا يسعدون بها
فقد شقوا بالذى جاءوا وما سعِدوا
قد كان أنصاره يحمون حوزته
وللردى دون أرصاد الفتى رصدُ
إنا فقدناك حتى لااصطبار لنا
ومات قبلك أقوام فما فقدوا
قد كنتُ أسرف فى مالى فتخلفُه
وعلمتنى الليالى كيف أقتصدُ
لو أن سيفى وعقلى حاضران له
أبليته الجهد إذ لم يُبله أحدُ
قد وُتر الناس طرا ثم قد صمتوا
حتى كأن الذى نيلوا به رشد
وأصبح الناس فوْضَى يعجبون له
ليثا صريعا تنزّى حوله النّقدُ
لا يدفع الناس ضيما بعد ليلتهم
إذ لا تُهَزُّ إلى الجانى عليك يدُ

ثم التفت يزيد المهلبى — فى هذه القصيدة — بشعوره وشعره إلى المعنى الاجتماعى المنتصب

في اعتماد الخلفاء العباسيين للموالي الأتراك، والاعتماد عليهم ، وترك الاعتماد على العرب الأحرار ، فقال :

لما اعتمدتم أناساً لاحفاظ لهم
ضعتم وضيعتمو من كان يعتمد

ولو جعلتم على الأحرار نعمتكم
حمتكم الذادة المنسوبة الحشدُ

من الألى وهبوا للمجد أنفسهم
فلا يبالون ما نالوا إذا حُمدوا

قوم هم الأصل والأسماء تجمعكم
والدين والمجد والأرحام والبلدُ

محمد رفعت فتح الله
عضو المجمع



الأداء واللغة
في شعر بدر شاكر السياب

للدكتور إبراهيم السامرائي

لقد قيل في المتنبي شاعر العربية الكبير: لقد ملأ الدنيا وشغل الناس ولعل شيئا من هذا يصدق في صاحبنا بدر السياب، ولكن هل كان حقا أن ينال هذا السياب هذه المكانة، وهل كان له من الشاعرية الفذة مادعا إلى أن يشيع اسمه فيعرفه القريب والبعيد، ويكتب عنه هنا وهناك في بلاد الدنيا؟

لقد كتب كثير من الدارسين عربا وأعاجم في شاعرية السياب وخصائصه الفنية التي عدت خصائصه للأدب العربي الجديد أو كل المعاصر، وقد ذهبوا إلى أنه فتح أبوابا عريضة للمتأدبين شعراء ومتشاعرين.

لقد ذهبوا إلى أن هذا الأدب الجديد شيء من الفكر العالمي ولاسيما الغربي أفاد منه الفكر العربي المعاصر فكان مادة الأدب الجديد:

ولا أريد أن أشارك في هذه الحماسة التي تفتقر إلى شيء من العقلانية فأكتب في هذا الأدب. غير أني معنى بلغة هذا الأدب الجديد عنايتي بالعربية الفصيحة وتاريخها وتطورها وماأفادته من عصرنا الحاضر ومانالها منه في الوقت نفسه. وقد قصرت بحثي على المادة اللغوية في أدب هذا السياب:

أقول: لقد قال النقاد القدامى في أبي تمام إنه خرج على عمود الشعر[1] لأنه جاء بجديد لاعهد للعربية به نحو «ماء الملام» في قوله:

لاتسقني ماء الملام فإنني
صب قد استعذبت ماء بكائي

---

(١) لقد أسيء استعمال مصطلح «عمود الشعر» في عصرنا هذا فكان «الشعر العمودي». وهذا المصطلح الجديد يعني في استعمال المعاصرين الجدد من الشباب وغيرهم الشعر الذي يخضع للوزن الواحد والقافية الموحدة وهذا يعني أن هذا الضرب من الشعر أي القصيدة في شكلها المعروف في التزام الوزن والقافية الموحدة تقابل الشعر الجديد الذي أسموه «الشعر الحر».

قلت: لقد أسيء استعمال «العمود» وهو المصطلح القديم الذي أريد به في اصطلاح النقاد القدامى الحفاظ على اللغة في معانيها واستعمالها ومجازاتها وأقيستها. ومن أجل هذا قالوا بخروج أبي تمام وآخرين على هذا «العمود» لأنهم أتوا باستعمالات لم تعرف في العربية قبل تلك الحقبة.

وقوله :

يادهر قَوِّمْ من أخدعيك فقد
أضججت هذا الأنام من خرقك

وقوله :

ألا ، لايمدّ الدهر كفّا لسيّء
إلى مجتوى نصر فتقطع من الزند
. . .

وقوله :

رقيق حواشي الحلم لو أنّ حلمه
بكفّيك ما ماريت في أنّه برد

ولقد عابوا على أبي الطيب المتنبي كثيرا من شعره وتنقصوه كما عابوا شعر طائفة أخرى من المحدثين أو المولدين : وظلت حال النقد اللغوى على هذا النحو حتى جاء العصر الحديث ، فظهر هنا وهناك أدب جديد .وقد وجد النقاد في شيء من هذا الأدب خروجا عما ألف الناس في استعمالهم الأدبي . لقد وجدوا في أدب المهاجرين من العرب إلى الديار الأمريكية نمطاً جديدا يشذ عما درج عليه الأدباء في أساليب العربية الفصيحة : فمن ذلك مثلا أنهم وجدوا أن « جبران » من أدباء المهجر الأوائل كتب في أحد مصنفاته :

«حبلت رءوس الأفاعي » :

فقال النقاد كيف يكون ذلك وكيف جاز « للرؤس الحبل» وهل «الحبل» جائز في الأفاعي ؟

أقول : إذا كنا قد أخذنا على جبران وغيره من أدباء المهجر تجاوزهم على العربية في معانيها ومجازاتها فماذا نقول في لغة الشعراء الجدد المعاصرين ؟

لقد كان لي أن استقريت ثلاث مجموعات في شعر السياب هي على النحو الآتي :

١ – المعبد الغريق (دار العلم للملايين – بيروت ١٩٦٢) :

٢ – منزل الأقنان (دار العلم للملايين– بيروت ١٩٦٣) :

٣ – شناشيل ابنة الجلبي (في منشورات وزارة الثقافة والإعلام في بغداد ١٩٦٥) :

إن شعر السياب في هذه المجموعات الثلاث وفي غيرها مما لم يشمله استقرائي مثل « أنشودة المطر » نمط جديد دعي « الشعر الحر » من حيث عدم التزامه بوزن واحد وقافية واحدة .وإذا جاز لي توسعا أن أسمى أي موضوع من موضوعات هذه المجموعات « قصيدة» لزمني أن أقول: إن هذه القصيدة تجري في عدة من أوصالها ، ولاأقول أبياتها على نغم أو وزن أو بحر من بحور الشعر المعروفة، غير أن السياب يبدأ « موضوعه » على وزن من أوزان الشعر المعروفة حتى إذا مضى في ترنيمة لاتتجاوز أبياتا أربعة أو خمسة انبرى إلى شيء يبتعد عن هذا النغم الموزون ، فقد يكون وزناً آخر وقد لايكون شيئاً في وزن ، بل قد يكون نثراً بارداً ، فكأنه حين ينتقل هذه

الانتقالة المحيرة ، يُنشط في عقال مايعتلج في نفسه في المضي على الوزن مخافة أن يقال له : وقع في أسر « الشعر العمودي » . وإني لأستميح سامعي أو قارئي من أهل العلم عذرا أن استعمل هذا المصطلح الذي بني على الخطأ والوهم :

ولنسمع شيئا من هذا النمط الذي يتقلب فيه السياب فيأتي بأمشاج من أوزان مستقيمة ومتجانفة :

يقول في إحدى قصائده الجديدة أسماها « وصية من محتضر »[1] :

ياصمتُ ، ياصمتَ المقابر في شوارعها الحزينة ،
أعوي ، أصيح في لهَفَ فأسمع في السكينه
ماتنثر الظلماء في ثلج وقار
تصدى عليه خطىً وحيدات ويتنلع المدينه
أصداءهن ، كأنَّ وحشاً من جديد من حجار
أين العراق ؟ واين شمس ضحاه تحملها سفينه
في ماء دجلة أو بُوَيب[2] ؟ واين أصداء الغناء
خفقت أجنحة الحمام على السنابل والنخيل
من كل بيتٍ في العراء ؟

في هذه المقطوعة نغم من مجزوء الكامل يسري في بيتين كاملين يخلفهما شطر أو شيء من شطر ليس من بابته : ثم يعود إلى هذا الضرب من « الكامل » في خمسة أبيات ذيلت بشيء آخر يند عن وزنها . ومثل هذا كثير في شعر السياب وغير السياب من الشعراء الجدد أصحاب هذا الضرب المدعو بـ « الشعر الحر » :

وكأن هؤلاء أرادوا أن تكون هذه المسألة في النيل من الأوزان المعروفة ، سمة من سماتهم ، فإن لم تكن هذه سمة لهم فكيف نفهم أن شيئا من المتدارك في قول السياب يسلمك إلى ضرب من النثر أو شيء منه :

ظلاً يتماوج كالجرس
يادربا يصعد للربّ
لولاك لما ضحكت للأنسام القرية
في الريح عبيرا

من طوق النهر يهدهدنا : : : ويغنينا

وأنت واجد مثل هذا العداء إلى القافية حينما تهيأت له قافية طيعة مواتية في جملة أبيات تعاصى عليها فانتقض إلى قافية أخرى ، أو شيئا آخر ليس بقافية ، وذلك لأن الشاعر الجديد ينحدر من نغم موزون إلى نثر لاتلمح فيه وزنا أو تناسبا بين فقرة . .

(١) من مجموعته « منزل الأقنان » .

(٢) بويب اسم نهير صغير في أقصى جنوبي العراق .

وكأن هؤلاء الشبان قد تكلفوا هذا الضرب فى الالتزام وراضوا أنفسهم على خلاف من طبعهم ؛ ذلك أنك تجد منهم ولاسيما السياب من يسمح لطبعه أن يتغلب على هذه الرياضة العنيفة ، فهو يستمرىء القافية وينساق معها انسياقا يشف عن استجابة لطبع أصيل : إنه مثلا يتخذ من كلمة « درم »[1] وهى المدينة التى أقام فيها السياب حقبة ، مادة منحته « الميم الساكنة » التى جعلها قافية والتزمها فى قصيدة كاملة لولا أنه يعاف هذه القافية على طريقته فيأتى بأشياء أخرى فى أشطار شبه موزونة وأخرى هى النثر الصريح .

يقول فى « دَرَمْ » :

دَرَمْ : : : : :
بنفسى مما عزانى بَرَمْ
فمدى ذراعيك ولتحضنينى
إلى هوة من ظلام العدم
فما قيمة العمر أقضيه أمشى
بمكارة فى دروب الهَرَمْ
أهذا شبابى ؟ وأين الشباب
ألا حبه ، لا زهو ، لاعنفوان ؟
أهذا مشيبى ؟ حصدت السراب
إذا كان معنى المشيب الهوان
أعقبى المشيب الأسى والندم
أما من شبابى الذى مر ذكرى ؟
أما منه مال وبقيا تُشَمّ
أكان الذى خلفت شعرا
وبيتا وراء الرياح انهدَمْ
دَرَمْ . . . .
تمنيت لومت بين الثلوج
على جدول جمَّدته النسيم
: : : : : : : : : : : : : : :
: : : : : : : : : : : : : : :

ثم ماذا فى هذا اللون من الأدب الجديد ؟ إنه حافل بشخوص غير عربية لايعرفها إلا الخاصة من الدارسين العرب . إنها شخوص إغريقية تارة تجدها فى الإلياذة والأوديسا وغيرهما من هذا الأدب القديم ، وهى شخوص رومانية نعرفها فى الأدب الرومانى فى أساطيره وحكاياته ، وهى تارة أخرى مواد مسيحية ترمز إلى شخوص نقرؤها فى العهد الجديد ، وقد تتجاوز هذا إلى العهد القديم . إنك تجد إيزيس وسيزيس وأورفيوس ويبوروديس وبرسفون ويسوع والجليل وأيوب (إشارة إلى سفره) ، ومثل هذا كثير :

وإذا كان أدب السياب قد حفل بهذه الشخوص الغريبة فإنه حافل فى الوقت نفسه بمادة لغوية هى شخوص واضحة فى بيئته الجنوبية البصرية : وهذه الشخوص البصرية تتمثل فى النخلة وسعفها ومايتصل بها من أدب النخلة . والبيئة المصرية الجنوبية

---
(١) « درم » اسم مدينة انجليزية .

فى العراق بيئة خضرة، ومياه وفيرة تقرب من بيئة الخليج العربى ؛ فالأنهار طول الليل والنهار بين مد وجزر ، يطغى الماء فى المد ثم ثم ينحسر فى الجزر فيظهر فى الشطآن الحصى والرمل والمحار . فإذا قرأت أدب السياب أدركت أن هذا الفتى بصرى أصيل أحب بلده وتعلق به أيما تعلق ، ومن أجل ذلك حفل هذا الأدب بهذه المواد من الطبيعة البصرية : ثم إنك لتجد مواضع تلك البيئة من أعلام القرى والأنهار والحال . وقد تعجب من أن السياب يطالعك بأسماء هذه الشخوص الأعجمية مع مواد بيئته البصرية القروية ؛ فهو يقول فى مجموعته « المعبد الغريق » فى قصيدة أسماها « حدائق وفيقة » :

لم تزل تثقل « جيكور » رؤاها

آه لوروّى تخيلات الحديقة

من « بُوَيب » كركرات لو سقاها

منه ماء المد فى صبح الخريف

إن وفيقة هذه إحدى فتيات صرح السياب باسمها ، ولانعلم إن كان هذا الاسم صريحا أم مستعارا . و « جيكور » هى قريته الصغيرة فى جنوب العراق من توابع البصرة ، و « بُوَيب » هذا اسم نهير صغير فى تلك القرية ، وما أكثر النهيرات الصغيرة فى تلك الجهات ، وهى تتأثر بالمد ، الذى يعم شط العرب مبتدئا من الخليج وفى هذه «المجموعة» نفسها نقرأ فى قصيدة تتصل بـ « وفيقة » هذه موضوعها « شباك وفيقة » قوله :

(كجليل تنتظر المشية
ويسوع) وينشر ألواحه
ايكار يمسح بالشمس
ووفيقة تنظر فى أسف

؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ...

ظلا يتماوج كالجرس
ويهف كحبات النفس
والشمس تكركر فى السعف
يادربا يصعد للرب

؟ . . . . . . ؟

فى الريح عبير
« عوليس » مع الأمواج يسير

فأنت ترى «الجليل» و «يسوع» ، وهما معروفان ، استعارهما السياب من الثقافة المسيحية وشبه بهما شيئا أشار إليه فى « قصيدته » التى تتصل بإحدى الفتيات قد سماها «وفيقة» ثم تقرأ « ايكار » وهو « يمسح الشمس» إيماءة إلى أسطورة إغريقية ، ثم « عوليس » وهو بطل « الأوديسا » ثم إنك لتجد القصيدة الواحدة تجمع هذه كلها فهى مادة جنوبية قروية من ريف العراق الجنوبى تنتصب فيها هذه المواد الغريبة من الأعلام النصرانية والإغريقية والرومانية فى لوازم الأدب القديم للفكر اليونانى والرومانى .

إنه يقول فى قصيدته «أم البرُوم»(١) فى مجموعته «المعبد الغريق» :

رأيت قوافل الأحياء ترحل عن مغانيها
يقول رفيقى السكران : دعها تأكل الموتى
مدينتنا لتكبر تحضن الأحياء تسقينا
شراباً من حدائق «برسفون» تعلنا حتى
تدور جماجم الأموات من سكر مشى فينا

و «برسفون» هذه ابنة آلهة الخصب اليونانية ، اختطفها «بلوتو» سيد العالم السفلى عالم الأموات فصارت تعيش معه هناك :

وقد تعجب إذا بحثت عن شىء يتصل بالأساطير العراقية القديمة ولاسيما البابلية فلا تجد منها إلا شخوصا باهتة ، ولا أدرى أحَسِب السياب أن الشخوص غير العربية أو قل غير الشرقية مما يتصل بعوالم غير عالمنا تزكية لأدبه ، وخصيصة لابد منها لايأتلق الفكر الجديد فى أدب الشباب إلا بها ؟ أو قل كأن هذا مما يفتقر إليه أدبنا العربى ليصبح فى عداد الآداب العالمية .

قلت إن الأعلام القديمة التى كان ينبغى للسياب أن يفيد منها فى نهجه فى الإفادة من «الأسطورة العراقية البابلية أو السومرية» قليلة باهتة لاتكاد تشعر بها ، ومن هذا القليل النادر قوله فى «شباك وفيقة» :

إذا انشق عن وجهك الأسمر
كما انشق عن عشتروت المحار

و «عشتروت» فى الآلهة البابلية . وأنت ترى أن حضور هذه المواد الغريبة فى الآداب القديمة لم يكن شيئا متسما بأصالة وضرورة فنية فهو شىء لايتجاوز التشبيه العابر الذى لايضىء صورة مظلمة ولايبدع فكرة أصيلة : والمحار وهو الصدف شىء فى مادة السياب يرمى إلى تأثره ببيئته الجنوبية :

ولننتقل إلى معجم السياب فى هذه المجموعات الثلاث وغيرها لنقول : إنه معجم زهيد القيمة قليل المادة لاغناء فيه إنه طائفة من ألفاظ نجدها ونسمعها فى حديث الناس سحابة يومهم ، وإنه مما تضطرب به أقلام الكتبة فى صحف هذا العصر . وهذا شىء درج عليه السياب وغيره من هؤلاء الشبان أصحاب المذهب الجديد الذى أسموه «الشعر الحر» : وليس غريبا أن يكون معجم هؤلاء الشبان من رصيدهم اللغوى فقيراً يفتقر إلى غير قليل من هذه العربية السمحة ، ذلك لأنهم لم يطيلوا الوقوف على الأدب القديم ولم يعرفوا مادته معرفة الدارس المتبصر ، ولم يكن لهم أن

(١) «أم البروم» اسم مقبرة شهيرة فى شمالى البصرة قد أزيلت حين اتسعت رقعة المدينة فبعثرت القبور وطمست معالمها وقامت مقامها المساكن والمرافق الأخرى التى تتصل بالمدن الجديدة كالحدائق والمتنزهات .

يشقوا بمعرفة كتب العربية وما اشتملت عليه فى الأعلاق النفسية ؛

أقول : إذا كانت بضاعة هؤلاء الشبان فى المادة اللغوية على هذا النحو من الفقر فكيف يتأتى لهم أن يبلغوا فى أدبهم مكانا رفيعا وكيف يتأتى لهم أن يقيموا بناء ثابت الدعائم مستقر الأصول . لعل أحدا أن يقول : إنهم يعتمدون على الفكر الجديد المعاصر مما يبدعه الفكر الغربى ، وما أظن أن شيئا يستقيم لهم من ذلك إن لم تكن بضاعتهم اللغوية فى العربية سنية مجدية على افتراض أنهم يحذقون شيئا فى اللغات الغربية ، فإذا عرفنا أن هذا الافتراض غير متوفر ، وأن أغلب هؤلاء الشباب لايشدون شيئاً من اللغات الغربية يمكنهم من معرفة تلك الآداب أدركنا أن ليس فى طوق هؤلاء أن يجعلوا من أدبهم شيئا يحسب له الحساب فى الآداب العالمية :

وقد بلغ من فقرهم اللغوى أنهم يغيرون على الكلم العامى الدارج ، فيضمونه إلى مادتهم عارفين أو جاهلين أنه ليس من العربية الفصيحة كما سنتبين . وقد يكون من فقرهم اللغوى أيضا أنهم يسيئون إدراك المعنى الحقيقى للكلمة الفصيحة فيتوهمون أنها تعنى شيئا لانعرفه فى العربية الأصلية .

ولنبدأ هذه المسيرة الطويلة من مجموعة : « المعبد الغريق » فنقرأ قول السياب فى « شباك وفيقة » :

ظلاً يتماوج كالجرس

وهف كحبات النفس

والشمس تكركر فى السعف

إن الفعل « تماوج » شىء من العامية العراقية ولعله كذلك فى غير العامية العراقية من الألسن الدارجة ، وذلك لأن من مادة « موج » الفعل « ماج يموج » و « تموج » ، أما « تماوج » فهو صيغة عامية دارجة ؛ وما أحسب أن السياب يدرك أنها عامية . ولعل من نهجه أن « يتماوج » فعل عربى فصيح لأنه جرى على صيغة من أبنية الفعل المزيد .

ثم إن قوله : « وهف » لـ « حبات النفس » لايفصح عن معنى الفعل كما هو فى العربية ذلك إن « الهفيف » سرعة السير ، قال ذو الرمة :

إذا مانعسنا نعسة قلت غننا
بخرقاء، وارفع من هفيف الرواحل

وريح هفافة : سريعة المر ، وهفت الريح هفا وهفيفا إذا سمعت صوت هبوبها ، فكيف يتسنى لنا أن ندرك معنى استعمال الفعل فى قول السياب ؟ وكيف يكون للظل « هفيف » ؟ ثم نأتى إلى الشطر الثالث فنجد « الشمس تكركر فى السعف » ويخيل إلى أن السياب استعار « الكركرة » هذه من اللغة الدارجة العراقية بمعنى الضحك المتصل ، مع أنى لا أدرك كيف « تكركر » الشمس فى السعف ، أى تضحك . وما أظن أن السياب يعرف أن هذا الفعل المضاعف من الفصيح والعامى فى الوقت نفسه . ولا أدرى كيف

يتجه لي أن أعرف أن « الشمس تكركر في السعف » ؟ وإذا أردنا أن نحمل الفعل « كركر » على معنى الترديد والإدارة لم نستطع أن نجد له وجهاً في بيت السياب . ولنسر مع الشاعر في « قصائده » فنجد أن « الكركرة » المأخوذة من العامية تفيد الأصوات المترددة والسياب يستعملها كثيرا دون أن يلمح معناها الدقيق ، ليقول في مقطوعة أسماها « حدائق وفيقة » :

.. ..

آه لَوْ روّى نخيـلات الحديقـــة

من بويب كركرات ! لو ســقاها

.. ..

وهو يقول في قصيدته « أم البروم » التي أشرنا إليها :

.. ..

فتحلـــم أعـــين المـــوتى

بكركرة الضياء وبالتلال يرشّها النور

لا أدرى كيف يتجه لي شيء من معنى في نسبة الكركرة للضياء ! وليس هذا مندرجا في نهج الشاعر في إطلاق المجازات والاستعارات التي تنخرم فيها العلاقات بين الألفاظ ، فالمجاز قائم دون أية رابطة تسهل هذا التوسع المجازي ، بل قل إن العلاقات غير كائنة ، وهذا كثير في شعر السياب ، وأكثر منه ماورد في شعر الذين خلفوا بعده وفي شعر المعاصرين من هؤلاء الشباب الأجرياء . وسآتي على ذكر هذه المسائل الغريبة التي تقدح في علم الدلالة .

ولابد من استيفاء ماورد من الكلم الدارج في شعر السياب مما يتلقفه من لغة الناس في حديثهم وصحفهم اليومية ، يقول السياب في « شباك وفيقة » التي أشرنا إليها :

تمثلت عينيك ياحفرتين

على ضفة الموت بوابتين

أقول : ليس في العربية « بوابة » بمعنى الباب ، ولانعرف الكلمة في العامية الدارجة في العراق ، وإنما أخذت سبيلها إلينا من الألسن الدارجة العربية في مصر وسورية وغيرهما . وأنت تجد الكلمة في قصائد أخرى كأن يقول في قصيدة أسماها « دار جدى » :

أين حياة لايحدُّ من طريقها الطويل سور

كشرّ عن بوابة كأعين الشباك

ثم كيف تدرك أن « السور كشر عن بوابة كأعين الشباك » ! !

ومن الانسياق في المادة الدارجة استعمال السياب للفعل « يلهث » في غير معناها الذي نعرفه في العربية . يقال : لَهِثَ الرجل إذا أخرج لسانه من شدة العطش والحر ، ولهثَ الكلب إذا خرج لسانه من التعب والعطش كما في التنزيل العزيز : « كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » .

ثم لننظر كيف يقول السياب في قصيدة أسماها « حنين في روما » :

عريان تزلّق في أيـــد

. . . .

فى ليل الشهوة كل دمى
يتحرق ، يلهث ينفجر

من غير شك أن « يلهث » فى قول السياب من العامية فى وصف المتعب المجهد ، ثم إننا إذا وجدنا سبيلا إلى فهم هذا الفعل فى قوله: « . . . كل دمى يتحرق ، يلهث . . » بتقريبه من الدلالة الفصيحة فكيف نفهم قوله فى قصيدة « النبوءة الزائفة » :

تطفأت الكواكب وهى تسقط فيه كالشرر
ويلهث تحتنا الآجر يزحف تحتنا زحفا

إن الفعل « يلهث » فى نسبته إلى « الحجر » شئ غريب بعيد عن الاستعمال الفصيح بل هو عامى دارج .

وفى قصيدة أسماها « جيكور شابت» يقول السياب :

كركرات المياه التى كسر الشمس منها ارتجاف
.. ..
ودرابك فى الأرض تنقرهن البذور

فى هذين البيتين نعود إلى « الكركرة » العامية التى تحدثنا عنها والتى توهمها السياب مادة فصيحة ، ومثلها « الدرابك » جمع « دربكة » وهى ضرب من الدفوف أو الطبول يستخدمها العامة فى الأفراح وغيرها. ومن المفيد أن أشير إلى أن « الدرابك » لاتعرف إلا فى العامية البصرية :

ومن هذا الكلم قوله فى قصيدة أسماها « صياح البط البرّى » :

.. ..

وعند النهار خزامى ، أقاح
وختميـة مالهـا ذبول

أقول : و « الختمية » صنف من الزهر لايعرفه غير العراقيين :

ويقول فى قصيدة أسماها « المعبد الغريق » وهى اسم المجموعة كلها :

وحدث وهو يهمس جاحظ العينين مرتعدا
يعبُّ الخمر شيخٌ : عن دجى ضاف وأدغال
تلامح وسطها قمر البحيرة يلثم العَمَدا
يمسُّ الباب فى جنبات ذاك المعبد الخالى
طواه الماء فى غلس البحيرة بين أحراش
معشرة وأدغال

إن الدارس ليجد فى هذه المقطوعة شيئا من تأثر السياب بالعامية ، فأين الفعل «تلامح» فى فصيح العربية ؟

إنه يعنى « بدا باهتا » ، ثم إن «الأحراش» بمعنى « الشجر مجتمعا » من العامية وفصيحه « الأحراج » بالجيم ، والأحراج والحرج بفتحتين . والحرجات واحد ، والحرجة واحدة الحرج كالشجرة والشجر :

ومن التأثر بالعامية قول السياب فى قصيدة أسماها « أفياء جيكور » :

جيكور مسِّى جبينى فهو ملتهبُ
مسيه بالسَّعَف
والسنبل الترف

إن وصف السنبل بـ « الترف » هو تعبير عامى عراقى ، ذلك أن « ترف » مثل « فرح » وصف عامى للشيء الطرى الجديد نحو حضرة ترفة وفاكهة ترفة وعيش ترف أى « مترف » ومن هذا الاستعمال العامى قول السياب فى قصيدة أسماها « الوصية » :

كما تَخُضُّ نفسى الهواجس المبعثرة

إن الفعل « تَخُضُّ » بمعنى « تهز » من العامية العراقية وليس فى الفصيح شيء منها .
وهو يقول من هذا فى قصيدة « سفر أيوب » من مجموعته « منزل الأقنان » :

.. ..

وزوجه تتمرى وهى تبتسم

إن الفعل « تتمرى » مولد جديد فى العامية العراقية وغيرها من الألسن الدارجة من مادة « مرآة » والفعل معناه : استعمل المرآة ونظر فيها ليرى وجهه :

وهو يقول فى القصيدة نفسها :

البرد وهسهسة النار

والهسيس والهسهاس : الكلام الذى لايفهم ، والهساهس : الوساوس وحديث النفس ، والهسهسة : كل شئ له صوت خفى كصوت الحلى ، وهساهس الإبل فى سيرها ، وصوت حركة الدرع ، وحركة الرجل بالليل : أقول : إذا كانت مادة « الهسهسة » هذا معناها ومساهرها ودلالتها فكيف نفهم « هسهسة النار » فى كلام السياب ؟ !

ونمضى فى هذه المجموعة فنقرأ قول السياب فى قصيدته « أسمعه يبكى » من هذه المجموعة الثانية :

يدعو : أبى ، كيف تخلينى

وحدى بلا حارس

أقول : إن قوله : « كيف تخلينى وحدى » حكاية لكلام ولده الذى يبكى وهو يرى أباه مريضا محتضرا : وهذا من غير شك من العامية العراقية التى لاتعدم أن تجد مايشبهه فى اللغة الفصيحة أو يقرب منه :

ومن هذا النمط العامى استعماله لفظ « الفنار » للإشارة الضوئية فى المرافيء والموانى فى قصيدته « رحل النهار » :

وكأن ساعدك اليسار ، وراء ساعته ، فنار

وما أظن أنه الحاجة إلى التشبيه ضربت السياب إلى أن يجيء بـ « الفنار » لولا شيطان القافية فهى تتوفر فى « نهار » و « قرار » و « انهمار » ، فلم لا تأتى « فنار » ؟

وننتقل إلى مجموعته الثالثة « شناشيل ابنه الجلبى [1] » فنمضى فى سبيلنا فى الوقوف

(١) لابد من التعريف بكلمة «شناشيل» هذه. أقول : هى كلمة عراقية عامية من أصل فارسى وتعنى غرفة فى الطابق (الدور) الثانى من الدار تشرف على الشارع ووجهها هذا الذى تشرف منه على الشارع مصنوع من الخشب وفيه منافذ تسد وتفتح مع فتحات كثيرة مستورة بالزجاج الملون وتؤلف فى مجموعها زخارف جميلة معنى بصنعها وتزويقها. ولقد أوشك هذا النوع من العمارة أن يزول بعد شيوع العمارة الجديدة .

على الكلام العامى ونقرأ فى قصيدته هذه التى جعل اسمها اسما للمجموعة كلها : وفتّحت السماء لغيثها المدرار بابا بعد باب .

عاد منه النهر يضحك وهو ممتلىء

تكلّله الفقائع عاد أخضر ، عاد أسمر ، غصّ بالأنغام واللهف

يا مطرا يا حلبى

عبّر بنات الجلبى

يا مطراً ياشاشا

عبّر بنات الباشا

أقول : أراد بـ « الفقائع » الفقاعات لأن المفرد هو فقاعة مثل درّاعة وليس « فقيعة » أو « فقاعة » مثل سحابة ليكون جمعها لو وجدا « فقائع » كما جاء فى قول السياب : ثم إن السياب استعار من أغانى الأطفال فى العراق وهم يرددون أغنية عند هطول المطر :

يا مطرا يا حلبى إلى آخر

و « الحلبى » فى هذه الأهزوجة تعنى « الشلبى » فى لغة عوام مصر وغيرهم . ومن المعلوم أن ما يردده الأطفال قد يكون خلوا من المعنى ذلك أن المهم أن تتهيأ أهزوجة فيها الوزن والقافية ، وإلا فما معنى « جلبى وشاشا » ؟! ؛ إن كلمة « حلبى » جاءت بـ « جلبى » و « شاشا » استدعتها كلمة « باشا » وهو اللقب التركى الذى استعاره العرب ودلالته معروفة .

ونقرأ فى قصيدة « ارم ذات العماد » من هذه المجموعة قوله :

نقودىَ الأسماك لا الفضة والنضار ،

والورق والشباك والوهار

فى خورها العميق أسمع المحار

نجد فى هذه القطعة مواد بصرية تتصل بالبيئة البصرية ذات المياه والأنهار وما تشتمل عليه من السمك ولوازمه وهى الشباك من أدوات الصيد ، و« الوهار » من أدوات الصيد أيضاً وهى جملة عيدان تغرس فى صدر النهر أو الساقية فلا تدع السمك يفلت منها فيسهل اصطياده . ولا نعرف فى العربية الفصيحة لفظ « الوهار » وإن كان بناؤها على نحو أسماء الأدوات والآلات وهو « فعال » المكسور الفاء كالخياط والصمام والسلاح والقناع وغير ذلك ..

وأنت تحسُّ أن مادة هذه الأبيات كلم محلى ومن ذلك « الخور » وهو مصب الماء فى البحر وقيل خليج من البحر . ولا نعرف وجوداً لهذه الكلمة فى العربية المعاصرة غير اللغة العامية البصرية ، فهناك خور عدة ، منها خور عبد الله فى بعض جهات البصرة الحديثة . وإذا رجعنا إلى مادة « خور » فى معجم البلدان[1] « نجد عدة مواضع منها خور سيف

(١) معجم البلدان لياقوت (ط . ليبزك ١٨٦٧) ١ / ٤٨٨ - ٤٨٩

وهو موضع دون سيراف إلى البصرة :
ومن ذلك « خورفكّان » وهو بُلَيْد على ساحل عمان و « خور بروض » وغيرها .

وقال حمزة : وأصله «هور» فَعُرِّب :
أقول : ومازال « الهور » وهو الأصل على رأى حمزة معروفا فى جنوبى العراق وهو مجتمع كبير للمياه فيه القصب والبردى والجولان وتعيش فيه الأسماك وحيوانات مائية أخرى : وقد سمى العرب البلدانيون مناطق الأهوار الجنوبية « البطائح » : ولقد أشار ياقوت إلى « الهور » فقال إنها بحيرة يفيض فيها ماء غياض وآجام فتتسع ويكثر ماؤها :

ونقرأ فى قصيدة (ليلة فى العراق » من هذه المجموعة :

غريق فى عباب الموج تنحب عنده الغاقه

إن القارىء غير العراقى أو غير البصرى الجنوبى لايعرف « الغاقة » هذه فهى صنف من الطير المهاجر يأتى إلى العراق فى الشتاء ولايبرح الماء وريشه أبيض وكأنه شىء من البط : وقد أطلق عليه أهل تلك المناطق «الغاقة» وهو من باب استعارة الأصوات وجعلها أسماء للحيوان والطير من أصواتها :
ومثل هذه الكلمة «الغاق»، وهو فى فصيح العربية صوت الغراب، وبه سمى الغراب « غاقا » ونختم هذه المجموعة فنقرأ فى قصيدة فيها أسماها « أجيبينى » قوله :

وتلك كأن فى غمازتيها يفتح السحر

إن « الغمازتين »التى استعملها السياب غير مرة يشير بها إلى شىء من محاسن الفتاة على رأيه، وهما « حفرتان» فى خد الفتاة تبدوان عند الكلام والضحك . وهذا من مولدات السياب من غير شك :

لقد استوفيت الكلم العامى فى شعر السياب ولابدأن آتى إلى شىء آخر وهو إساءة استعمال الفصيح أو توهم ماليس فيه من دلالة :

وسأجتزىء من هذا بذكر مواد معينة منها استعماله تطَفّأ ويريد بها انطفأ ،ومنها استعماله « الرحم » مذكرا فيقول :

تفجر باللظى رحم البحيرة بين أحراش وأدغال

وقرّ عليه كلكل معبدٍ عصفت به الحمى :

ولا أدرى كيف يكون للمعبد «كلكل» وهو الصدر ، أو مابين الترقوتين إلى الزور :
ونقرأ قول السياب فى قصيدة أسماها « فى انتظار رسالة » من المجموعة الثالثة :

وذكرت كِلّتنا يهفّ بها ويسبح فى مداها
قمر تحيّر كالفراشة ، والنجوم على النجوم

.. ..

مثل الحصى ينداح فيه وأنت أول ورديه

.. ..

طال انتظارى وهى لاتأتى وتحترق الزوارت والتخوت »

وفى هذه القطعة نعود إلى « هف » الذى مر ذكره ، فلاحاجة بنا إلى مزيد من القول :
ولا أعرف مايعنى قوله : « مثل الحصى

أنداح » وذلك لأن معنى « انداح » اتسع ، قالوا انداح بطنه أى خرج من ورآء واتسع :

ثم إن « التخوت » جمع تخت وهو مقعد من خشب يتسع لثلاثة يقعدون عليه وفيه متكأ ويظن السياب أنه من فصيح العربية.

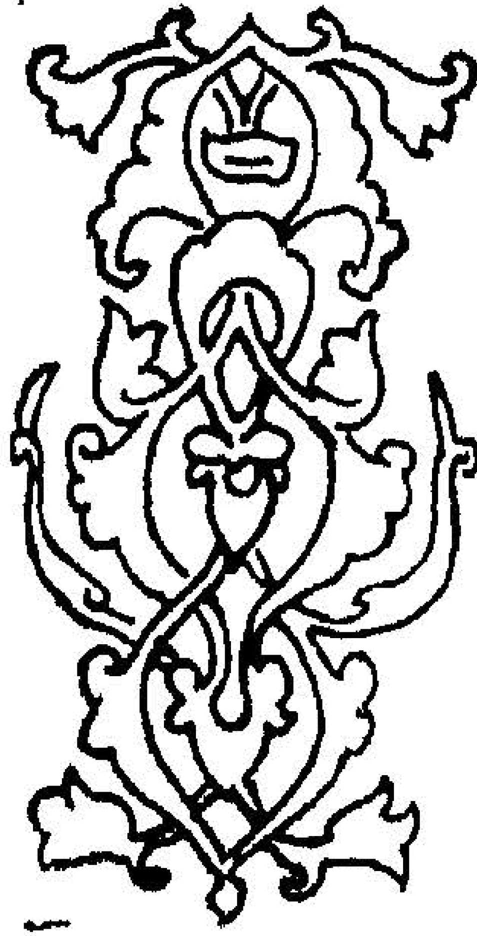
ويتوهم السياب أن « النجوم » وهى الأجرام السماوية جمع «نجمة » ولايدرى أن « النجمة » تعنى شيئاً آخر فيقول فى « المعبد الغريق » فى قصيدة « دار جدى » :

وفى المساء كنت أستحم بالنجوم
عيناى تلقطانهن نجمة فنجمة وأركب الهلال

.. ..

وبعد فهذا هو السياب فى أدبه من حيث مادته ونظمه ، والكلام على هذه المسائل يطول لو اتسع استقرائى فشمل مجموعاته الأخرى :

ابراهيم السامرائى
عضو المجمع المراسل من العراق



كلمة الدكتور مهدى علام الأمين العام للمجمع

فى استقبال الدكتور



لمجمعنا هذا أيام مشهودة ، ترفرف علينا فيها نعمة الاستبشار ، وتهتز فيها نفسنا هزة الرضا.

من هذه الأيام يوم استقبال عضو جديد ينضم إلى سدنة العربية . نحن اليوم فى عيد سابغ ، نستقبل فيه أربعة من أساطين اللغة ورواد الفكر :

ويسعدنى أن أبدأ باستقبال أحدهم وهو الأستاذ الدكتور مجدى وهبة ، وهو صاحب أربعة أسماء اختصرها باسمين عرف بهما فى مؤلفاته ، وبهما يدخل اليوم مجمعنا الموقر : فهو يوسف مجدى مراد وهبة ، المعروف باسم الدكتور مجدى وهبة ، الذى ولد فى التاسع عشر من أكتوبر سنة ١٩٢٥ .

وكانت نشأته التعليمية نشأة ثرية بفروع المعرفة : فقد تلقى التعليم الابتدائى والثانوى بالمدرسة الإنجليزية بالقاهرة ، ثم التحق بكلية الحقوق بجامعة القاهرة ، وحصل منها على الليسانس سنة ١٩٤٦ ، وسافر عقب ذلك إلى فرنسا ، وحصل على دبلوم عال فى القانون الدولى من جامعة باريس سنة ١٩٤٧ :

وعندئذ جذبته إليها الدراسات الأدبية ، فانتقل إلى جامعة أكسفورد ، وحصل منها سنة ١٩٤٩ على درجة الليسانس بمرتبة الشرف فى الأدب الإنجليزى . وواصل فيها دراسته حتى حصل فى سنة ١٩٥٤ على درجة الليسانس فى الآداب ، وهى التى تؤهل الدراسة الدكتوراه . (وهذا نظام شبيه بنظام الماجستير فى جامعاتنا) .

وفى سنة ١٩٥٧ حصل من هذه الجامعة على درجة الدكتوراه فى الأدب الإنجليزى . فجمع بذلك أرفع الدرجات فى الأدب الإنجليزى من أعرق جامعة بريطانية .

وعاد الى الوطن فوجد مكانه الطبيعى فى قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، مدرسا حتى سنة ١٩٦٥ ، فأستاذا مساعدا حتى سنة ١٩٧٢ ، فأستاذا للأدب الإنجليزى من ذلك التاريخ حتى اليوم :

وفى أثناء تلك المدة ندب وكيلا لوزارة الثقافة من سنة ١٩٦٦ حتى سنة ١٩٧٠.
وينتظم نشاطه الأدبى أربعة فروع من الإنتاج :

اولا : الترجمات الى اللغة العربية :

(أ) راسيلاس أمير الحبشة ، تأليف الدكتور صمويل جونسون سنة ١٩٥٩ (بالاشتراك) :

(ب) لن تحدث حرب طروادة : وهى مسرحية فرنسية لجان جيرودو سنة ١٩٦٤ :

(ج) مقال فى الشعر المسرحى ، لجان درايدون (بالاشتراك) :

(ه) قدماء الإنجليز وملحمة بيولف ، مترجمة عن اللغة الانجلوساكسونية ، سنة ١٩٦٦ :

ثانيا : الترجمات الى اللغة الانجليزية :

René Huygh, Trois Conférences Aur I' Art .

(أ) عن الفرنسية سنة ١٩٦٥ :

(ب) أحلام شهرزاد لطه حسين سنة ١٩٧٤

(ج) إبراهيم الكاتب لعبد القادر المازنى سنة ١٩٧٦ :

ثالثا : المعاجم :

(ا) An Arabic Phrase Book for use in U. A. R.

(ب) معجم مصطلحات الحضارة إنجليزى عربى سنة ١٩٦٨ .

(ج) معجم الفن السينمائى (انجليزى ، فرنسى ، عربى) سنة ١٩٧٢ بالاشتراك .

(د) معجم مصطلحات الأدب (إنجليزى ، فرنسى ، عربى) سنة ١٩٧٤ :

(ه) معجم العبارات السياسية الحديثة (إنجليزى ، فرنسى ، عربى) سنة ١٩٧٨ بالاشتراك :

رابعا : أعمال مؤلفة :

(ا) مطالعات فى الأدب والسياسة سنة ١٩٦٠ لنشر بالقاهرة :

(ب) السياسة الثقافية فى مصر (باللغة الإنجليزية) نشر اليونسكو بباريس سنة ١٩٧٢ :

(جـ) مجموعة مقالات فى مجلة السياسة الدولية « والأهرام الاقتصادى » « وعالم الفكر » ومجلة كلية الآداب جامعة القاهرة :

ولقد تمر بهذه الثروة العلمية مراكبا فتثير احترامنا ولكن إعجابنا (الذى أرى أنه يفوق احترامنا) يتجلى عندما نقف عند بعضها ، على الأقل ، لنرى أن من بين ما ترجمه الدكتور مجدى وهبه إلى العربية ، نصوصاً لقمة الأدب والنقد الإنجليزى على مدى عصوره المختلفة ، وهو الدكتور صمويل جونسون : وإن من بين ما ترجمه إلى العربية كذلك ملحمة بيولف من اللغة الأنجلوساكسونية التى لا يتجاوز عدد العالمين بها فى إنجلترا بضع مئات ، ولست أدرى عدد عارفيها فى مصر :

كذلك يسترعى نظرنا قدرته فى الترجمة إلى الإنجليزية لنصين عربيين ، قد يظن أنهما من الأمور الهينة فى الترجمة : أحدهما لطه حسين ، والآخر لإبراهيم المازنى، وأسلوب طه حسين ، بما فيه من ميل إلى الترادف وإلى التنغيم الموسيقى، تشق ترجمته إلا على القادرين، وأسلوب المازنى ، وما يتضمنه من الفكاهة، لا يقوى على نقله إلى لغة أخرى إلا خبير بأساليب الفكاهة فى اللغتين .

وإن تقديرنا لجهد الدكتور مجدى وهبة فى تصنيف المعاجم نشعر به فى لجان المعاجم فى مجمعنا هذا ، ولا سيما المصطلحات الحديثة ، ففى معجمه للعبارات السياسية الحديثة أكثر من عشرة آلاف عبارة لم يكن اختيارها سهلا ولا عشوائيا ، بل كان نتيجة لاستخلاص العبارات التى تستخدم فعلا ، كما استقاها المؤلف من صحيفة «التايمز الإنجليزية» و«النيويورك تايمز الأمريكية» و«اللوموند الفرنسية» ، وأمهات الصحف اليومية فى العالم العربى ، ومن محاضر المؤتمرات والمعاهدات .

وفى معجمه لمصطلحات الأدب نرى الشبكة المترامية الأطراف التى ألقى بها فى خضم الأدب العربى والإنجليزى والفرنسى فبينما يعرف المجاز المرسل ، وادغام المتحركين ، والطباق ، ونظام الأمالى فى التأليف العربى نجده يعرف الرمزية ، والسونيت ، والقافية الشعبانية ، والساجا ، وروى الصدارة Alliteration الخ .

ونجد لمحة من تصور الدكتور مجدى وهبة لنشأة المعرفة وتفرعها فى افتتاحيته لهذا المعجم إذ يقول : برغم أن هذا المعجم قد عنى أساسا بالمصطلحات الأدبية الخالصة إلا أن الباحث سيعثر فى ثناياه على مصطلحات فلسفية أو اجتماعية أو دينية ، أو فنية ، وذلك لأن المعارف الإنسانية اتخذت فى بدء أمرها شكلا موسوعيا قبل أن تنمو وتتفرع إلى فروع ؛ على أننا لا نستطيع أن نضع حدا فاصلا بين ألوان المعرفة بعضها وبعض : فأرسطو فيلسوف وأديب ، وابن جرير الطبرى مؤرخ وأديب ، وعمرو ابن الفارض متصوف وشاعر ، وللخوارج والشيعة والمعتزلة والمتصوفة فى الإسلام أدب ، والبلاغة العربية قبل أن تحجرها قواعد أرسطو بصيرورتها علما من العلوم كانت من صميم الأدب ، بل كانت هى الأدب بعينه ، هكذا الحال عند جميع الأمم والشعوب ، مهما اختلفت أجناسها وأسراتها اللغوية .

وتتجلى الأمانة العلمية عند زميلنا الجديد فى اعترافه بفضل مجمعنا هذا فى معاجمه التى ألفها ، فهو يذكره فى مراجعه .

وبعد فهذه لمحة خاطفة عن الأعمال الأدبية للزميل الجديد الذى أتاحت له ثقافته أن يؤدب القانون، وأن يقنن الأدب .

سيدى الرئيس ، سادتى أعضاء المجمع : بتفويضكم لى سعدت باستقبال الدكتور مجدى وهبة ، وبإذنكم أدعوه للجلوس بينكم .

مهدى علام

الأمين العام للمجمع

أ ــــ •• كلمة الدكتور مجدى وهبة

أستاذى وسيدى رئيس مجمع اللغة العربية :

أستاذى وسيدى الأمين العام للمجمع :

أساتذتى أعضاء المجمع :

سيداتى وسادتى :

إننى لا أستطيع أن أجد الكلمات التى تعبر عن عظيم امتنانى للأستاذ الدكتور محمد مهدى علام ، وعن شعورى العميق بأنى مدين له ، وذلك لترشيحه لى عضواً فى هذا المجمع الموقر ولكرمه الفياض فيما أسبغ على من صفات اليوم ، ولرعايته لى طوال حياتى الجامعية ، فقد كان هو والأستاذ الجليل محمد خلف الله أحد المدافعين دائماً عن إنتاجى وعلى فى جميع ترقياتى بجامعة القاهرة :

وبعد :

فماذا عساى أن أقول ، ودينى كبير ودائنى عديدون ؟ فهناك روح ترفرف على هذا المجمع وتوجه تفكيره أجيالا بأسرها ، هى روح فقيد العربية وآدابها المرحوم الأستاذ العميد الدكتور طه حسين الذى كان أول من أثار فى نفسى الولوع باللغة العربية والتطلع إلى البحث فيها ، كما علمنى دائماً أن الانتماء لهذه اللغة يستوى فيه المسلم والقبطى :

وأما أنت يا سيدى الرئيس — رئيس المجمع — فقد فجرت فى ذهنى التعلق بالفكر العربى العميق والفلسفة الإسلامية العريقة ، وفتحت كتبك وبحوثك أمام عينىّ آفاقاً لم ألحها من قبل . كما أسعدنى أستاذى الدكتور محمد مهدى علام بموازناته بين الحضارات وبحوثه فى العلاقات بين الأدب الإنجليزى وآدابنا العربية :

وأنت يا أستاذى الكبير مصطفى مرعي قد غرست فى نفسى احترام القانون ، وحببت إلى تلك المسالك الفكرية والمنطقية التى قامت عليها التشريعات الإنسانية :

وأنت يا أستاذى الدكتور عز الدين عبد الله قد كنت مثالا فريداً فى الألمعية والأناة أثناء تلقينا منك دروس القانون المدنى بحقوق القاهرة :

وان أنسى ، ماعشت ، معلماً قديراً ومفكراً بارعاً وهو المرحوم فضيلة الشيخ عبد الوهاب خلاف — أستاذ الشريعة بحقوق القاهرة — فقد كان أول من ألهمنى "روح الشريعة الإسلامية" ، ووقفت عن طريقه على منطقها السليم وروحها الإنسانية الحكيمة :

وما قلته يا سادتى قليل من كثير مما أنا مدين به لأساتذتى الذين يسعدنى ويشرفنى أن أجلس فى مجمع هم جميعاً من أعضائه ، وإنما يذكرنى وجودى بينكم باحدى كليات جامعة أكسفورد العريقة التى كان ينتخب

أعضاؤها وأساتذتها ممن قضوا حياتهم فى خدمة العلوم الإنسانية ، وبينهم طالب واحد فقط : حتى يصدق عليها اسم « كلية » ، فهؤلاء العلماء الأعضاء هم أنتم يا سادتى — وأما الطالب الوحيد فهو المتحدث إليكم : وقد كان تفضلا عظيماً منكم أن تسمحوا لى بالجلوس بين صفوفكم :

ويجدر بى فى هذا المقام أن أشير إلى تقليد عريق فى تاريخ الثقافة العربية : هو تمجيد مركز المعلم فى المجتمع العربى : وكلنا يذكر شيوخ الأزهر وما لهم من إعزاز وتبجيل ، ومعلمى المدارس العليا ، ومنها دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى ومدرسة المعلمين العليا ، وما لهم من احترام فى نفوس الجميع ، ثم أساتذة الجامعات المصرية ، وما شغلوا من مراكز ممتازة بين المواطنين ، لما تركوا من آثار فى تهذيب النفوس وتنمية العقول وتقوية الروح الوطنية :

فكل هذه المعاهد قد خرجت لنا نخبة من المعلمين كانوا كواكب نيرة أخرجوا تلاميذهم بغزارة علمهم وسمو أخلاقهم من الظلمات إلى النور ، وكانوا خير مثل للأخلاق الفاضلة والتفكير السامى ، ونهضة مصر فى الحقيقة مدينة لهم بما وصلت إليه من تقدم ورقى :

وليس مجمعنا هذا إلا مظهرا من مظاهر ذلك التقليد العريق ، فانه يضم طائفة من أئمة فقهاء اللغة وأساتذة المواد المختلفة ، كان انتخابهم ثمرة لتبحرهم فى العلوم والفنون وتقديراً لممارسة كثرتهم مهنة التعليم وتفوقهم فى شتى مناحيها : فنالوا بذلك تكريماً لم ينله سلطان المال ولا بريق الحياة الدنيا :

ومن هذه النخبة الفاضلة فقيدنا العظيم المرحوم الأستاذ عبد الحميد حسن :

وإذا كنت لم أتشرف بالاتصال المباشر بالفقيد فان ما أجمع عليه زملاؤه ومن تتلمذوا عليه ، وما خلفه من آثار علمية وأدبية ، لا يترك فى نفسى أدنى شك فى أنه كان مربياً فاضلا وعالما جليلا ولغوياً نادر المثال :

ولد الفقيد بالقاهرة ، وتلقى تعليمه فى مدارسها ، وفى الأزهر الشريف ودار العلوم ، وتخرج فيها سنة إحدى عشرة وتسعمائة وألف للميلاد ثم أوفدته وزارة المعارف إلى انجلترا ، وهناك قضى فى دراسة التربية وعلم النفس والأدب والإنجليزى أربع سنوات ،

ثم عاد إلى القاهرة ودرس اللغة العربية بمدارسها الثانوية ، ثم التربية وعلم النفس بدار العلوم والمعلمين العليا ومعهد التربية كما نقل مفتشا للغة العربية بعض الوقت ، غير أن دار العلوم حظيت بالنصيب الأوفر من علمه وفضله ، اذ ظل يدرس فيها إلى أن أحيل للتقاعد ، وهو وكيل لها ، سنة تسع وأربعين وتسعمائة وألف :

وفى سنة إحدى وستين وتسعمائة وألف انتخب عضوا بمجمعنا هذا :

أما إنتاج الفقيد فقد كان متعدد النواحى عميق الأثر ، فلم يقتصر على التربية وعلم النفس والأدب وتاريخه وعلم التجويد فحسب ، بل تعدى ذلك إلى إلقاء بحوث أصيلة قيمة فى مؤتمرات المجمع ، كالمرونة فى اللغة العربية ، والترخص والتوسع فى بعض القواعد النحوية ، وأثر المذهب الكوفى فى تطور النحو العربى واللغة العربية وتيسيرهما ، والخصائص الصوتية للحروف الهجائية .

ولم يفته أن يقدم بحوثا دينية لمجمع البحوث الإسلامية الذى كان عضوا مؤسسا فيه منذ إنشائه كالتربية الخلقية والاجتماعية فى السنة النبوية ، ومكانة بيت المقدس فى الاسلام ، وأن روح الإسلام تمثل الأقوى دعامة لإصلاح المجتمع .

ومن هذه اللمحة السريعة إلى ما اتصف به الفقيد من سمو الخلق وغزارة العلم وسعة الأفق ، ترون سيادتكم أننا قد فقدنا بوفاة المرحوم الأستاذ عبد الحميد حسن مثالا فريدا قل أن يجود الزمان بمثله فى سماحته وعطائه ودقته ووفائه ونشاطه المتواصل .

رحم الله الفقيد وأمكننا من السير على نهجه وتحقيق ما تمناه .

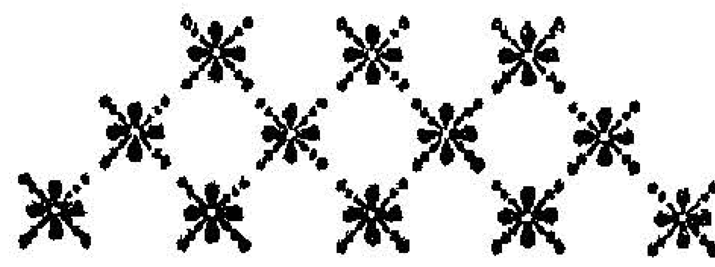
أستاذى السيد الرئيس :

لا يفوتنى قبل أن اختم كلمتى أن أشيد بالجهود المثمرة الصادقة للهيئة المجمع فى العشرين سنة الأخيرة ، فقد أخرجت لنا فى هذه المدة المعجم الوسيط وعشرين مجلدا فى مصطلحات العلوم والفنون ، وحرف الهمزة من المعجم الكبير ، فضلا عن البحوث اللغوية الرائعة ، والمقالات الأصيلة القيمة التى ألقيت فى مؤتمرات المجمع أو نشرت فى مجلته .

ولا اريب أن اجميع العرب يحمدون للمجمع ما قام به من أعمال جليلة ، وإن كنا لا نزال نطمع فى المزيد ، فالمعجم الكبير لم يتجاوز نشره حرف الهمزة مع أنه سيكون المرجع العمدة فى معرفة الألفاظ العربيــة وتاريخها وعلاقاتها بغيرها من اللغات السامية واللغات الأخرى ، وأملى ألا تنقضى السنوات العشر القادمة دون أن يتاح للمجمع الموقر إخراج هذا المعجم كاملا إن شاء الله تعالى .

وختاما أكرر لسيادتكم امتنانى وشكرى ، وإذا أذنتم فإننى فى أدب واستحياء أتخذ مجلسى بينكم .

مجدى وهبة
عضو المجمع



• • كلمة الدكتور أحمد الحوفى

فى استقبال الأستاذ الشيخ



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله
سيادة رئيس مجمع اللغة العربية :

السادة الأعضاء الزملاء :

سيداتى وسادتى :

استن مجمع اللغة العربية الموقر سنة حميدة منذ نشأته إلى اليوم ، أن يحتفل بمن يفوز بعضويته ، ويرحب به ترحيباً أخوياً ودياً ، يتمثل فى تعريف به ينهض به أحد الأعضاء ، يعقب هذا التعريف شكر من العضو الجديد وتقدير لسلفه ، وتعريف بإنتاجه ، وحفاوة بذكراه .

وهى سنة حميدة حقاً ، تجمع بين الترحيب بالقادم والتقدير للراحل ، بين الحفاوة بالخلف والوفاء للسلف ، شبيهة بالحال التى هنأ فيها جمال الدين بن نباتة السلطان الأفضل بالملك ، وعزاه فى والده المؤيد ، فقال :

هنـاء محاذاك العزاء المقـدما
فـما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام فى ثغور مـدامع
شبيهان لا يمتاز ذو السبق منهما
مليكان هذا قد هوى لضريحه
برغمى وهذا للأسرة قد سما

وقد عهد إلى المجمع الموقر أن أنوب عنه فى الترحيب بالعضو الجديد الزميل الكريم صاحب الفضيلة الشيخ أحمد هريدى .

ويقتضينى هذا الترحيب أن أعرض نبذة عن حياته العلمية ، وعن حياته العملية ، ثم أعرف بإنتاجه ، ثم أعقب بتقدير نابع من خبرة ومخالطة .

أما حياته العلمية فانه بعد أن ولد فى ١٥ مايو سنة ١٩٠٦ ببلدة النقاعى التابعة لمركز ببسا بمحافظة بنى سويف حفظ القرآن الكريم بمكتب القرية ، ثم درس بالجامع الأزهر ، ودرس بكلية الشريعة ، وكان أول خريجيها ، ثم التحق بتخصص القضاء الشرعى بها مدة سنتين ، وكان أول المتخرجين سنة ١٩٣٦ .

وعمل بالمحاكم الشرعية فى وظيفة موظف قضائى — وهى تماثل وكيل النيابة فى النظام

المدنى — ، ثم عين قاضياً من الدرجة الثانية سنة ١٩٤١ ، واختير للتفتيش القضائى الشرعى بوزارة العدل ، ثم عين قاضياً من الدرجة الأولى سنة ١٩٤٨ ، ثم وكيلا للمحكمة الكلية الشرعية سنة ١٩٥٢ ، ثم رئيساً لمحكمة — المنصورة الكلية الشرعية سنة ١٩٥٤ .

ولما ألغيت المحاكم الشرعية سنة ١٩٥٥ عين رئيس نيابة بمحكمة النقض .

وفى سنة ١٩٦٠ اختير مفتياً للجمهورية .

فلما بلغ سن التقاعد سنة ١٩٦٦ جددت الدولة مدة عمله أربع مرات ، فى كل مرة سنة ، تقديراً لعمله وفضله ، حتى انتهى من العمل سنة ١٩٧٠

وفى سنة ١٩٧٣ عين عضواً بمجمع البحوث الإسلامية .

ولقد شارك فى أعمال جليلة أخرى ، فكان عضواً باللجنة التى اختارت أحكام قانون الأحوال الشخصية للمسلمين ، واختير لتدريس نظام الحكم فى الإسلام ، ونظام القضاء فى الإسلام بتخصص القضاء الشرعى بكلية الشريعة الإسلامية وبالدراسات العليا بها ، وبالدراسات العليا بكلية الحقوق بجامعة القاهرة .

وشارك فى مؤتمرات ولجان شتى ، فساهم فى المؤتمر الإسلامى بماليزيا سنة ١٩٦٨ ، وألقى فيه بحثاً عن نظام الزكاة .

وساهم فى لجنة تعديل القوانين واستمداد أحكامها من الشريعة الإسلامية سنة ١٩٧٢ بمصر وبالكويت .

وشارك فى لجان المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، وكان رئيس لجنة موسوعة الفقه الإسلامى .

وهو عضو بالمجلس التأسيسى لرابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة ، ويحضر مؤتمرها السنوى .

وأما بحوثه فكثيرة ، نشر بعضها فى أعداد من موسوعة الفقة الإسلامى .

وكثير منها ما زال مخطوطاً ، مثل نظام الحكم فى الإسلام ، نظام القضاء فى الإسلام ، نظام الزكاة ، الولاية على النفس والمال ، رؤية الهلال ، الإسقاط ، الولاية العامة والخلافة ، نظام الإقرار ، نظام الشهادة ، قتل الجاسوس ، نظام تطبيق الحدود الشرعية .

سيدى الرئيس :

السادة الزملاء الأعضاء :

سادتى :

يسرنى أن أقدم إلى مجمع اللغة العربية الموقر عالما جليلا ، يليق بالمجمع ، ويليق به المجمع ، لأنهما يتشابهان فى عدة وجوه :

فالشيخ أحمد هريدى رجل وقور ، والمجمع قمة فى الوقار . وهو رجل عالم ،

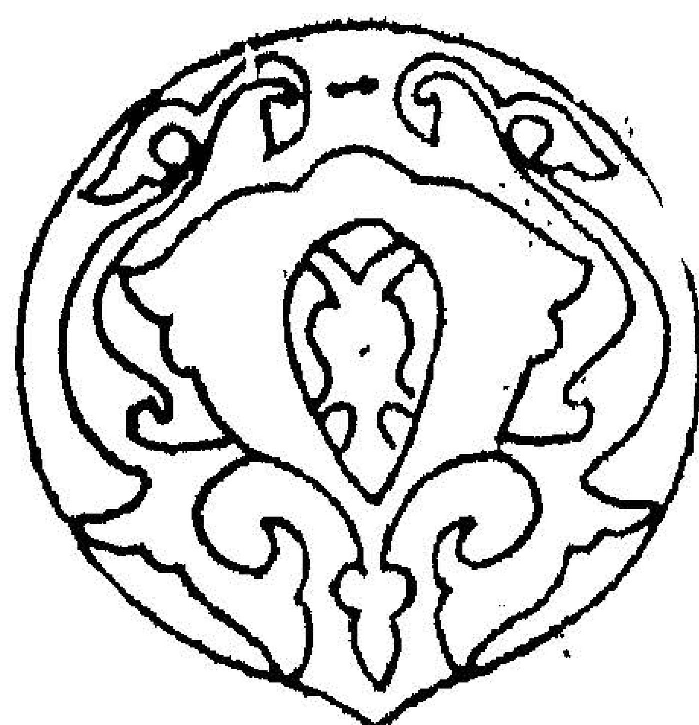
والمجمع غنى بعلمائه . وهو رجل بحاثة ، والمجمع يمتاز ببحوثه ومبتكراته .

وهو رجل يعمل فى صمت ، والمجمع ينهض بأعمال جليلة فى صمت . وهو رجل هادىء ، والمجمع يجاهد فى هدوء ، ويؤثر الهدوء ، وهو رجل تجاوز السبعين ، والمجمع منتدى الخبراء والخالدين : ثم إنه رجل لم يقرع باب المجمع ، ولم يعلم بفوزه إلا بعد أن تم الانتخاب ، ولقد عرفته وخبرته وصاحبته فى أعمال إسلامية فى مصر وفى مكة المكرمة ، فكان فى كل شؤونه صاحب أخلاق فاضلة ، وسجايا طيبة.

أرجو أن يمنحه الله من العمر والصحة والتوفيق مايتيح له أن يخدم اللغة العربية والثقافة الإسلامية بمجمع اللغة العربية العظيم .

والسلام عليكم ورحمة الله :

احمد الحوفى
عضو المجمع



كلمة الأستاذ الشيخ أحمد هريدى

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدى الرئيس :

سادتى :

سأعفى نفسى من بعض التقاليد التى تحكم حياتنا وتفرض علينا قيوداً قد تكون ثقيلة فى بعض الأحوال التى قد لا تلائمها القيود ، أحدثكم بأنى قد شعرت بفخر واعتزاز عندما تحدث إلى الصديق الكريم والعالم العظيم عبد العزيز محمد عضو المجمع مهنئاً بانتخابى عضواً بالمجمع ، وكان مبعث فخرى أنى قد أصبحت بين هؤلاء النفر الكرام من العلماء والمفكرين وقادة الرأى ، وقد تفضلوا فأولونى ثقتهم الغالية ، وأحسنوا الظن بى فاختارونى زميلا لهم . ولعله من المألوف أن تستخف الإنسان الغبطة ويغمره السرور حين يظفر بنصيب من الشرف العظيم على مثل هذه الصورة الكريمة الرائية أن تفيض به وتقدمه نفوس الصفوة المختارة من علماء الأمة ومفكريها .

ولن أحاول هنا أن أقابل جميل صنيعكم بالشكر والثناء والتقدير ، لأستزيدكم فأظفر بعد الثقة والتأييد بالمحبة والرضا فما أنا — إن حاولت — ببالغ غايتى من تصوير شعورى والإعراب عن إحساسى ، فليتول الله شكركم . وليلهمنى من القدرة على العمل مايحقق رضاءه عنى .

سادتى :

سأحدثكم فى هذه الكلمة عما تركه سلفى العظيم الدكتور كامل حسين من الآثار فى ميدان العلم والأدب وكامل حسين هو الطبيب الأديب العالم الناقد الدقيق الذى جمع بين دقة العلماء ورقة الأدباء . . . تخرج من كلية الطب وسافر فى بعثة دراسية إلى إنجلترا ١٩٢٥ ، ومكث بها خمس سنوات حصل خلالها على ألقاب علمية ممتازة . منها زمالة الجراحين الملكية وماجستير جراحة العظام . وعاد إلى مصر سنة ١٩٣٠ وعين مدرساً بكلية الطب . ثم أستاذاً مساعداً ثم أستاذاً لجراحة العظام . قال عنه الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع فى حفل استقباله بالمجمع ١٩٥٢ . « وكامل حسين عالم علمى أدق وأكمل مايراد بهذا الوصف ؛ فهو مؤمن بالتجربة إيماناً لايقل عن إيمانه بالعقل . . يؤمن بها لأنها سبيل كشف الحقيقة وكسب المعلومات . . وكثيراً ماردد كلمة « هنرى برانكاريه » الرياضى الفرنسى المشهور : إن الغرض العلمى الخصب هو ذلك الذى يقود إلى إنتاج حقائق جديدة : لهذا كله عنى كامل حسين بالتجربة ودعا إليها فى مناسبات شتى . وكامل حسين يؤمن أيضاً بالعقل

إيماناً كاملا لأن التجربة تنصب عادة على وقائع جزئية لايفيد منها العلم الفائدة المرجوة إلا إن استخلص منها العقل القضايا الكلية والأحكام العامة فهو يريد ذلك العقل العلمى الذى يحلل ويحلل ، لا ذلك العقل الإقطاعى كما يسميه أحياناً أو عقل القرون الوسطى الذى يسلم ويستسلم ، فلا ينقد ولا يناقش ولا يخترع ولا يبتكر . . وهو فى ربطه بالعقل يدرك فى وضوح مدى الصلة بين الطب والفلسفة ؛ فهو فى نفسه فيلسوف بقدر ماهو عالم وطبيب ، وعنده أن العلم عقلية ومنهج . . . وهو مغرم جداً بالمنهج والدراسة المنهجية ، وذلك من أخص خصائص العلم والعلماء » . ذلك بعض ماقاله الدكتور إبراهيم مدكور فى عالمنا الراحل .

وليس كامل حسين بالعالم فحسب بل هو أديب كذلك . . وقد دفعه علمه إلى دراسة الأدب ؛ لأنه كان يرى أن الحقائق العلمية فى مسيس الحاجة إلى تعبير سليم يكشف عنها .

وقد درس كامل حسين الأدب دراسة أخذ فيها بمنهج المقارنة والتحليل يقاس فيه اللفظ بمقياس المعنى فإن لم يلائمه عدل عنه إلى لفظ آخر أكثر ملاءمة . . وقارن فى دراسته أدباء العربية بعضهم ببعض ، وقارن بينهم وبين بعض الأدباء العالميين ، وهو يميل فى أسلوبه الأدبى إلى السهولة والوضوح ، فلا يرتضى اللفظ الغامض ولا يرتاح إلى التعبير المعقد : وعنده أن الكاتب يكشف عن كثير من صفاته العقلية والخلقية والنفسية وإنه ليس أحد من الناس يضطره عمله أن يعرض نفسه على الناس جبراً على النحو الذى يقع من الكاتب . . ومن ثم كان أدب كامل حسين صورة صادقة لنفسه وعلمه ومشاعره . ولكامل حسين مذهب فى الأدب ضمنه نصائحه لشباب الكتاب فى كلمته التى ألقاها فى الاحتفال بمنحه جائزة الدولة للأدب . إذ قال فيها : على شباب الكتاب ألا يحاولوا عملا ضخما تتحدث عنه الأوائل والأواخر ، حتى لا يكبلوا أنفسهم بقيود تحد من قدرتهم . . وليس على الكاتب إلا أن يعنى بالموضوع والأسلوب . ويستمد الموضوع من حياته وخبرته . ولا يضيف شخصيات من نسج الخيال .

ولا يصف وقائع لم يشهد لها شبيها فى حياته . . . وأن يكون الأسلوب صورة من نفسه ومتسقاً مع طبيعته . فلا يتحدث بأسلوب الشجاعة إذا كان جبانا . ولا يميل إلى الهدوء إذا كان عنيفاً حتى يكون صادق الشعور صادق التعبير .

وقد أضاف فى كلمته التى ألقاها فى حفل استقباله بالمجمع حين تحدث عن الحياة الفكرية فى مصر الحديثة قوله :

وإنى لأدعو شبابنا أن يروضوا أنفسهم على شيء واحد فى حياتهم الفكرية وهو

الصدق . وليكن همهم أن تكون حياتهم صادقة وتعبيرهم صادقاً . والصدق كل شئ في الحياة الفكرية . وإني لأدعوهم في سبيل ذلك إلى قتل الفصاحة ؛ فهي شكل محض ، وإلى تجاهل البلاغة فقد أصابنا منها شر كبير . . وقد أصبح جمالها أجوف لا يحمل أى معنى من معانى الصدق . . . وعليهم أن يتركوا وراءهم ظهرياً كل ماتعودوا أن يعدوه مثلاً عليا للأدب . . . وأن لايسعوا إلى بلوغ العظمة أو الخلود . . بل إن الجمال نفسه يجب أن لا يكون غايتهم فإن له معايير كثيرة تختلف بعدا وقربا زمانا ومكانا ويضل به من يعتمد عليه وحده .. أما الصدق فلايضل بهأحد.وكل مايفسده يقضى على حياة الفكر المحض . . . . »

ملاحظة :

وقد يلفت النظر أن الدكتور كامل حسين — حين تحدث عن إعجاز القرآن فى كتاب الذكر الحكيم : تكلم عن قوة التعبير وضرب مثلا بعبارة — الله أكبر — وما تدل عليه من المعانى وقال : « ولو حاولنا ترجمة هذه العبارة ترجمة حرفية مادلت الترجمة على شئ من هذه المعانى : » وقد قال البعض إن الدكتور كامل حسين لايرى ترجمة القرآن الكريم ترجمة حرفية لإنها لاتؤدى المعانى التى يؤديها النص العربى الكريم . .

وإذا صح أن يكون هذا تعبيرا عن رأى للدكتور كامل حسين فى عدم جواز ترجمة القرآن الكريم ترجمة حرفية فإنه يكون قد أصاب الحق وانتهى إلى الرأى الصحيح . . . فإن ترجمة القرآن تصدق بمفهومين الأول الترجمة الحرفية للنص العربى المنزل من عند الله ، وهذا غير ممكن ولم يقل به أحد ممن درسوا الموضوع وقت أن ثار التفكير فيه ؛ لأن القرآن أساس للتشريع الإسلامى وأحكامه وقواعده ومبادئه التى تتعلق بتنظيم حياة المجتمع الإسلامى فى مختلف جوانبها وربط علاقاتهم ببعضهم وبربهم وبغيرهم من المجتمعات الأخرى من جميع النواحى وفى أوقات الحرب والسلم . والألفاظ العربية لها معانيها ومدلولاتها واحتمالاتها وتوجيهاتها التى ترتبط بها الأحكام والقواعد والمبادئ التى تكون محل اجتهاد المجتهدين واستنباطهم واختلافهم واتفاقهم . وذلك فضلا عن جانب الإعجاز اللفظى والمعنوى المرتبط بالنظم العربى . . الترجمة الحرفية ليس فيها شيء من ذلك كله وقد اتفق المسلمون على عدم جوازها . وقد أصدرت بعض الدول غير الإسلامية ترجمات للقرآن كانت مسخا وتشويها وتحريفاً للقرآن وفيها أخطاء كثيرة جداً .

والقسم الثانى ترجمة معانى القرآن بأن تؤلف لجنة من المختصين لوضع تفسير مختصر للقرآن يعتمد الصحيح والراجح

والأقرب مما فيه خلاف . ثم تؤلف لجنة على هذا الأساس لترجمة هذا التفسير . . وهذا ممكن وجائز بالاتفاق ، وقد قامت بعض الدول الإسلامية بإصدار ترجمات من هذه النوع . . ويفكر الأزهر فى عمل ترجمة دقيقة صحيحة لمعانى القرآن ونشرها لتكون بمثابة الأصل الذى يرجع إليه عند الاختلاف بالنسبة لما صدر من ترجمات المعانى .

ملاحظة اخرى :

يرى الدكتور كامل حسين عـــدم جواز تفسير القرآن تفسيراً علميا . لأن مقررات العلم خاضعة لسنة التطور والتجديد . وقد يؤديه ذلك إلى أن يلغى اليوم ماقرره بالأمس ، بعد أن يكون التفسير العلمى قد أثبته وقرره فى تفسير بعض الآيات ، الأمر الذى يثير الشك فى سلامة وصحة مايقرره القرآن ويأتى به : وأعتقد أن عالمنا العظيم يريد بالمقررات العلمية التى تحتمل الإلغاء والبطلان المقررات النظرية التى لم يقم عليها الدليل القاطع الذى يفيد العلم واليقين . أما المقررات التى أصبحت حقائق ثابتة وقامت عليها الأدلة القاطعة . فإنها ليست عرضة للإبطال والإلغاء ، ومن ثم يمكن أن يشار إليها فى تفسير الآيات الكونية والتنويه بأن القرآن سبق العلم فى تقرير ذلك :

والقول بعدم جواز تفسير القرآن تفسيراً علميا بإطلاق دون تفصيل يبين ما يكون عرضة للإلغاء والإبطال من مقررات العلم ومالا يكون كذلك ، يعيد إلى الأذهان ما كان يردده بعض الباحثين من مجافاة الدين للعلم مما لا أساس له ، فإن الدين قد مجد العلم ورفع من شأن العلماء «هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» . . «وإنما يخشى الله من عباده العلماء». وقد دعا الدين إلى تعلّم العلم وحث عليه — ولا نقول مع القائلين إن العلم الذى يدعو إليه الدين هو علم الدين وما يتصل به ويعين عليه — كعلم التفسير والحديث والفقه والتوحيد وأصول الفقه — وإنما نقول هو كل علم يرقى بحياة الإنسان وينفع الإنسان ويسير به و بحياته قدما مع ركب الحياة والحضارة والتقدم العلمى الحضارى .

والله تعالى حين أراد أن يستخلف الإنسان فى الأرض لعمارتها واستخدام ماأودعه فى الكون من أسرار وعجائب ومكونات لمصلحة الإنسان والارتقاء بحياته ، أشارت قصة القرآن الكريم فى ذلك إلى أن أساس الصلاحية للاستخلاف هو العلم والقدرة على تحقيق العمارة ،وتفهم أسرار الكون، ثم الإيمان بخالق الكون ومبدعه . وتلك هى غاية الدين وهــذا هو أساســه العريض : الإيمان والتوحيد والتنزيه :

وقد نجح الإنسان فى خلافته وعمر الأرض وأثار الحياة زاخرة فى جوانبها ، وكشف بالعلم والاختراع كثيراً من أسرارها وعجائبها، وامتد الإصلاح إلى كل ركن فيها . . . وصعد الإنسان إلى القمر بوسائل العلم وآثار العلم ، ونزل على سطحه ونقل إلى الأرض بعضاً مما يحتويه : وهو يواصل الآن أبحاثا عن الحياة فى القمر ونوع هذه الحياة ومدى ما يمكن أن تكشف عنه أو يترتب عليها من آثار ، وما عسى أن يكون على صلة بالعوالم الأخرى . . . وسواء أراد القائمون بهذا العمل العلمى العظيم أم لم يريدوا أو أنه لم يكن من قصدهم ولا من تفكيرهم ، فستنتهى البشرية إلى الإيمان بخالق الكون كله وما فيه من أسرار وعجائب ومكنونات ، وأنه إله واحد خالق بر مدبر قادر ، وهذا الإيمان هو دعوة الدين وغايته : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله . » وذلك ما أدى إليه العلم ؛ فالعلم يخدم الدين ، والدين يدعو إلى العلم ويفتح آفاقه ويحض على تعلمه . . وفى مجال الحقائق الثابتة لن تكون بينهما مجافاة ولاتناقض فليس من منطق الدين أن نمنع تفسير القرآن الكريم تفسيراً علمياً فى نطاق الحقائق الثابتة . وليس من منطق العلم أن نباعد بينه وبين الدين فى هذا النطاق .

احمد هريدى

عضو المجمع



كلمة الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

فى استقبال الدكتور



السيد رئيس المجمع : السادة الزملاء ! لقد كان من مقضى إرادة الله . مقلب الليل والنهار ، أن تنفض تركيا يديها من العالم العربى والإسلامى ، منذ امتدت يد كمال أتاتورك إلى الخلافة الإسلامية ، فقضى عليها . كما قضى على السلطنة العثمانية سنة ١٩٢٤ . وبكى كثير من الباكين الخلافة وعلى رأسهم شاعرنا العظيم أحمد شوقى حين قال من مرثيته الرائعة :

عادت أغانى العرس رجع نواح
ونعيت بين معالم الأفـراح
ضجت عليك مآذن ومنابر
وبكت عليك ممالك ونواحى
الهند والهة ، ومصر حزينة
تبكى عليك بمدمع سحاح
والشام تسأل ، والعراق ، وفارس
أمحا من الأرض الخلافة ماح ؟

وعلى الرغم مما قام بين العرب والترك من صراع على أثر الانتفاضات العربية الواعية فإن بعض عقلاء الترك — وعقلاء الأمم عادة هم علماؤها — صرحوا بفضل العرب وتأصلهم فى الحضارة ، إذعانا للحق الذى لاينكره إلا مكابر. كالذى كتبه الباحث الأديب التركى المنصف : سليمان نظيف ، فى مجلة الاجتهاد التركية سنة ١٩١٣ قائلا : (إن العرب هم الذين أرشدونا إلى سواء السبيل .وهم أساتذتنا الممدنون بل هم كل شئ بالنسبة لنا . حتى إذا أعدنا للعرب ماأخذناه منهم ، فلا يبقى لدينا إلا جبة ذات أكمام طويلة . .)

ولقد استمرت صلتنا بالأتراك منذ الفتح العثمانى لمصر أكثر من أربعة قرون ، تركوا خلالها — فينا وفى العالم العربى كله — كثيرا من طابعهم وألوان طعامهم وألفاظ لغتهم ، وإن كنا بدأنا اليوم ننقى لغتنا العربية ونحررها من كل دخيل ، إلا ماتقضى به ضرورات التقدم العلمى الحديث .

وليس عجيبا أن يقوم شاعر تركى هو « عاشق زاده » . فى القرن الرابع عشر

الميلادى ، فيشكو انصراف الأدباء الأتراك عن اللغة التركية وازدراءهم إياها ، وعدولهم عنها إلى الفارسية ، ثم يجىء دارس مصرى فى أخريات القرن الرابع عشر الهجرى ، ليهتم باللغة التركية ، ويجعلها مجال تخصصه ، وميدان دراسته . ألا ماأعظم الفرق أيها الزملاء بين الموقفين !

ومن هنا نفرح أن طرق علينا باب مجمعنا العربى متخصص فى اللغة التركية لأنه سيفتح أمامنا أبوابا للبحث فى تاريخ الأتراك وحضارتهم ، وتطور الفكر واللغة والحياة الروحية عندهم :

وإذاكنا نقيم وزنا لعدد من اللغات الأجنبية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، لأهميتها لنا فى مجالات كثيرة : علمية وأدبية ، فهل غريب أن نقيم وزنا للغة شرقية ربطت الأقدار بيننا وبين أهلها زمانا طويلا؟ حتى لقد كان منهم علماء سجلوا تراثنا الفكرى العربى وأحصوه إحصاء دقيقا ، كالذى صنعه فى القرن الحادى عشر الهجرى — السابع عشر الميلادى « حاجى خليفة » صاحب (كشف الظنون) ، ولا أزيدكم به علما ، وكالذى يصنعه اليوم عالم تركى مستعرب حين كتب بالألمانية (تاريخ التراث العربى) فى بضعة أجزاء ضخام ، ظهر منها فى الترجمة العربية جزآن ، فأربى على بروكلمان واستكمل نقصه وغطى عليه **بمابذل من مجهود تنوء به العصبة أولو القوة.**

وقد يكون عمل العالم التركى هذا :

« فؤاد سزكين » فى (تاريخ التراث العربى) دينا فى أعناق العرب جميعا ، لايجزئ عنه إلا أن يكون بيننا — فى مجمعنا العربى — دارس باحث مصرى عربى متخصص فى اللغة التركية وآدابها ، وتراثها الصوفى حتى نرد لعلماء الأتراك المستعربين بعض الجميل ، وحتى نؤكد حبنا لعلاقات الحب بين الشعوب .

ولكن هذا الزميل الجديد الذى دخل مجمعنا بعد ماإستأنس وسلم على أهله ثلاث مرات ، لم تلفته اللغة التركية عن لغة آبائه العرب ، فهو حفى بها ، متمكن فيها منذ أن كان طالبا ناشئا فى مدرسة المنصورة الثانوية .

وللمنصورة فى نفسى ذكريات ليس هنا مجال عرضها ، ولكن الطالب المنصورى القديم ، والزميل الجديد لى ولكم ، فى هذا المجمع ، أبى إلا أن يثير فى نفسى بعض ذكريات تصلنى به . والزميل الجديد الدكتور أحمد السعيد سليمان أستاذ اللغات الشرقية بآداب القاهرة ورئيس القسم فيها ، هو نفسه الذى ذكرنى ببعض ذكريات محاها الزمن من ذاكرتى ، ولكنها بقيت فى ذاكرته زاهية اللون . فقد كنت مدرسا فى المنصورة الثانوية ، ولا أذكر اليوم — بعد أكثر من أربعين عاما — لون سترة كنت أرتديها ، فقد أنصلت السنون

كل لون فى عينى ؛ ولكن التلميذ أحمد السعيد يذكرنى الآن بلون سترتى ، وبطرازها الإنجليزى المميز ! فقد كانت مما حملته معى من انجلترة بعد عودتى من البعثة فيها . . .

ويزيد الدكتور أحمد السعيد فيذكرنى بأنى دخلت فصله يوما — لا مدرسا أصليا — ولكن بدلا من زميل غائب ، ودرست للطلاب شيئا من الأدب الحديث ، وكان مقررا عليهم ، ويذكرنى بما رويته لهم من أبيات زجلية قالها عثمان بك جلال — صاحب « العيون اليواقظ » ومترجم لافونتين إلى العربية شعرا — قالها حين تعمد الوزير رياض باشا أن يفوت عليه الترقية فبعث إليه ببرقية شكوى من الشعر العامى يقول فيها :

الخير على كل الناس فاض
ماعادش حد الا استكفى
واشمعنى أنا ياسى رياض
وقعت من قعر القفه ؟

هذا ماذكرنى به اليوم تلميذى العابر د . أحمد السعيد سليمان حين جلست معه من أيام نتذاكر الماضى البعيد ونستعيد بعض صوره . وإذا كانت الظروف لم تسعدنى بأحمد السعيد تلميذا دائما فقد سعدت به تلميذا عابرا لحصة واحدة سمح بها الزمان . . . .

ولقد كان أحمد السعيد منذ أيام الطالب فى المنصورة الثانوية طالبا ممتازا ، بل كان قارئا مدمنا مكبا على كل أثر مسطور ، فكان (دودة كتب) كما يقول الإنجليز فى تعبيراتهم ، أو حلس كتب كما نقول نحن فى عربيتنا . وكان يحفظ غير قليل من الشعر القديم والحديث ، وينسبه إلى قائليه لا يخطىء فى نسبة ، ولا يخلط فى رواية ، ولقد روى مرة بيتا ونسبه إلى صاحبه لشاعرنا الرقيق محمد الأسمر ، فأنكر مدرسه — وكان أديبا — أنه للأسمر ظانا أنه لشاعر قديم ، ثم ظهر بعد ذلك أن الحق كان فى جانب التلميذ الراوية . .

وكتب طالب مرة فى موضوع الإنشاء عبارة (ولربما) فسأله مدرسه — وكأنما كان ينكر هذا التعبير — من أين جئت بهذا الاستعمال ؟ فانبرى التلميذ الراوية ليؤيد تعبير زميله بقول الشاعر أبى العتاهية :

ولربما استيأست ثم أقول : لا
إن الذى ضمن النجاح كريم

وضج الطلبة العرابيد فرحين بنصر هذا الزميل المتمكن ، على حين غطى المدرس موقفه المهزوز بقوله : (أنا لا أقع من أول قنبلة)

زملائى الأعزاء !

جرت عادة مجمعنا أن تكون الكلمات التى تقال فى استقبال الأعضاء الجدد مصدرا من مصادر الترجمة لهم وخاصة فى زمان قلت فيه الترجمة للمعاصرين أو أهملت . وشاهدنا ما كتبنا صحائفه فى لجنة

سجل الأدباء بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، التي يرأسها الزميل والأستاذ الدكتور محمد مهدى علام . ولقد أنصف المجمع حين أصدر كتاب (المجمعيون فى ثلاثين عاما) بقلم أمينه العام الدكتور مهدى علام ، فسد بذلك فراغا فى عالم التراجم ما كان لغير مجمعنا أن يسده . . . ومن هنا أترجم للزميل الجديد الدكتور أحمد السعيد سليمان ، وأعرف به فى هذه السطور :

ولد بمدينة المنصورة سنة ١٩٢٤ ، وحصل على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٣٥ من مدرسة خاصة . كما حصل على التوجيهية من مدرسة المنصورة الثانوية سنة ١٩٤٠ . ووجد من نفسه ميلا إلى الدراسات الأدبية ، فالتحق بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وتخرج فى قسم اللغة العربية بتفوق سنة ١٩٤٤ .

واشتغل فترة بالتعليم الحر فى إحدى مدارس البنات . وكانت تجربة عسيرة عليه لم ينقذه منها إلا تعيينه فى وزارة الشئون الاجتماعية موظفا فى إدارة الدعاية والإرشاد أول الأمر ، فموظفا فى إدارة الجمعيات الخيرية بعد ذلك .

وسمت به مطامحه إلى معهد اللغات الشرقية فحصل على الدبلوم منه سنة ١٩٤٧ ، وكان الأول على فرع اللغة التركية ، وحين سجل موضوعا للدكتوراه عنوانه : (الأمثال فى النثر العربى فى نهاية القرن الأول) وكتب فيه فصولا اطلع عليها المشرف الأستاذ أحمد الشايب ، كان القدر يعده لشىء آخر . . . فرشحته كلية الآداب لبعثة الدراسات التركية لأنه كان أعلى زملائه درجة فى هذه اللغة ، فسافر إلى باريس سنة ١٩٥٠ . وهنا لاقاه القدر بالدكتور طه حسين زائرا لمكتب البعثة بالعاصمة الفرنسية ، وكان يومئذ وزيرا للمعارف ، فوجهه إلى «استانبول» لجمع مواد الرسالة فى مهد تلك اللغة . . . فقضى على ضفاف البوسفور عامين إلا أربعة أشهر عاد بعدها إلى باريس ليسجل فيها موضوع الدكتوراه ، وكان يتكون من قسمين : الرسالة الرئيسية ، وعنوانها : (العقائد السرية للبكتاشية) والرسالة التكميلية ، وتتضمن ترجمة نص تركى صوفى منسوب إلى (قايغوسز أبدال) وهو المتصوف عبد الله المغاورى المدفون بجبل المقطم خلف قلعة صلاح الدين ، مع شرح النص والتعليق عليه ، وقد أشرف على الرسالة الرئيسة المستشرقان ماسينيون ، وچان ڤال . وعلى الرسالة التكميلية لويس بازان .

وعاد صاحبنا إلى مصر فى أغسطس سنة ١٩٥٦ بعد حصوله على دكتوراه الدولة من السوربون بمرتبة الشرف الأولى ، حيث عين معيدا فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ثم عين بعدها مدرسا ، فأستاذا مساعدا ، فأستاذ الكرسى اللغات الشرقية ورئيسا للقسم حيث هو الآن .

وقد وزع الدكتور أحمد السعيد سليمان إنتاجه — تأليفا وترجمة — بين التصوف والتاريخ والدراسات اللغوية . فله فى مجال التصوف الكتب الآتية : (١) العقائد السرية للبكتاشية بالفرنسية ، ولما يطبع (٢) دفتر العشاق ، وهو رسالة للصوفى عبد الله

(قايغوسز أبدال) نقلها عن التركية إلى العربية ، وقدم لها (٣) المولوية : آدابها ومراسمها مستنبطة من « المثنوى » ، بالفرنسية ونشر فى القاهرة ، وليدن (٤) وحدة الوجود وبعض الأفكار الباطنية فى الكتب التركية .

وله فى مجال التاريخ والوثائق :

(١) مخطط لتكوين أرشيف إقليمى للعالم العربى أعده للجامعة العربية بطلب منها ، وطبع ونشر فى حوليات آداب عين شمس (٢) تاريخ الترك فى آسيا الوسطى للمستشرق الروسى بارتولد ، وهو مترجم عن التركية إلى العربية (٣) قيام الدولة العثمانية للوزير السياسى المؤرخ محمد فؤاد كوبريللى ، وهو مترجم عن التركية (٤) تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، وهو فى الأصل بالإنجليزية لاستانلى لين بول — صاحب سيرة القاهرة — وابن أخت « إدوار وليام لين » وقد نقله زميلنا إلى العربية عن ترجمته التركية بقلم « خليل أدهم » العالم التركى وزاد عليه تاريخ سبع وعشرين دولة إسلامية (٥) التيارات الدينية والقومية فى تركيا المعاصرة.

أما فى مجال اللغويات ، فله : (١) أوزان الشعر الشعبى التركى وأشكاله ، وهو منشور بحوليات كلية الآداب ، جامعة القاهرة (٢) تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، وهو تحت الطبع .

وإذا كان الله قد بارك لزميلنا الجديد فى نشاطه ، ممثلا لجامعة القاهرة فى المؤتمر الدولى للمستشرقين الذى عقد فى مدينة كانبرا باستراليا سنة ١٩٧١ ، وأستاذاً للغة التركية وتاريخ الترك والبيزنطيين والمغول ، وتاريخ الدعوة الإسلامية بآسيا فى جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض من سنة ١٩٧٤ إلى سنة ١٩٧٨ ، ومشرفا على عشرين رسالة للدكتوراه والماجستير بجامعتى القاهرة وعين شمس ، تمت مناقشتها جميعا : فإننا نرجو أن يبارك الله نشاطه بيننا ، وأن يمده بروح من عنده .

أيها الزملاء .

كأن الله أراد ليوم استقبالنا هذا أن يكون يوم استقبال الربيع فى الحادى والعشرين من آذار — مارس سنة ١٩٧٩ . وكأننا كنا فى موعد مع القدر حين كنا نقلب الرأى فى هذه القاعة لاختيار يوم لحفل استقبال زملائنا (الأربعة) الجدد .. وشاء القدر أن تكون مادة (ر . ب . ع) هى الجذر اللغوى لهذا الاستقبال . . فزملاؤنا الجدد أربعة ، واليوم هو الأربعاء ، والموسم هو يوم الربيع ٢١ مارس!! موافقات والله غير متعمدة ولامقصودة ، ولكنها طريفة ، ميمونة ، مسعودة . . نرجو أن تكون ربيعا جديدا فى حياة هذا المجمع الذى نرجو أن يكون عمره ربيعا طلقا باسما ، وشبابا دائما . . .

أما أنت أيها الزميل الجديد ! فإن هذا المجمع صومعة من صوامع الفكر ، وروضة من رياض البحث والعلم ، فتحت لك أبوابها ليتلقاك خزنتها قائلين : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمد عبد الغنى حسن
عضو المجمع

كلمة الدكتور أحمد السعيد سليمان

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه

سيدى رئيس المجمع :

أيها السادة :

يرى فريق من صوفية الترك أن الصوفى يولد مرتين مرة يوم تضعه أمه ومرة يوم يلقن العهد ويقبل عضواً فى الطريقة ، ومن قواعدهم المتبعة فى استقبال العضو الجديد أن يحلقوا رأسه ولحيته وشاربه ، وربما حلقوا حاجبيه ليكون شبيها بالطفل ساعة الميلاد ، فإن سئل هذا العضو بعد ذلك كم مضى من عمره ؟ فإنه — تأدباً بأدب الطريق — يعتبر بداية حياته من يوم إجلاسه وإلباسه الزى بيد المرشد .

وها أنا أيها السادة أولد فى مجمع الخالدين بين أيدى شيوخ اللغة والأدب وأساطين العلم وفقهاء القانون .

أولد ميلادى الثانى وقد ذرفت على الخامسة والخمسين ، وشرفت بالعمل خبيراً فى مجمعكم الموقر ثمانى عشرة سنة ، كان المجمع طوالها الجامعة الرابعة التى تخرجت فيها ، فقد تقبلتمونى مدة الخبرة بقبول حسن ، وشجعتمونى بحسن الاستماع إلىّ ، وكنت أسمع مناقشاتكم ومحاوراتكم فقبست من علمكم فى قاعات المجمع مثل ما أخذت عنكم من قبل إذ أنا طالب فى الجامعة .

لقد أسديتم إلىّ من عوارف معارفكم فى ثمانى عشرة سنة ما لا أقوى على النهوض بشكره ، ثم أذن الله أن يحقق بكم أملا طالما جمجم فى الصدر ، فشرفتمونى بانتخابى زميلا أؤدى معكم فرض الخدمة تحت راية اللغة ، وأقف معكم فى المصاف أشارككم شرف الجهاد فى الدراسة والحراسة .

سيدى رئيس المجمع :

أيها السادة :

لقد صح عزمى إن شاء الله على أن أكون طوع مطالب كتابكم الباقى على الدهر . المعجم الكبير ، وعلى أن أواصل ما أنا بصدده الآن من جمع المعرب والدخيل ، وتأصيلهما إسهاما فى تيسير قراءة الكتب العربية المحررة فى العصور الوسطى ، وبخاصة فى العصر المملوكى ، فإن فى هذه الكتب طوائف من المعرب والدخيل بطل استعمالها وأغفلها أصحاب المعجمات فهى غير مفهومة للقارىء المعاصر .

نعم ! لقد أنجبت العصور الوسطى كثيراً من رجالات اللغة والأدب العربيين ،

وخرجت دواوين الإنشاء جماعة من أهل الخبرة بالكتابة الديوانية وأصحاب الكتب الموسوعية، ولكن اللغة التركية رغم هذا علت علواً جعل بعض علماء اللغة من العرب يحرصون على معرفتها ، وكما كان اللغويون الأولون يخرجون إلى البادية ليجمعوا اللغة من أفواه البدو ، خالط هؤلاء اللغويون العرب فى العصر المملوكى الأتراك، وتلقفوا التركية من أفواههم ثم أعملوا فيها أذهانهم فاستنبطوا نحوها وصرفها، ولئن كان أول معجم تركى وهو « ديوان لغات الترك » لمحمود الكشغرى قد وضع فى بغـداد سنة ٤٦٦ هـ ، وقدم للخليفة العباسى المقتدى فإن أول كتاب فى نحو اللغة التركية وصرفها قد وضع فى القاهرة ، ولم يكن واضعه تركياً كالكشغرى ولكن عربيا نحويا مفسرا للقرآن الكريم هو أبو حيان الأندلسى المتوفى سنة ٧٤٥ هـ :

يقول أبو حيان فى مقدمة كتابه «الإدراك للسان الأتراك » . .وقد ضبطت هذا اللسان حرفاً حرفاً ، ورتبت الكلام فى اللغة على حروف المعجم باللسان التركى فأذكر اللفظة التركية وأتبعها بمرادفها من اللغة العربية ثم أردفه بعلم التصريف ثم بعلم النحو، فما كان فيه من علم اللغة فمأخوذ عمن أثق به فى باب النقل ولى فيه الترتيب الغريب والتلخيص العجيب وما كان فيه من علم التصريف ومن علم النحو فهو مما لم أنسج فيه على منوال ، بل استخرجته من القوة إلى الفعل بالتطلب والتسآل فبلغت بلطيف الإدراك إلى أحسن مَتراد وحصلت بكثرة السؤال أوفر مطلب وأوفى مراد وجنيت من رياض هذا اللسان فوائد ألذ من الجنى واستخرجت من بحار علومه فرائد هى غاية المنى .. ثم قال : « وماوجدته فى كتابى هـذا مضبوطاً ورأيت من يتكلم بلسان الترك يخالفه فى زيادة حرف أو نقصه أو تغيير حركة بحركة أو تحريك مسكن أو تسكين محرك أو غير ذلك، فلتعلم أن ذلك منه لحن فى هذه اللغة إذ قد تغير كثير منها بهذه البلاد لمخالطة المستعربة وغيرهم من الأعاجم » :

وبعد كتاب أبى حيان ظهر كتاب ثان : هو كتاب « القوانين الكلية فى ضبطة اللغة التركية » لمؤلف مجهول ، يقول فى مقدمته : «وأنا أسأل الناظر فيه أن يسبل على ذيل فتوته ، ويغض عما يقع فيه من الخطأ عين مروته فإنه كما يقال من صنف فقد استهدف ومن ألف فقد استشرف وأن يقيم عذرى فى ذلك فإنى لست من الترك ولا أولادهم ولم أرحل إلى بلادهم وإنما اعتمادى على السماع منهم لكثرة مخالطتى بهم ومعاشرتى إياهم».

هذا فى العصر المملوكى : فلما كان الفتح العثمانى جعلت اللغة التركية لغة رسمية وغلب استعمالها على استعمال اللغة العربية فى الدواوين :

حتى إذا كان حكم محمد على شرع فى كتابة القوانين والتعليمات باللغتين التركية والعربية ولكن النص التركى كان يقدم على النص العربى ، ومع أن اللغة العربية بدأت تسترد مكانتها فى عهد أولاد محمد على ظل الديوان الخديوى يراسل الدواوين المصرية باللغة التركية حتى سنة ١٨٧٩ ، وبعد عشرة أعوام من ذلك التاريخ كادت القطع المحررة باللغة العربية فى الديوان الخديوى تتعادل — كما لاحظ جان دنى — مع القطع المحررة باللغة التركية ، ثم توالت انتصارات اللغة العربية ففى سنة ١٩٠٤ كان عدد القطع المحررة بالتركية أقل من عدد القطع المحررة باللغة العربية :

ولكن الديوان الخديوى التركى لم يلغ إلا بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى .

ولقد أدى شيوع اللغة التركية فى العصر المملوكى ثم غلبتها على اللغة العربية فى العصر العثمانى إلى دخول كثير من الكلم التركى فى اللغة العربية ، ولما كان الترك قد تركوا كثيراً من الألفاظ الفارسية فقد دخلت مع الكلمات التركية الخالصة كلمات فارسية بعضها كان عُرب ، من قبل الإسلام وبعضها لم يكن عُرب ، فأما مالم يكن عُرب فغير مدرج فى المعجمات العربية هو وكل الكلمات التركية وأما ما كان عُرب قديماً فقد أعيد تعريب بعضه بقواعد جديدة .

ولأضرب لكم مثلا كلمات أعيد تعريبها : كان العرب قد عربوا كلمة چنك بالجيم المشربة والكاف الفارسية بكلمة صنج ، فجعلوا الجيم المشربة صادا والكاف جيما عربية وتصرفوا فى هذه الكلمة حتى قالوا فى الأعشى إنه صناجة العرب فلما دخلت كلمة جنك فى اللغة العربية مرة ثانية فى العصر المملوكى ضمن الكلم التركى عربت بجعل الجيم المشربة جيما عربية وبجعل الكاف الفارسية كافا عربية فقالوا جنك واستعملت بهذه الصيغة فى بعض الأشعار الركيكة مثل :

لاجنك لى تضرب أوتاره
إلا ثناء يملى على جنكلى

ومثل :

بعثت لهم بجنكى بعد هذا
لأقتلهم بأطراف الأنامل

وكان العرب قد عربوا الكلمة الفارسية چادر بكلمة شوذر أى الخيمة والملحفة والإزار فلما دخلت هذه الكلمة ثانية مع الكلمات التركية قالوا فيها شادر بالألف والدال المهملة .

فلما عربوا الكلم التركى فى العصر العثمانى عربوه على قواعد غير التى عربت عليها الألفاظ الفارسية فقالوا مثلا فى الكلمة التركية چرچوه لك الشركفلك فقلبوا الجيم المشربة الأولى شينا والثانية كافا والشركفلك بيت خشبى مصفح يوضع بداخله نوع من المدافع فى أثناء الحرب .

وقد وقع مثل هذا التغيير فى كلمات تركية أخرى فقد لوحظ قلبهم الهمزة المفخمة عينا والباء المعقودة باء عربية موحدة والياء

المحركة بالضم فى أول الكلمة همزة مضمومة أو مكسورة فقد قالوا إلداش وأولداش فى الكلمة التركية يولداش .

وكلما زاد وقوفنا على ما عرب فى العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث زاد علمنا بتطور قواعد التعريب .

سيدى رئيس المجمع :

أيها السادة :

لقد زدتمونى شرفا حين بوأتمونى كرسياً كان يقتعده العلامة اللغوى الدكتور إبراهيم أنيس .

ولد رحمه الله فى القاهرة سنة ١٩٠٦ ، وحصل على دبلوم دار العلوم سنة ١٩٣٠ ، واشتغل بتدريس اللغة العربية فى المدارس الثانوية وفى سنة ١٩٣٣ فاز فى مسابقة عقدتها وزارة المعارف لاختيار أعضاء لبعثة دراسية فى أوربا فأشخص إلى لندن فحصل من جامعتها على بكالوريوس الشرف ثم على درجة الدكتوراه ، فلما عاد عين مدرساً بدار العلوم فكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ثم أعيد إلى دار العلوم ومازال يرقى حتى حصل على الأستاذية وتقلد العمادة مرتين ، ثم انتخب عضوا عاملا بالمجمع وشارك فى لجنتى المعجمين الكبير والوجيز ورأس تحرير مجلة المجمع .

وقد وقف رحمه الله حياته على الدراسات اللغوية التى تخصص فيها فأنتج فيها كتباً ذائعة الصيت تخرج عليها جيل من أساتذة فقه اللغة بالجامعات المصرية وقد قرأت منها ستة كتب : الأصوات اللغوية (٢) اللهجات العربية (٣) موسيقا الشعر (٤) من أسرار اللغة (٥) دلالة الألفاظ (٦) مستقبل اللغة العربية المشتركة .

ولما كان الوقت لا يتسع للحديث عن هذا الإنتاج الغزير فأرجو أن يؤذن لى بكلمة عن إبراهيم أنيس من كتبه .

تشهد هذه الكتب بأنه رحمه الله قد أوتى خصلتين تكفلان له خلود الذكر فى عالم الدراسات اللغوية .

الأولى : هى الغيرة على اللغة العربية فقد كان رحمه الله أول من دعا إلى إيجاد نطق نموذجى ينشر فى جميع بلاد العرب تمهيدا لوضع اللغة النموذجية المشتركة ، ولم يقنع بالدعوة بل وضع للمشروع خطة محكمة ومفصلة تشمل إعداد المدرسين واستغلال الإذاعة وتوجيه السينما والمسرح والاستعانة بالسلطة التشريعية للقضاء على سلطان اللهجات المحلية فلا تستعمل فى المدارس ولا الإذاعة ولا دور الخيالة والمسارح .

والخصلة الثانية : هى الشجاعة فقد كان رحمه الله يرى الرأى لا يراه أحد غيره فلا يكتمه بل يجهر به فإذا هو كتاب ففصل من كتاب ، فمقال مختصر . ولكنه فى شجاعته

وأستمساكه برأيه سمح رحب الأفق ، حلو لا تعتريه مرارة قد تخالفه الرأى ولكن لا يسعك إلا أن تشهد له بنبل القصد وبوضوح الأسلوب وجمال العرض ، وأشهد ما قرأت له كتاباً أو مقالا إلا أحسست كأنى أجالسه وأستمتع بحديثه .

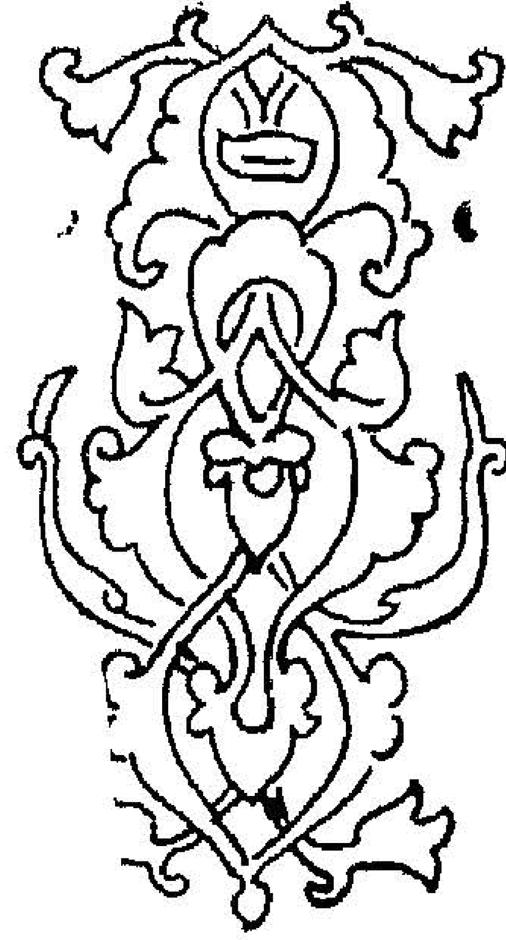
لقد قضى حياته عالما مجتهدا ، يؤلف ويحاضر ، ويأتى بكل جديد ، فيكتب له أجر **الاجتهاد ثناء وموحداً ، رحمه الله رحمة واسعة :**

وبعد فإنى لم أوت من البيان ما أستطيع به الوفاء بحقكم من الشكر فشكر الله لكم ورزقنى وإياكم السداد فى القول والعمل .

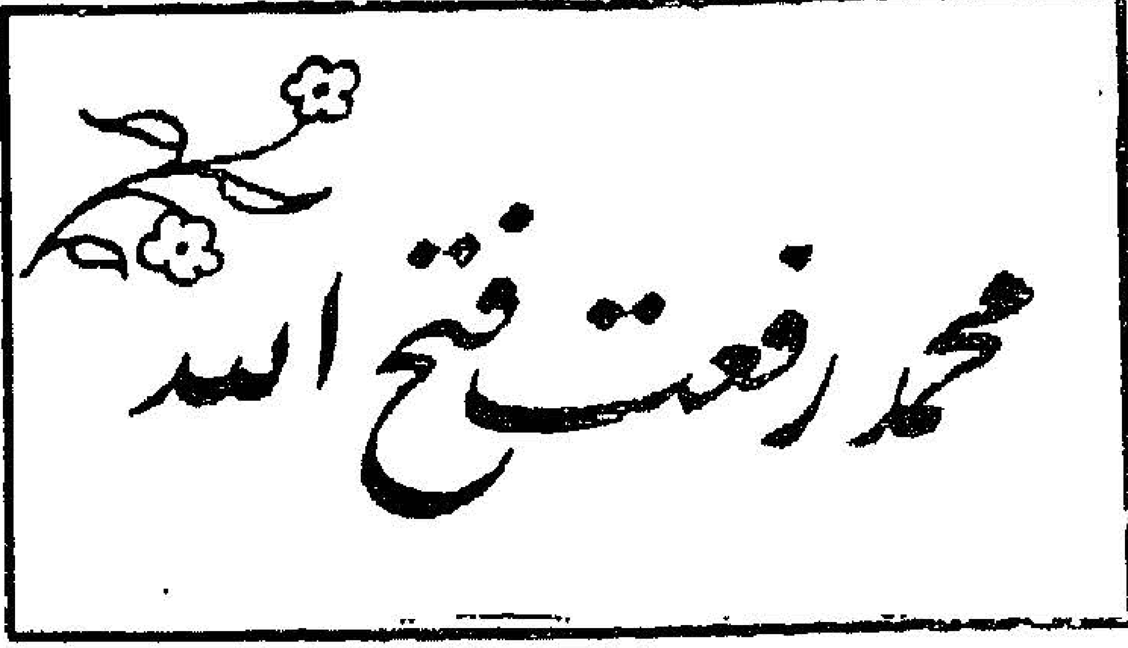
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أحمد السعيد

عضو المجمع



فى استقبال الدكتور الشيخ



من الناس من يجمع بيننا وبينه عمل مشترك أو تصلنا به صلة ما من صلات الحياة العاملة ، فى صورها المختلفة ، ومطالبها المتجددة ، ثم لا نكاد نعرف عنه إلا ظاهرا من الأمر أو يسيرا من الواقع ، لا يقام له وزن ، ولا يعلق به طرف ، فكأننا منه ، وكأنه منا فى اغتراب ، أو كأنما ضرب بيننا وبينه بحجاب .

ومن الناس من لا نلقاه ، ولا تصلنا به صلة ، ونحن مع ذلك نعرفه فى فكره ورأيه وإن لم نعرفه فى شخصه وسمته . وخير ما فى المرء فكره ورأيه ، فبهما يوزن ، وبهما يكون التفاضل والترجيح بين الناس .

وكنت امرأ ليست له من قبل صحبة بالشيخ الدكتور محمد رفعت ، ولا جمعتنى وإياه مشاركة فى عمل ، لكنى مع ذلك كنت أسمع اسمه يتردد ، وعلمه يوصف ، كلما ذكرت كلية اللغة العربية أو دار حديث عن علماء العربية المعاصرين . فحبب إلى لقاؤه ، ونازعتنى النفس إلى صحبته .

وشاء الله أن نلتقى مرة أو مرتين فى مجلس كلية اللغة العربية ، فرأيت شخصه ، واستمعت إليه ، يعرض رأيا ، أو يعقب بملاحظة ، فتجلت لى شخصيته ، ومواهب ذهنه كما برأه الله تعالى ، فهو من أولئك الذين يرى باطنهم فى ظاهرهم ، ويعبر كلامهم عن خصائصهم ، كما يعبر عن أفكارهم وخواطرهم ، فتذكرت قول القائل :

تطابق الخبر فى رؤياه والخبر
وصادق السمع فى أوصافه البصر

وظلت شخصيته من بعد حاضرة لدى تتمثل لى حينا بعد حين ، ثم اختاره المجمع خبيرا فى لجنة الأصول ، وقرأت بحثين له قدمهما إلى اللجنة ، فازددت علما به وإكبارا له . ثم كان انتخابه عضوا فى المجمع ووكل إلى أن أقدمه إلى السادة المجمعيين ، فكانت الرغبة المرجاة ، والفرصة المواتية : أنى عرفته عن كثب ، ومن طريق قاصدة ، عرفان إحاطة وشمول ، لا عرفان مقاربة واكتفاء .

عرفت أنه قاهرى مولدا ونشأة وحياة ، وكان مولده عام ١٩١٢ ، واستقبل حياة الدراسة بمثل ما كان يستقبل به أبناء جيله ، فحفظ القرآن الكريم ، ثم لحق بالأزهر

الشريف ، يتلقى فيه علوم الدين واللغة ، ثم يمضى صعدا فى الطلب والدرس ، وينال درجاته العلمية تباعا ، فنال الشهادة العالمية من كلية اللغة العربية عام ١٩٣٧ ، ثم نال العالمية أو الدكتوراه بامتياز عام ١٩٤٤ ، وتولى فى هذا العام التدريس فى الكلية ثم مضى قدما فى مراحل التدريس حتى رقى إلى درجة أستاذ عام ١٩٦٨ ، ثم وكلت إليه رياسة قسم اللغويات فى الكلية إلى أن أحيل إلى المعاش. لقد أتيح إذن للشيخ الدكتور محمد رفعت أن يدرك طرفا من حياة الأزهر فى أيامه الخالية ، حين كان ينهج فى الدرس والبحث نهجه المتميز ، الذى عرف به وأضيف إليه . أدرك أشياخه — رضى الله عنهم — يشتدون فى طلب الحقيقة من نصوصها المنثورة هنا وهناك ، فى بطون الشروح والحواشى ، يتخللها أو يسامتها تنبيه على غائب أو استدراك لفائت ، ثم لا يزالون ينظرون فى أطوائها ، ويستخرجون دقائقها ويوجهون مسائلها إلى كل وجه ، وعلى كل احتمال :

وليس يفوتهم أو يغيب عنهم أن ينقدوا العبارة لفظا ونظما ، ويوسعوها تفسيرا وتحليلا فى دراسة بارعة ، ومناقشة واعية ، يتعاقبون فيها أخذا وردا ، وإثباتا ونقضا ، حتى ما يكادون يتركون وراءهم لقائل فيها مقالا .

نعم رأى الشيخ الدكتور طرفا من هذه الحياة ، ثم مضى مع الجامع العتيق ، وهو يأخذ بأسباب التطور والانتقال من حال إلى حال . وقد أفادته هذه الصحبة المتجددة خبرة واعدة ، وتجربة ناضجة ، استقام له معهما أن ينظر فى العربية نظرا ثاقبا ، وأن يقول فيها مقالة عالم متمرس ، وباحث مجرب .

ثم أينعت الثمرة وطاب جناها ، فإذا طائفة متتابعة من المقالات والبحوث والمحاضرات ، منها ما هو موضوعى ، يدرس ويحقق ، ثم يعرض ويقرر ، ومنها ماهو نقدى ، يتعقب المشكلات ويقرر لها الحلول .

تظاهره بينات شاهدة ، ومنطق قويم :

ولعل أدل محاضراته عليه ، وأبينها لكفايته وخصب قريحته — محاضرته العامة فى قاعة الشيخ محمد عبده ، وكان عنوانها : « الثورة اللغوية » لايتبدل فى العنوان بلفظ الثورة لفظا غيره ، من نحو الإصلاح والتقويم ، كأنما كان يحس أن أمر اللغة يوم ذاك لم يكن يصلح له أو يغنى فيه إلا الثورة فى حماستها ، واشتعال حميتها ، فهى وحدها الفيصل الحاسم والعلاج لا هوادة فيه ولا بقيا معه :

وله محاضرة أخرى عامة ، نقد فيها الدعوة إلى الحروف اللاتينية ، والأخذ بها مكان الحروف العربية ، وبين عاقبة الاستجابة لهذه الدعوة على ماضينا المجيد ، وتراثنا الثقافى العريق . وله بحث عنوانه : علاج الكتابة العربية ، الهدزة الحيرى تحدث فيه

عن الهمزة ودقة مسالكها . واضطراب صورها ، وتعدد طرائق رسمها ، وخلص من ذلك باقتراح أن ترسم على صورة الألف المهموزة فى جميع أحوالها ، وعزز اقتراحه هذا بعدد كبير من أقوال علمائنا الأولين .

وله بحوث أخرى فى النحو والنقد اللغوى منها ما نشر فى المقتطف ، ومنها ما نشر فى السياسة الأسبوعية ، ومنها ما نشر فى مجلة المجمع . وله مقالات فى الأصوات واللغة نشر بعضها فى المقطم ، وبعضها فى البلاغ وبعضها فى الأهرام ، وله قصة عربية عنوانها «عطر المنصور» وقد نشرت فى مجلة الرسالة وقصة أخرى مصرية ، وعنوانها «مغفل» وقد نشرت فى مجلة الاستديو .

وله أحاديث فى الإذاعة ، تناولت بعض قضايا الأدب والتاريخ والأخلاق . وقدم إلى لجنة الأصول بالمجمع بحثا عن اسم المصدر وآخر عن نحو قول القائل: أنا كرئيس أرى كذا .

وأشرف على طائفة من الرسائل الجامعية فى بعض فروع اللغة .

وجاوزت شهرته العلمية حدود مصر فدعى للمحاضرة فى كل من جامعة بغداد وجامعة بنى غازى وجامعة أم درمان ، ثم جامعة الإمام محمد بن سعود فى الرياض نشاط علمى مبارك طيب ، يتناول ألوانا من الثقافة العربية ، ويدل على رحابة الأفق ، وتعدد الملكات

أما بعد ، فيأيها السادة المجمعيون . اليوم يقدم عليكم فى شخص الدكتور الشيخ محمد رفعت عالم متمكن ، وباحث محقق . وسيكون لكم منه كل ماترتجون من جهد مخلص ومشاركة جادة ، إن شاء الله تعالى . ويومئذ ترون عيانا أنكم وفقتم فى الاختيار ، وآتيتم ثقتكم عالما هو أهل لها وجد يربها .

وأنت أيها القادم الكريم ، أهلا بك ومرحبا بين زملائك من حماة العربية وأصحاب سرها فهيا إليهم ، وتبوء مكانك بينهم ، راشدا موفقا ، وراضيا مرضيا .

على النجدى ناصف
عضو المجمع



كلمة الدكتور الشيخ محمد رفعت فتح الله

أيها السيد الرئيس :

أيها السادة :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

(أما بعد) فإنى أحييكم أطيب تحية ، وأقدم أجزل الشكران ثلاث تقديمات :

أشكر السيد الرئيس والسادة الأعضاء اختيارى لأكون عضوا بمجمع اللغة العربية العظيم .

وأشكر السيد العالم الأستاذ على النجدى ما أسبغه علىّ — فى تقديمى — من الكلم الطيب ، والأدب العالى .

وأشكر السادة حاضرى المجمع لحفل الاستقبال فى هذا اليوم حضورا يطيب به الاستقبال ويكتمل الاجتماع .

ولست أنسى ذكر العالم الكبير الراحل الدكتور محمود توفيق حفناوى الذى أخلفه فى مكانه بالمجمع ، وقد خلف هو الأستاذ الجليل العالم الراحل الشيخ إبراهيم حمروش فى مكانه بالمجمع من قبل ، فصار لى من شرف الذكرى مايشجعنى على القيام بالعربية فى هذا المكان .

ولد الدكتور حفناوى فى أواخر القرن الماضى سنة أربع وتسعين ، ثم عرف أول هذا القرن الحاضر طريق العلم بمدارسه حتى نال الشهادة من مدرسة الزراعة العليا سنة سبع عشرة ، ثم بعث إلى الخارج سنة إحدى وعشرين ، ونال من شهاداته مايشهد بعلمه ، ثم رجع إلى القاهرة فاختير مدرسا بمدرسة الزراعة العليا سنة أربع وعشرين ، ثم صار ناظراً لها سنة ثلاثين وتحول عميدا لكلية الزراعة بسنة خمس وثلاثين ، فكان أول عميد لهذه الكلية ، ثم صار وزيرا للزراعة سنة تسع وثلاثين ، ثم ترك الوزارة واشتغل بأعمال توافق علمه حتى اختير ليكون عضوا بالمجمع سنة اثنتين وستين ، وقد ألف كتابا فى علم النبات ومؤلفات أخرى بالعربية وغيرها ، فبقيت مؤلفاته نورا للراجعين إليها ، وكان رائدا للبحث العلمى الزراعى حتى وافته المنية سنة سبع وسبعين ، فجزاه الله عن العلم خيرا .

وإذا كان مجمع اللغة العربية قد استقبلنى مع زملائى — بما جرت به عادته من حسن

الاستقبال ، فإنى أستقبل فيه – بصفة مجمعية محبوبتى : اللغة العربية .

ومجمع اللغة العربية هو حصنها ومأمل أبنائها ، يقيها إصابة الأعاصير التى تهب من الأعجميات المتكاثرة والعاميات المتناثرة ويؤتيها المباحث فى النماء ، والمراقى فى السماء .

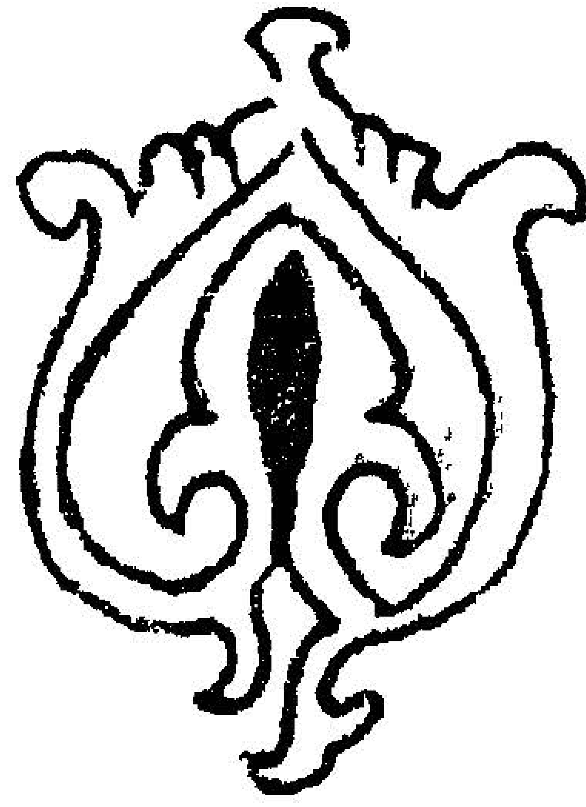
وقد استقبلت اللغة العربية – من قبل – فى محاضراتى بمصر والسودان والسعودية والعراق وليبيا ، وفى مقالاتى بمجلة المجمع وصحيفة الأهرام وغيرهما .

وكذلك أعلنت بالثورة اللغوية ، ليتنبه أهل اللغة العربية على ماتحتاج إليه لغتهم من التصفية والتنمية .

والسلام عليكم ورحمة الله

محمد رفعت فتح الله

عضو المجمع



في الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٧ من ذى الحجة ١٣٩٨ هـ (الموافق ٨ من نوفمبر ١٩٧٨ م) أقام المجمع حفل تأبين المرحوم صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ على الخفيف عضو المجمع .

وفيما يلى ماالقى من كلمات فى الحفل :

كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

فى تأبين المرحوم الأستاذ الشيخ



سيداتى ... سادتى ...

أودع اليوم على الخفيف الأستاذ ، فقد تتلمذت له منذ نصف قرن أو يزيد . تتلمذت له فى معهد لم يقدر مع الأسف حق قدره ، ولم يترك سائراً فى طريقه بل تحزب ضده المتحزبون ، وتألب الخصوم والمعارضون ، وقضوا عليه ولما يمض على نشأته عشرون عاما ، وأعنى به مدرسة القضاء الشرعى التى أريد بها أن تجمع بين القديم والجديد ، وأن تلائم بين الماضى والحاضر ، تجمع فى تحد تام وتقدير صحيح ، وتلائم فى اختيار سليم وتوفيق حكيم ، فلا تأخذ بالقديم لمجرد أنه قديم ، وفيه ولاشك الزائف والباطل والخرافة والأسطورة ، ولا تسير وراء الجديد لبريقه ولمعانه ، وفيه قطعاً ما لاوزن له ولا قيمة ،

وقد سارت مدرسة القضاء الشرعى فى هذا الطريق سيراً حثيثاً ، وخرجت جيلا من العلماء والمفكرين الذين كنا نود أن يغذى بهم العالم العربى والإسلامى دون انقطاع .

فى هذه المدرسة تتلمذت للمرحوم الخفيف فى درس لاأنساه ، تتلمذت له فى علم الفرائض ، ونعمت فى درسه بالفقيه المتمكن والرياضى الدقيق . وقدر لى أن أشترك بعد زمن فى مناقشة مشروع قانون المواريث بمجلس الشيوخ ، وكان هذا الدرس خير عون لى . فى هذه المدرسة تتلمذت للمرحوم الخفيف وصادقته ، وهكذا كان شأن مدرسة القضاء فقد كان يراد بها أن تجمع بين الأساتذة والطلاب والأصدقاء ، وأى صداقة أقوى وأمتن من تلك التى

تتوثق بين رجال العلم والمعرفة طوال تسع سنين .

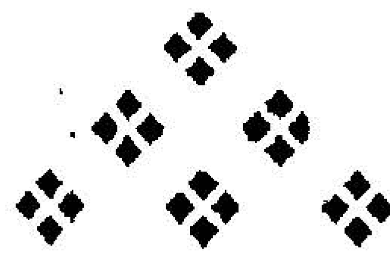
ورحم الله عاطف بركات الأب الأول لهذه المدرسة ، وقد خططها وأحكم التخطيط ، ومن تخطيطه أن تنشأ مدينة خاصة فى ضاحية من ضواحى القاهرة لايقيم فيها إلا طلابها وأساتذتها ، وتتوفر فيها وسائل البحث والدرس ومتطلبات العيش والحياة .

سيداتى ، سادتى :

وأودع أيضا على الخفيف الزميل ، فقد نفحنا بزمالته فى هذه الدار زمنا ، ويوم أن دخلها عددناه غنما كبيراً وسنداً عظيماً حرص ماوسعه على أن يشترك فى بعض لجاننا ، وأن يتابع جلسات مجلسنا ، ولم يتخلف قط إلا لعذر قاهر ، أعطى لجاننا فى سخاء ، وله علمه الفياض وذوقه السليم ، وحكمه الدقيق وأثار مجلسنا بآرائه الصائبة وتوجيهاته السديدة . لم يعرف الإسراف قط ، لافى القول ولافى العمل ، وقد عنى بالمصطلح الفقهى ، وعقد له لجنة فرعية خاصة ، وأقر فيه ماأقر ، ووفاء لذكراه آمل أن نخرج ماأقره إلى النور لاسيما وهو تراث يخشى عليه الضياع .

وأودع أخيراً على الخفيف الفقيه والمشرع ، تمكن من الفقه الإسلامى تمكنا لا يجاريه فيه كثير من معاصريه ، حذقه فى بصر وبصيرة ومارسه علماً وعملا ، وضم إليه قدراً غير قليل من علوم القانون ؛ فتوفرت له أسباب الاجتهاد والفتوى ، وكان يؤمن بأن التشريع أينما وجد ليسد حاجة ، ويعين على تنظيم المجتمع ، وتدبير شئونه ، وليس فى تعاليم الإسلام مايعارض النهوض الصحيح والتقدم السليم ، ومن الخزى أن نعيش عالة على من سبقونا ، وأن نحرم أنفسنا من حق التفكير والتعديل والتصحيح . وأذكر أنى تحدثت إليه مرة فى شأن الحركة الرابعة التى ترمى إلى إحلال الفقه محل القوانين الوضعية ، وكان يرى أنها حركة قليلة الجدوى وصعبة التنفيذ ، وفى رأيه أنه إن كان ولابد فلننظر فى القوانين الوضعية الحالية وبخاصة القوانين المدنية ، فإن كان فيها ما يعارض مبادئ الإسلام الثابتة رفضناه أو عدلناه ، أما أن نهدم فى غير بناء فهذا جهد ضائع لاطائل تحته ، ومن أشد ماآسف له أن مجمع البحوث الإسلامية — وفيه المرحوم على الخفيف وأمثاله — كان فى وسعه أن يواجه مشاكل الساعة ، وأن يحلها حلا إسلامياً عصرياً ، فيخدم الإسلام والمسلمين ، ولكنه لم يواجه ذلك مواجهة صادقة .

رحم الله الأستاذ على الخفيف ونفحه برحمته ورضوانه .



•• كلمة الدكتور أحمد الحوفى

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدى الرئيس

سادتى :

كان من الواجب الشاق على نفسى أن أنوب عن مجمع اللغة العربية فى رثاء علم من أعلامه هو أستاذ الأساتذة المغفور له الشيخ على الخفيف .

ولا أخفى عليكم أننى تهيبت فى أول الأمر رثاءه ، لأننى أحببته وأحبنى ، ولأننى أعلم علاء قدره وعظمة آثاره فى أجيال متعاقبة وقد يبدو عند النظرة الأولى أن الحب المتبادل وأن عظمة المرثى كفيلان بسهولة رثائه ، ولكن الحق غير ذلك ، لأن مشاعر الأسى المنبعثة عن محبة من شأنها أن تهز النفس هزاً وتملأ القلب وجداً ، فيعجز اللسان عن التعبير أيما عجز ، ثم لأن عظمة المرثى وضخامة تأثيره توحى بالرهبة والتهيب والمعجزة .

ولكن الظروف اقتضت أن أرثيه بما أستطيع من كلمات موجزات .

وإذا كنا قد اعتدنا فى كثير من المراثى وهى نهاية الأحياء أن نفتتحها ببداية حياتهم ، فإن فقيدنا ولد بقرية الشهداء إحدى قرى محافظة المنوفية سنة ١٨٩١م ، وبعد أن حفظ القرآن الكريم بكتاب القرية كما كان يفعل عشرات الآلاف من أبناء جيله درس فى الأزهر من سنة ١٩٠٣ إلى سنة ١٩٠٦ ، ثم التحق بمدرسة القضاء الشرعى سنة ١٩٠٧ وتخرج فيها سنة ١٩١٥ ، وعين بعد تخرجه فى العام نفسه مدرسا بالمدرسة نفسها إلى سنة ١٩٢١ .

وفى تلك السنة نقل إلى وظيفة قاض بالمحاكم الشرعية ، وبقى فى منصب القضاء ثمانى سنوات ثم عين محاميا شرعيا بوزارة الأوقاف ، ثم مديراً للمساجد بها إلى سنة ١٩٣٩م .

وفى هذا العام نفسه عين أستاذاً مساعداً للشريعة الإسلامية بكلية حقوق القاهرة ، وارتقى إلى وظيفة أستاذ سنة ١٩٤٤ ، ومازال فى وظيفة أستاذ إلى أن بلغ سن التقاعد سنة ١٩٥١ م لكن كلية الحقوق حرصت على الانتفاع بعلمه وبتجاربه ، فندبته ليدرس لطلاب الدراسات العليا إلى قبيل وفاته .

سادتى :

لقد كان من الدلائل على فضل المغفور له الشيخ على الخفيف أن كثيراً من المعاهد تنافست فى الانتفاع بعلمه ، فقد عينه معهد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٥٣ أستاذاً غير متفرغ ، ثم أستاذاً متفرغاً إلى قبيل موته

وعينته الدولة عضواً بمجمع البحوث الإسلامية منذ سنة ١٩٦٢

وعينه المجلس الأعلى للأزهر عضواً به منذ سنة ١٩٦٧.

وندبته جامعة بغداد أستاذاً زائراً سنة ١٩٦٨ ، وكذلك ندبته جامعة الخرطوم .

وهو إلى هذا كله عضو بارز فى لجنة موسوعة الفقه الإسلامى بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية وفى لجنة وضع مشروع قانون الأحوال الشخصية ، وعضو له قدره فى مجمع اللغة العربية .

سادتى :

لقد كان للمرحوم الشيخ على الخفيف صوته المسموع فى كلية الحقوق مدوياً بعظمة الشريعة الإسلامية ، لأنه رحمه الله أحسن الانتفاع بالتراث النفيس الذى خلفه أسلافنا من الفقهاء الأجلاء ، فتفهمه وأحسن عرضه وتهذيبه وتنظيمه وتبويبه ، فى أسلوب عصرى سهل شائق يجارى المنطق ، ويسامى القانون الحديث . وكان له ميدان آخر جلى فيه هو الموازنة بين مما يردده علماء القانون من نظريات فى موضوعات عدة وبين ما سبق إليه علماء الشريعة الإسلامية من آراء فى هذه الموضوعات نفسها ، ومن فتاوى عريقة تتسم بالذكاء والحصافة والصواب ، ومعنى هذا أن فقيدنا عليه رحمة الله كان من الأفذاذ الذين نبهوا الأذهان إلى سمو تشريعنا ، وإلى فضل علمائنا ، وإلى أصالة فقهائنا ، حتى لا تبهرنا نظريات الغرب وأراء الغرب وبحوث الغرب ، وحتى نستطيع إبطال دعاوى بعض الذين ينكرون فضلنا ويعزون السبق كله إلى علمائهم .

ولم يكن موقف المرحوم الشيخ على الخفيف منبعثا عن تعصب بل كان إذعاناً للحق الذى يجب أن يسود ويجب أن يقود .

سادتى :

ترك فقيدنا اثنى عشر مؤلفاً هى :

١ ــ الخلافة

٢ ــ أحكام الوصية

٣ ــ أحكام المعاملات الشرعية .

٤ ــ الشركات فى الفقه الإسلامى :

٥ ــ أسباب اختلاف الفقهاء .

٦ ــ نظرية النيابة عن الغير :

٧ ــ فرق الزواج .

٨ ــ الحق والذمة .

٩ ــ البيع فى الكتاب والسنة .

١٠ ــ الشركة والحقوق المتعلقة بها .

١١ ــ الملكية فى الشريعة الإسلامية .

١٢ ــ الإرادة المنفردة فى الفقه الإسلامى.

وله بحوث كثيرة نشرتها بعض المجلات ولاسيما مجلة القانون والاقتصاد التى يصدرها أساتذة الحقوق بجامعة القاهرة ، منها :

١ ــ التأمين فى الشريعة الاسلامية :

٢ ــ تأثير الموت فى الالتزام .

٣ ــ الاستصحاب .

٤ ـ تأثير الموت فى الحقوق .

٥ ـ رعاية المصلحة الشرعية .

٦ ـ المنافع فى الشريعة الإسلامية .

٧ ـ الوقف الأهلى وأسانيده فى الشريعة.

وله بحوث فى موسوعة الفقه الإسلامى ، منها :

(ا) إجارة طبعت الجزء الثانى
(ب) ادعاء طبعت الجزء الرابع
(جـ) إذن طبعت الجزء الرابع
(د) ارتفاق طبعت الجزء الرابع
(هـ) أرش طبعت الجزء الخامس
(و) إستبدال طبعت الجزء الرابع
(ز) استنابة (إنابة) طبعت الجزء الثامن
(ح) استيلاء طبعت الجزء الثامن
(ط) استناد طبعت الجزء الثامن
(ى) إسلام طبعت الجزء التاسع
(ك) دين طبعت النموذج
(ل) إقطاع لم تطبع
(م) التزام (إلزام) لم تطبع
(ن) انقراض لم تطبع
(س) إيمان لم تطبع
(ع) أمير وإمارة لم تطبع
(ف) اقتصار لم تطبع
(ص) اعتقال لم تطبع
(ق) اعتصار لم تطبع
(ر) أهل الحل والعقد لم تطبع

مثالان من آرائه

المثال الأول ـ الملكية

الملكية موضوع محاضرات ألقاها بالمعهد العالى للبحوث والدراسات العربية ، تناول فيها الملكية ، فعنى بتأصيل حق الملكية فى الشريعة الإسلامية ، وبين أن الأموال كلها ملك لله تعالى ، ودلل على هذه الفكرة بآيات كثيرة من القرآن الكريم ، مثل قوله تعالى : لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شئ قدير[1] ، ووضح أن للإنسان حق التملك ، ولكن تملكه اختصاصٌ يتيح له الانتفاع بما يملكه مع مراعاة المصلحة العامة للمجتمع .

وقد فرض الشرع على هذا المالك عدة تكاليف وواجبات تحقق مايصح أن نسميه بالاشتراكية السليمة التى تتفق وطبائع البشر ، وتحقق الخير لهم .

وجعل الشرع لولى الأمر الحق فى مراقبة تصرفات المالك مراقبة قائمة على أوامر الدين ونواهيه ، أى أن ولى الأمر يراقب المالك

---

(١) سورة المائدة ١٢٠

فى وسائل استغلاله لما يمتلكه ، وفى طرائق انتفاعه بما يملكه ، ليردعه عن البخل والجشع والأنانية وسوء الاستغلال ، وليرده إلى الطريق السوى السليم :

ثم وازن الأستاذ بين هذا النظام السامى الذى شرعه الإسلام وبين المذاهب الأجنبية المستحدثة التى يغالى بعضها فى حماية الفرد وكفالة حريته الكاملة فيما يمتلك ، ويغالى بعضها فى تقييد هذا الحق حتى يصل التقييد إلى القضاء على حق الملكية وإهداره :

المثال الثانى — التامين

فى بحثه الذى موضوعه التأمين فى الشريعة الإسلامية ، عرف نظرية التأمين ، وأساسها وأنواع التأمين ، وخصائص عقده ، وأساس الإلزام فيه ، وقيامه على الضمان نظير أجر أو قيامه على التعاون . وبسط آراء الذين حرموه ، مستندين إلى مافيه من شبهة الغرر ، والربا ، والقمار ، والغبن . ثم بسط آراء الذين أباحوه ، ووضح حججهم وردودهم على عرميه .

وانتهى إلى الإفتاء بجواز التأمين فى بعض أنواعه ، دون أن تكون فيه أية شبهة ، مثل التأمين التعاونى الاجتماعى الذى يقوم به وبأقساطه المستأمنون أنفسهم بعضهم ببعض ، ومثل التأمين الاجتماعى الذى تقوم به الحكومة خدمة للمرضى والعجزة والمحالين إلى التقاعد . ثم فصل المقال فى التأمين ضد الحوادث وضد المسؤولية ، وقال : إن الغرر فيه يسير لا يحول دون صحته ، وإنه لاينطوى على مقامرة ، ولا على مراهنة ، ولا على جهالة أو غبن ، لأن أساسه الضمان نظير جعل يدفعه المستأمن ، وبين ما فى هذا الضرب من التأمين من مصالح اجتماعية تدعو إلى جوازه رعاية للمصلحة :

وعرض للتأمين على الحياة فوضح أنه إذا كان مصحوباً بالعزم على الادخار وتنمية المال أو الربح والفائدة فإنه يعد من قبيل المضاربة الشرعية ، لأنه عمل فى مال الغير باستثماره ، والربح فيه يقسم بين صاحب المال والعامل على مقتضى ما يظهر من ربح :

أما إذا قام على فائدة معينة محددة فإن هذا يبعده عن المضاربة ، لأن اشتراط ربح معين فى المضاربة يفسدها ، إذ أنه قد يؤدى أحياناً إلى عدم اشتراك الطرف الآخر فى الربح الناتج :

وأفاض فى بيان أن الخسارة مستبعدة عملا لأن هذا النوع من التجارب يقوم على قواعد اقتصادية ويكفل ربحاً يزيد على الفائدة المحددة لصاحب المال ، وهذا يحقق اشتراك الطرفين فى الربح دائماً . لهذا رأى فضيلة المغفور له الشيخ على الخفيف جواز هذا النوع من التأمين أيضاً بمقتضى العرف ، وبمقتضى جواز التعاقد فى الإسلام على الوضع الذى تتطلبه الحاجة دون اشتراط صورة معينة للعقد :

وانتهى إلى أن عقد التأمين عقد جديد جائز شرعا ، لخلوه من المحظورات الشرعية :

سادتى :

لا يستطيع الذى يقرأ بحوث الفقيد إلا أن يشيد بمقدرته وألمعيته وسعة اطلاعه وثاقب ذكائه وبشوقه إلى تطوير التشريع الإسلامى تطويرا لا ينحرف به عن جادته ، ليحقق مصالح الناس ، ولينهض بما يناط به من إصلاح :

لهذا كان كلفا بإبراز خصائص الشريعة الإسلامية ، ودؤوباً على التنويه بمرونتها وطواعيتها وتقبلها للتطور ، وصلاحيتها لكل زمان ومكان .

ومعنى هذا أنه كان — رحمه الله — من أنصار الاجتهاد، ومن الدعاة إلى افتتاح أبوابه والأخذ به ، ما دام قائماً على الاهتداء بكتاب الله وبسنة رسوله وبما يؤدى إليه القياس الصحيح .

جمع فى عقله الواعى جوهر عشرات من كتب الشريعة موجزة مركزة ، معتزاً بلبابها ، متغاضياً عما بها من أوهام وافتراضات واحتمالات ، فكان يفتى فى أية مسألة فتوى الفقيه الحصيف الخبير الذى لا يعقب عليه أحد :

سادتى :

يشاء الله سبحانه وتعالى لبعض العلماء أن يصوغوا رجالا يخلفونهم وأن يصنعوا علماء يرثونهم ويذيعون فضلهم ، وقد كان من حظ أستاذنا الشيخ على الخفيف أن يكون كذلك : فإنه حينما تخرج فى مدرسة القضاء الشرعى وعين بها مدرسا درس لكثير من زملائه ، ثم درس لطبقات شتى فى كليات ومعاهد مختلفة ، وأكرمه الله تعالى فمد عمره حتى رأى أبناءه أساتذة وفقهاء ، وشاهد أحفاده أساتذة وعلماء ، وأدرك أبناء أحفاده مشرعين ، وهم جميعا يدينون له بالأستاذية ، ويتحدثون بفضله ، ويثنون على علمه وخلقه.

وهذه درجة علمية لها طابعها المتفرد الذى لا يشاركه طابع وميزة يندر أن تتحقق إلا لقليل من الأفذاذ .

وكان من نعم الله عليه أنه كان جليلا فى كل مكان عمل به ، فهو فى مجمع البحوث الإسلامية ينبوع دفاق ، وفى موسوعة الفقه الإسلامى سحاب غيداق ، وفى مدرسة القضاء الشرعى وكليات الحقوق والشريعة علم خفاق ، وفى مجمع اللغة العربية عالم مرموق ، وفى تطوير التشريع الإسلامى وتيسيره رائد سباق :

كان المغفور له الشيخ على الخفيف حلو المجلس ، عذب العشرة ، لطيف الحديث ، رقيق الصوت يحرص على الاستماع أكثر مما يحرص على المقال ، ويصغى إلى الآراء المتشابكة فى يقظة وإدراك ، ثم يتخير أصوبها ويدلل على صحته .

يرحمه الله رحمة واسعة ، جزاء له على ماقدم للإسلام وللمسلمين :

احمد الحوفى

عضو المجمع

•• كلمة الأسرة

بسم الله الرحمن الرحيم

سادتى الأجلاء

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أبدأ فأشكركم ، على ماأتحتم لى من فرصة لأشارك فى هذه المناسبة من التكريم الوفى النبيل ، لفقيدنا ، فقيد الإسلام ، والدنا الشيخ على الخفيف رحمه الله وجعل الجنة مثواه .

وأعود فأقول ، إنى لأجد نفسى فى موقف بالغ الحرج ، فأنا إذ أقف أمام هذه الصفوة المختارة ، من كل قمة فى العلم والأدب والفضل ، أحس بضعف يكاد يعجزنى عن الكلام . هذه واحدة : وأنا إذ أحاول أن أتحدث عن مناقب الشيخ يرحمه الله ، وأنا بضعة منه ، أرانى كمن يمدح نفسه ، ولست أحب أن أضع نفسى هذا الموضع : وهذه أخرى .

غير أنى لاأجد بنفسى ، حاجة للحديث عن مناقب الشيخ ، وكلكم كان على صلة به مشاركا له ، متفاعلا معه ، بحيث يغلب على ظنى ، أنكم كنتم أعرف به منى ، فى كثير من جوانب الفكر والعقيدة والحياة . فلست أخال أحدا منكم ، لم يكن يعلم كيف كان رحمه الله — إلى آخر عمره — مكبا على العلم منتفعا به نافعا به الناس ، وكم كان إيمانه بالحق عميقا ، وإيمانه بالخلق القويم عميقا وكم كان اقتناعه بأن الدين منهج للحياة جميعا ، وكم كان يجتهد فى مواءمة ذلك كله ، مع مقتضيات التقدم وسنة التطور . ولعل من أبرز ماكنت ألحظه فيه أنه كان حريصا كل الحرص على أن يبعد عن الفكر خاصاً وعاماً أن بالدين جموداً عن مسايرة التطور ، أو قصوراً عن استيعاب أنشطة العصر الحديث هذا مع التزام لايحيد قيد أنملة عن مبادئ الشريعة والفقه الحنيف .

وما أشد وأضنى مايتعرض له كل من يسعى إلى تلك الغاية ، وهو يحمل بين إحدى يديه ، كتاب الله الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وفى يده الأخرى منار العقل والاجتهاد يهتك به حجب التزمت والانغلاق والجمود .

أعلم أننى بعيد عن أن أعتبر حجة فى هذا المجال ، إلا أنه رحمه الله ، كان كثيرا مايطلعنى على منهجى البحث والتثبت ، ما يجعلنى أشهد الله ، على أنه كان يرعى الله حق رعايته ، فى دراساته وأحكامه وفتاواه :

سادتى الأفاضل :

أرانى قد استطردت إلى مالم أكن أحب أن أستطرد إليه ، فأعود أقول إنكم بادى الرأى أعلم بهذا الذى قلت ، وغيره الكثير ، وليس منكم إلا من له فيه سهم أو نصيب

بيد أن من جوانب حياة الشيخ ، جانب لى فيه قدح لاأنازع فيه ، أعنى جانب حياته فى بيته ، وعلاقته بأسرته وبنيه ، وأرجو أن يتسع صدركم ووقتكم لكلمتين فى هذا المجال :

كنا ندعوه فيما بيننا وفى غيبته وحضوره ، بالشيخ ، هكذا مجرداً ، وقد حدثتنى جدتى عليها رحمة الله ، أنهم كانوا يدعونه بالشيخ حتى وهو مازال حدثا يحفظ القرآن .

وكانت بالشيخ كراهة جذرية متأصلة للكذب ، كأنما خلقه الله كذلك ، بينه وبين الكذب عداء . وكانت تواكب هذه الخلة فيه وتتكامل معها ، خلة الحياد ، فكان لاينحاز إلى جانب دون جانب إلا ودليله الحق ، كان كذلك حتى على نفسه وأقرب مقربيه ، وكان منطقياً واضحاً سهلا ميسراً ، دون تزمت ولاتعقيد ، أضف إلى ذلك شخصية نافذة محببة فى غير تنفير تكتمل لك صورة لجوهره عليه رحمة الله ، لذلك كان إذا بدأ فى محيط الأسرة خلاف ، كان منتهى أمره أن يرفع إليه ، فقد كان الخلاف يذوب فى حضرته حتى قبل أن يقضى فيه قضاء :

وكان فى تنشئته لنا ، ينحو منحى جذبنا إلى قدرته ، مبتعداً أكثر الوقت عن الأمر والنهى والترهيب ، أذكر وأنا طفل فى أول مراحل التعليم ، أنه كان يدفع إلى بالمصحف لأتابعه وأراجعه وأصوبه وهو يقرأ القرآن وكان ذلك يشبع فى نفسى زهواً ، مما جعل آصرة من الحب تنعقد بينى وبين كتاب الله ، نعمة مازال الله يسبغها على حتى الآن ، وأرجو أن يكون ذلك حتى آخر العمر إن شاء الله :

كان إذا قام إلى صلاة الصبح ونحن نيام رفع صوته بالقراءة ، حتى نحس أن مايفعله واجب لاتحسن معه المداراة ، حتى تعودنا أن نصحو فنشاركه الصلاة :

هذا مثل أو مثلان أردت بهما أن أوضح جانباً من شخصيته ، غير أنى أمنع نفسى من أن أستفيض ، لأنى أشعر أنى تطفلت على وقتكم فأخذت منه الكثير ، وأخشى كذلك أن أتهم بالتشيع لأب تشبعت به نفسى إعجاباً وتقديراً ، ولكنى أصدقكم القول ، أنه إذا لم يكن والدى ، لما كان حبى له وإشادتى بفضله أقل من ذلك فى كثير أو قليل ، ولعل تلاميذه وعارفى فضله يزكون ماأقول ، ويحسون بمثل ماأحس به من حب وإعزاز وتبجيل .

سادتى الأفاضل :

يبقى أن أشكركم بالأصالة عن نفسى و بالنيابة عن الأسرة ، شكراً خالصاً لكم ولكل من وفى الشيخ حقه من الذكر الحسن والتقييم الجميل .

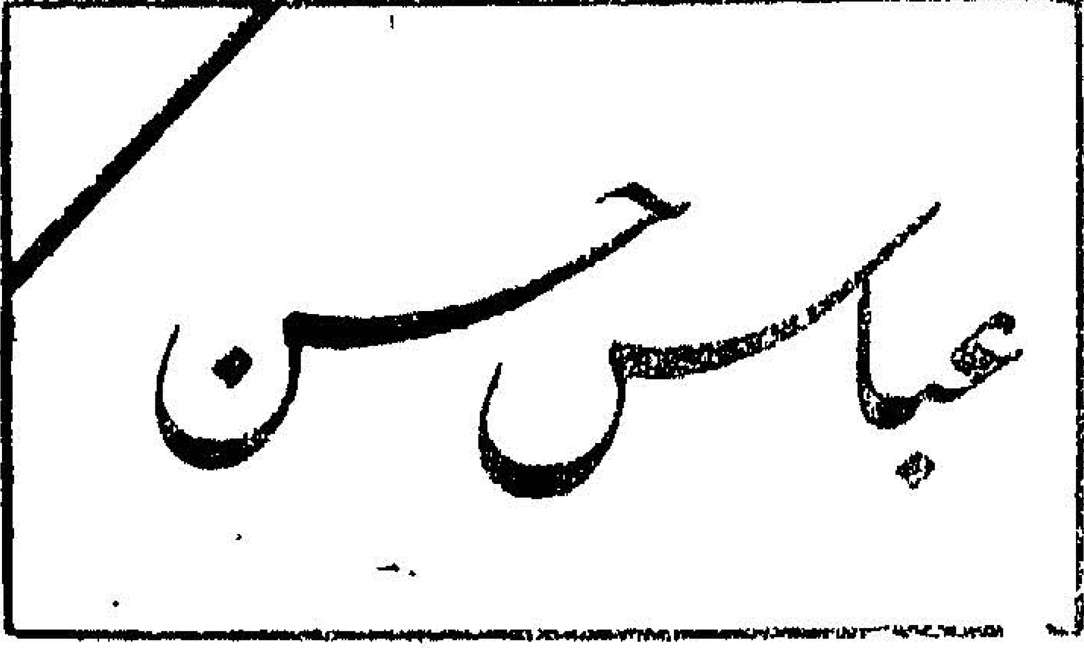
لكم سادتى الأفاضل ، ولأبناء هذه الأمة الوفية ، أتقدم بشكر وامتنان لاينهضان بما طوقنا به الجميع من عزاء وتكريم :

«من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر . ومابدلوا تبديلا » . صدق الله العظيم :

في الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ١٩ من جمادى الآخرة ١٣٩٩ هـ (الموافق ١٦ من مايو ١٩٧٩ م) أقام المجمع حفل تأبين المرحوم الاستاذ عباس حسن عضو المجمع .
وفيما يلي ما ألقى في الحفل من كلمات :

كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

في تأبين المرحوم الأستاذ :



سيداتي ، سادتي :

نلتقي اليوم لنودع شيخا من شيوخ هذه الدار ، اختطف منا على عجل ، ورحل عنا على غرة فحرمنا من صوت جهير قل أن تمر جلسة دون أن نسمعه ، ولقد كان عباس حسن رحمه الله وفياً كل الوفاء لمجمعه ، لم يتخلف عن جلسة من جلساته ، ولا عن لجنة هو عضو فيها ، إلا لضرورة قاهرة ، وبلغ به الوفاء أنه كان يحضر أحياناً متوهما عملا فلا يجده. ولا أشك في أن المجمع كان أيضاً شغله الشاغل في داره وخلوته ، يراجع المحاضر والتقارير ، ويعد للجلسات المقبلة في المجلس واللجان . يحقق موضوعات أثيرت ، ويمحص أفكاراً عرضت ، ولا يتردد في أن يستأنف الحديث فيما أثير من قبل ، ولا في أن يطالب إعادة النظر فيما سبق أن بت فيه .

وماذاك إلا لأنه كان وفياً للغته الوفاء كله ، نصب نفسه حارساً لها وحامياً من حماتها ، وما أشق الحراس ، وما أقسى مهمة الحماة ؛ يعارضون ويعترضون ، يناقضون ، ويصححون ، وكلنا نذكر ما كان لفقيدنا من أخذ ورد مع زملائه . اضطلع بواجب حماية اللغة في حزم وعزم ، بل في عنف أحياناً ، وتسلح لذلك بكل ماتوفر له من علم ومعرفة :

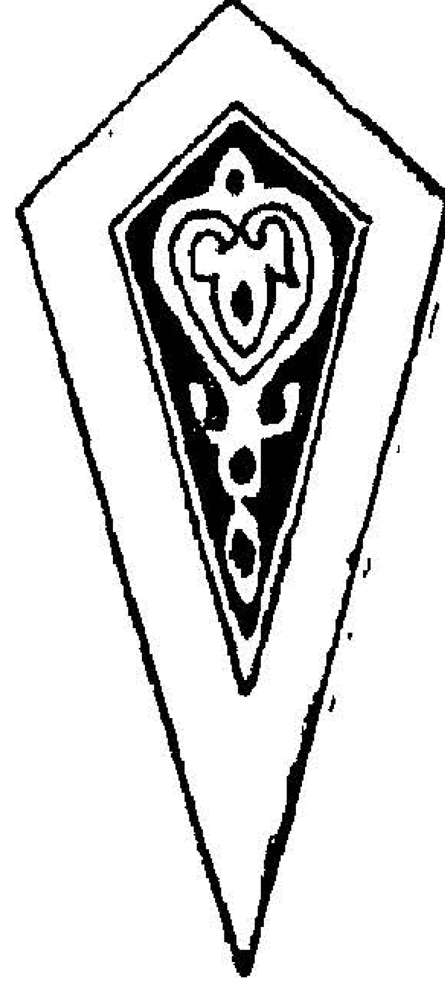
فوقف بالمرصاد لكل شاردة وواردة ، يصحح ما يصحح ، ويرفض ما يرفض ، ويطالب بالأصل والسند ، وكانت أسانيده

حاضرة دائماً ، ومراجعه مرقمة غالباً ، يعنى بالمبدأ والقاعدة ولا يبيح الخروج عليهما.

ولا غرابة ، فقد كان نحوياً ، ونحوياً إماماً مستظهراً للقواعد النحوية استظهاراً تاماً ، وربما طغى نحوه على ثقافته كلها .

يستمسك بالقياس ، ولا يفسح المجال للسماع ومع هذا سلّم بكثير من أوجه التجديد والإصلاح .

وكيفما كانت معارضته ، فإنه أدى مهمة الحارس الأمين خير أداء ، وما كان يتردد فى أن يدق ناقوسه إن رأى خطراً أو توهمه . تغمده الله برحمته ، وجزاه خير الجزاء عما قدم للغته وأمته .



كلمة الأستاذ على النجدى ناصف

بسم الله الرحمن الرحيم

سيادة الرئيس ، أيها السادة والسيدات :

كانت لى بفقيدنا العزيز ، الأستاذ عباس حسن — صحبة فاضلة ، مكن الله لها ونسأ فى عمرها حتى أوفت على الأربعين ، لكنها على تمكنها ، وطول أمدها — لم تلبث أن طارت شعاعاً حين نعاه الناعى إلى ، فكان مثلى ومثله — كما كان متمم بن نويرة وأخوه مالك إذ يقول فى رثائه :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة
من الدهر حتى قيل : لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا
لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

نعم ، طارت صحبتنا شعاعا ، ولا سبيل إلى ردها ، أو وصل أسبابها .

وأنى لها أن ترد ، ولأسبابها أن توصل ، وقد طفئت الشعلة ، ونضب المعين ؟ ولله الأمر من قبل ومن بعد ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

وإنى إذ أقف الآن لأؤبنه ، وأتحدث عنه — إنما أقف لأنشر صفحة من الذكرى فى جانب ، وأطوى صفحة من العمر فى جانب آخر ، وهل المرء فى حياته ، وتقلب الأحوال به — إلا كتاب مطوى من تجاربه الواعية ، وذكرياته الباقية ، ومشاعره النابضة ؟ تتنزل عليه وحياً ، أو تسرى إليه انسيابا ، يتلقاها مدداً متصلا من عبر الأيام وصلة الأرحام وصحبة الأصدقاء والقرناء تتلاقى فى وجدانه ، وتتشارك فى صنعه وتلوين شخصيته .

ومن الخير له ، أن ترفق الأقدار به فلا تملى له ليحيا بعد خلصانه ، يودعهم ، ويشهد رحيلهم عنـه ، راحلا فى إثر راحل فيسلمه التعس وسوء المآل ، إلى أثقال من الهموم والآلام ، تحل به ، وماتزال تعركه وتعتصر رسيس الحياة فيه ، ثم تتركه خلقا مضعضعاً ، وكياناً خاوياً ، لا يستطيب للحياة طعماً ، ولا يستشعر فيها أنساً . والناس من حوله : مابين راث له ، ومشفق عليه ومترخص فيه .

سيادة الرئيس ، أيها السادة والسيدات .
الآن أصير إلى حياة الفقيد — أحسن الله إليه —

أتحدث عنها من مستهلها ، وأمضى معه فيها مرحلة بعد مرحلة ، إلى أن لقى ربه فى جنات النعيم .

كان مولد الفقيد — أفاض الله عليه من رضوانه عام ألف وتسعمائة ، فى مدينة منوف ، وكان والده — يرحمه الله — يمارس أعمال التجارة فيها ، ثم بدا له أن يرحل إلى القاهرة ويتخذ منها مجالا لنشاطه التجارى . وكان الفقيد يومئذ لا يزال طفلا ، فحمل إلى قرية سروهيت من أعمال مركز منوف ، وهى منشأ أسرته ومقرها الأول . فكفله خاله ، ونشأه فى كنفه وعلى عينه ، وكان — رحمه الله — من علماء الأزهر الشريف .

ولما أن قوى عوده ، وبدت مخايله ، بعث به خاله إلى كتاب القرية ، يتعلم فيه مبادىء القراءة والكتابة ، ويحفظ القرآن الكريم حتى إذا بلغ من ذلك أربه ذهب به خاله إلى الأزهر ، فدرس فيه مقررات من علوم الدين واللغة .

وكانت دار العلوم فى ذلك العصر منية جمهور الطلاب فى الأزهر ، يستبقون إليها فى امتحان يؤهل النجاح فيه للقبول بها ، بعد أن تختار المدرسة حاجتها من جموع الناجحين فطمح الفقيد إليها مع الطامحين ، ولعله كان يقتدى فى ذلك أيضا بابن خاله : المرحوم الأستاذ أحمد على عباس ، من قدامى خريجى دار العلوم ، ومن كبار مفتشى وزارة المعارف .

وهكذا تهيأت للفقيد إبان نشأته بيئة علمية متخصصة ، يندر أن يتهيأ مثلها لناشىء فى الريف إذ ذاك . ولمثل هذه البيئة ما لها من الأثر الحميد فى تنبيه الذهن ، وتوجيه النظر إلى الأمور ، وإلى طريقة التمييز بينها وصحة الحكم عليها .

وظفر الفقيد بأمنيته ، فلحق بدار العلوم وكان فى رحلة الدراسة فيها من طلابها المتفوقين فجعل يتنقل فى صفوفها تباعاً ، صفاً بعد صف . وحبب إليه أن يتضلع من متن اللغة ، فأقبل على مختار الصحاح ، يعنى نفسه بحفظه . وأعتقد أنه لم يرجع فى هذا إلى ابن خاله ، ولا أنه كان يصدر فيه عن نصح منه . وما أحسب إلا أنه لو علم لدله على الأدب فى لبابه المأثور ، من المنثور والمنظوم ، ينهل منه ما يشاء حتى يتضاع ريا . فما كان لمثله أن يغيب عنه أن اللغة فى الأدب حية عاملة ، وهى فى المعاجم ذخر مدخر ، يرجع إليه كلما عرضت حاجة إلى التثبت أو الإهتداء إلى الوجه السديد .

وراودته نفسه أن يقرض الشعر ، فراح يعالج نظمه ، وكنت أود لو وقفت على نموذج منه لأقول فيه كما أقول فى آثاره الأخرى من اللغه والأدب . ومبلغ ظنى أن ملكة الشعر عنده لم تكن أصيلة ولا راسخة ، ولأمر ما لم تلازمه ، ولا مالت به إلى الأدب ، ولا أمسكت

للشعر منه بنصيب مأثور وليس الفقيد فى هذا وحيداً ، فما هو إلا طائف عارض من خارج النفس يوشك أن يكون دولة بين الطلاب جميعا ، ولا سيما طلاب الآداب ، يلم بهم إبان الفتوة إذ العاطفة غالبة ، والحيوية دافقة ، والحياة فى تصورهم أمانى وأحلام ، وأشواق .

ولاحت له فرصة البعثة إلى انجلترا ، فتقدم إلى الامتحان الذى يؤهل لها ، مع المتقدمين وكان فى اللغة الإنجليزية ، لكن الامتحان جاء فوق ما يعرفه منها فأفلتت البعثة منه .

وبدأ حياته فى التعليم مدرساً بمدرسة الناصرية الابتدائية ثم فى بعض المدارس الثانوية فى القاهرة . ثم عرضت لدار العلوم حاجة إلى مدرسين اثنين ، فكان الفقيد أحدهما للنحو وكان الآخر هو المرحوم الأستاذ على الجندى للبلاغة . وكنت سبقته إلى دار العلوم مدرساً كما سبقته إليها من قبل طالباً ومتخرجا . وفى دار العلوم تعارفنا واصطحبنا ، وجاء الفقيد إلينا أول ما جاء ، فزادت جماعتنا به عضواً لكنه كان عضواً من طراز متميز . كان فيه شغف بالبحث ، ونزوع إلى التحدى والحوار فيه . فلما أن استقر به المقام بيننا ، وذهب عنه دهش القدوم علينا ، ونشأت له صحبة فينا جعل يطرح علينا من حين إلى حين مسألة من النحو أو اللغة ، يقول : إن له فيها رأياً غير المعروف ، أو مأخذا يجعله منها فى ريب ، فيبدأ الحوار هادئاً رفيقاً ، لكن الفقيد لا يزال ينفخ فيه ، ويذكى من جذوته بما عنده من التحدى والمناجزة ، حتى تعلو الأصوات وتصطرع البينات وفاقا وخلافا ، اشتباكا وافتراقاً ، يعززها تلويح الأيدى وانفعال الملامح .

وربما دفع به الإصرار إلى الموقف الصعب تنوشه فيه الحجج ، وتلاحقه المآخذ فى كل مذهب ، لكنه يتلبث فى موقفه ، وما يزال يحاول ويطاول ، ولا يعدم أن تعرض له فكرة سانحة فيسرع إليها ، أو يلوح له وجه من بعيد فينطلق إليه . وبينما الجمع فى غمرتهم ساهون ، لا يلقون بالا لغير ما هم فيه من شأن إذا جرس المحاضرات يدعو إلى المدرجات فينفض الجمع ولا يزال للحوار بقية ، ولكن لا يؤقت لها ميعاد معلوم . وإذا كان الغد ، أو يوم آخر يتلوه — وقد تهيأت فيه جلسة جامعة — أعاد عرض المسألة ، ودعا إلى القول فيها ، بعدما يكون أعد لها ، وأوسعها بحثاً وتمحيصاً فتعود الملحمة جذعة ، فيها قوة ، وحماسة وانفعال .

ولم يمض وقت طويل ، حتى ألفنا هذا الأسلوب من البحث ، ورضينا عنه ، بل ربما افتقدناه على نحو ما إذا طال ارتقابناله . وشاء الله ألا يذهب الوقت الذى نقضيه فيه لغوا ولا الجهد الذى نبذله له هباء ، فربما نبه من غفلة ، أو أوضح من إبهام ، أو قوم من رأى أو عدل من فهم ، ثم علت بى السن . وآن لى

أن أخلد إلى التقاعد ، فتركت الباقين من الجمع ، ولحقت بالسابقين من المتقاعدين . ومن هنا كان فراقي للفقيد ، لكنه فراق العودة المرجاة ، وليس كاليوم فراق الأبد الذي لا لقاء بعده إلى يوم الدين : ولم يلبث بعد إلا قليلا ، ثم أخلد هو أيضاً إلى التقاعد ولكل بداية نهاية ، وسبحان من تفرد وحده بالبقاء .

ثم قدر له أن يسبقني إلى شرف العضوية في المجمع الموقر . وما هي إلا أعوام قليلة حتى حظيت بمثل ما حظي به من شرف . فرجعنا إلى ما كنا فيه ، عودا على بدء . وقد رأيته هنا كما عهدته هناك ، ينشط للحوار ولا يضيق به وإن طال ، إلا قليلا من تؤدة الشيخوخة وفتور الحماسة رأيته ينتحي مكانا قصياً في الجانب الغربي من هذه القاعة ، كأنه الديدبان اليقظان في مرقبته ، لا تأخذه غفلة أو يمسه فتور . أو كأنه الصيرفي الحاذق ، يرد الزيوف ، ويقبل الجياد .

فما من مصطلح يعرض في المجلس إلا تلقاه بالنقد والتمحيص لفظاً وأسلوباً ، فإن كان صالحا سكت عنه ، ولم يعترض سبيله ، وإن بدا له فيه مأخذ أمسك به ، وجهر برأيه فيه فإما موافقة عليه وإقرار له كما يراه ، وإما حوار ومحاجة تطول أو تقصر حتى ينجلي الرأي ، لا حجاب دونه ولا خلاف عليه ولا وجه لتمادي الحوار فيه . وربما رأى رأيا في جلسة من جلسات اللجان ، ثم بدا له بداء فيه حين يعرض أمره على المجلس أو المؤتمر فلا يتحرج أن يجهر بما جد له فيه ، أداء للأمانة ، وإبراء للذمة .

وما أكثر ما كان يذكر اسمه في المجلس مدعواً إلى القول ، أو يسمع صوته قائلا يعترض ، أو معقبا ينقد ويحتج . وما أعرف من السادة المجمعيين الذين شرفت بزمالتهم من كان أكثر منه حديثا في المجلس ، ولا أكثر منه ذكراً في محاضر جلساته .

سيادة الرئيس ، أيها السادة والسيدات :

لقد كان الفقيد في صحبته رجل صدق يركن إليه ، ويوثق به كان لا يضن على الصديق بعون ، ولا يقتصد فيما له عليه من حق ، ما وجد إلى ذلك سبيلا ، في زمان يرى فيه من لا يعرف الصديق إلا وهو ناعم بالا من الأمن والسلامة ، أما إذا نبا به دهر ، أو عثر حظ ، فلا يرى منقصة أن يتخلى عنه ، بل أن يتنكر له .

حدثني صديق ممن اصطفاهم الله لجواره أنه احتاج يوما إلى فضل من مال ينجز به عملا فيه له خير وسعة ، وأنه أفضى بحاجته هذه إلى الفقيد رحمه الله ، فما اعتذر ولا تردد ولكن بادر فأعطى شهما كريما ، ويقول الصديق : إنه علم بعد أن ما أعطاه الفقيد لم يكن فضلا مكنوزاً ، بل رصداً أعده لمطلب ذي بال لم يكن قد حان موعده إذ ذاك ، وهو منه غير بعيد .

وكان وفياً لعمله ، يعرف حقه كما يعرف حق الصديق ، على سواء . وأشهد ما رأيته غاب يوما أو تأخر عن ميعاد محاضرة في دار

العلوم ، أو عن جلسة فى المجمع ، إلا أن يعرض له عائق قاهر ، لا قدرة له عليه .

وكان أسلس ما يكون قيادا ، وألين مايكون جانبا لمن يحاسنه ، ويبادله وداً بود ، وإذا آنس من صاحب جفوة ، أو رأى منه إعراضاً لم يتردد أن يجزيه بفعله ، ويكيل له بكيله ، مهما كان مكانه بين أصحاب الشأن والمنزلة ، وكان لا يسكت عن مطلب تعلق به إرادته ، ولكن بعد أن يُعد له كفاءه من الوسائل والأسباب .

ولم يكن يقرله قرار على اهتضام حق ثبت له ، وآمن به ، كان لا يكف عن الجهاد فيه ، والدأب عليه حتى يظفر به ، وكان من أعف الناس لسانا ، وأبعدهم عن قول الزور . ماسمعته يوما يغتاب أحدا ، أو يقول مندية . وكان أكثر ما يذكر به من يؤثره من أصحابه أنه يصون لسانه عن الغيبة ، والوقوع فى أعراض الناس .

سيادة الرئيس ، أيها السادة والسيدات :

لقد ترك لنا الفقيد فيما ترك من آثاره العلمية ثلاثة كتب أذكرها ، وأثنى عليه بها وهى : « كتاب النحو الوافى » ، وكتاب اللغة والنحو بين القديم والحديث وكتاب المتنبي وشوقى . ولكتاب النحو الوافى قصة ، أستجيز أن أقص موجزاً لها لوثاقة صلتها به : كنت قد تمنيت فى مقدمة كتاب لى عن سيبويه أن ينهض بعض نحاتنا ، لينظروا فى النحو ، ويؤلفوا كتابا فيه يكون هو كتاب العصر . وصح منى العزم على العمل لهذه الأمنية ، فدعوت بعض الأصدقاء إلى جلسة درسنا فيها الأمر ، ووضعنا منهجه ، وتوزعنا أبواباً من النحو بيننا ، ندرسها ونحررها ، ثم نلتقى لنرى الرأى فيها ، ولكن لم يقدر لهذه المحاولة أن تتم ، ولا أن نمعن فيها بعيدا .

وكأن الله تعالى كان راضيا عن هذه الأمنية ، فأمسكها أن تذهب ضياعا ، ووكل بها فقيدنا العالم الجليل ليحققها وحده ، شمله — سبحانه — بعون منه وتوفيق ، فكان « كتاب النحو الوافى » وهو كتاب فى أربعة أجزاء كبار ، جمع فيه الفقيد بين النحو والصرف ، وجعل الدراسة فيه نوعين :

أحدهما موجز أعده لطلاب التخصص فى العربية ، وجعل مكانه فى أعالى صفحات الكتاب . والنوع الآخر مسهب ، أعده لمن يريد المزيد ، واختص به بقايا الصفحات . ويكثر أن يتطلب المقام تعليقات على هذا النوع ، فتذهب مواطنها بذيول من الصفحات .

ويدور البحث فى الكتاب على ألفية الإمام محمد بن مالك ، ويعتمد فى الشرح على أمثلة محدثة . وقلما يستشهد بشواهد النحو من الشعر ، لأنها — فيما يقول — مليئة بالألفاظ اللغوية الصعبة ، وبالمعانى البعيدة . وشواهد النحو هى مصدر أحكامه وحجج النحاة فيما يقررون منها . وإذا صح أن يحول ما فى بعضها من صعوبة المفردات وبعد المعانى دون ذكرها فى نحو الطلاب ، فما

بالهالم تتبوء أماكنها فى نحو العلماء وليس عدلا أن يؤخذ الكثير الخالص المبرأ بعيب القليل المشوب .

ومهما تتعدد الآراء فى الكتاب ، ومهما تختلف الأحكام عليه ، فالذى لا ينبغى أن يكون فيه خلاف ولا مراء ، أنه قصارى ما يمكن أن ينهض بمثله عالم واحد فى علم كائنا ما كان ، فكيف بالنحو ، وهو من يعرف الناس ، دقة مسالك ، وصعوبة مرتقى وجهامة بحث ، وغموض أسلوب ، وكثرة فروع ، واستفاضة خلاف . ومتى اجتمع الناس على رأى فى عمل فرد بل فى عمل جماعة .

فما يذكرونه إلا بالحمد ، ولا يصفونه إلا بالكمال ؟

أما كتابه اللغة والنحو بين القديم والحديث فمجلد واحد ، يدور القول فيه على نوعين من الدرس والبحث . أما الأول فعن بعض أصول النحو وقضاياه ، كالقياس والعلة ، والعامل . وهى موضوعات سبق إليها القدماء ، فقالوا فيها وعرضوها ، كل على طريقته . ولا يزال القول يتردد فيها إلى الآن فى بعض الرسائل الجامعية :

وأما النوع الثانى فيدور القول فيه على قضايا لغوية وأدبية شغلت الناس وقتاً ما ولا تزال ثمة بقية من الاشتغال بها الآن ، منها الدعوة إلى العامية ، والدعوة إلى الحروف اللاتينية ، والدعوة إلى الشعر الحر والفقيد فى موقفه من هذه القضايا عربى غيور ، يحامى عن العربية ، فى خصائصها المأثورة ، وسمتها العريق قولاً وزسما ، ونثراً وشعراً ، لا يتهاون أو يترخص ، ولا يجامل أو يترفق :

وأما الكتاب الثالث فموضوعه المتنبى وشوقى . وإذ يجمع الفقيد بين هذين الشاعرين فى كتابه ذاك ، فإنما يجمع بين ندين عظيمين ، تجمع بينهما مشابه شتى فكل يعد بحق من معالم الشعر العربى فى تاريخه الطويل ، وكلاهما قد أخمل شعراء عصره ، حتى ما يكاد يسمع إلا صوته ، ولا ينشد إلا شعره ، وكلاهما جدير بما قال ابن رشيق عن المتنبى : « ثم جاء المتنبى فملأ الدنيا وشغل الناس » ، وكلاهما قد بعث نهضة من الدراسة والنقد ، بما ألف عنه من كتب ، ودارت حوله من دراسات وبحوث . وكلاهما جنت عليه عبقريته فشنت عليه حرب لا هوادة فيها من الزراية والانتقاض أوقد نارها زمر من المقصرين والمتعجلين ، ومن الحاقدين الشانئين :

تلك مشابه تجمع بين الشاعرين ، وما هما ببدع فيها ، فما من شاعر ولا خلق من خلق الله إلا له مشابه فى آحاد من نوعه ، قليلة أو كثيرة . ويبقى بعد هذا أن بين الشاعرين فوارق كبيرة ، تباعد بينهما أى مباعد : فأين المتنبى من شوقى فى نشأته وبيئته ، وفى العصر الذى أظله ، والمجتمع الذى يعايشه ، وتضطرب به الحياة فيه ؟ إنها فوارق لها فى شعر كل منهما ، وفى شخصيته الفنية والذاتية عمل غير مردود .

ومن العسير أن يبرأ الحديث عنهما من الهوى ، وأن تسلم المزية هنا أو هناك من

الغمط حين المفاضلة والترجيح ، ما لم يقيم لهذه الملابسات وزنها ، وما لم تنل حقها كاملا من الملاحظة والتقدير . وليس يسعنى الآن إلا أن أسأل : ما للمتنبي يحمل من العيوب ما حمل ، ويستحق بها أن ينزل عن مرتبة شوقى ؟ وما لشوقى يبرأ من العيوب أو يكاد ، حتى يعد شعره عالما متكاملا ، يمكن أن يعيش الناس معه ، ويغنوا به عن كل شعر سواه ؟ ويتضمن الكتاب ترجمة موجزة لكل من الشاعرين ، ودراسة لنماذج من شعره فى فنونه المختلفة ، وفى ألفاظه ومعانيه ، ثم دراسة لأخلاقه ومنازع نفسه كما تتمثل فى شعره . وسيظل أعلام التاريخ موضوع دراسة ، ومدار موازنة ونقد ، ومثار اتفاق واختلاف ، وربما بلغت الآراء فى الخلاف فيهم مبلغ النقيض من النقيض ، وسبحان من فرق بين خلقه فى الخصائص والسمات ، وباعد بينهم فى مذاهب التفكير وارتياء الآراء .

هذا هو الأستاذ عباس حسن ، كما عرفته فى صحبته ، وكما رأيته فى كتبه ، وإنه — بما قضى فى التعليم من عمره ، وما أنفق عليه من ذات نفسه ، وبما ترك فينا من كتب ، وما قدم للمجمع من مشاركة وعطاء — إنه لحقيق بهذا كله أن يعد من أعلام الثقافة المعاصرين ، أولئك الذين جاهدوا فيها بنصيب مشكور .

سيادة الرئيس ، أيها السادة والسيدات :

اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل الناس فى هذه الحياة أجيالا متعاقبة ، كلما مضى جيل خلفه جيل آخر ، وأن يكون كل جيل لخلفه مستقبلا ، ولسلفه مودعاً . وإذا كان لنا أن نرسل النفس على سجيتها فرحا بالقادمين فليس من الحكمة أن نتركها نهبا للحزن وفاء للسالفين .

فالإسراف فى الحزن متلفة للنفس ، ومفسدة للعيش ، ومغضبة لله رب العالمين .

صحيح أن فراق الأعزة أليم ، وأن وقعه على النفس شديد ، ولكن الله تعالى لم يتركنا سدى ، تصنع بنا لواعج الحزن ما تشاء ، فزودنا سبحانه بالصبر وأمرنا أن نستعين به ، فلنرض أنفسنا عليه ، وهدانا للإيمان فلنعتصم به . ومع الصبر والإيمان يقوى العزم ، ويتبين الرشد من الغى ، فلننازع الحزن قيادنا ، ولنقبل على الله ربنا نسأله ، إنه هو البر الرحيم أن يتقبل الفقيد بأحسن القبول ، وأن يثيبه بما عمل ثواب العاملين المخلصين ، وينزله منازل الأبرار الصالحين .

على النجدى ناصف
عضو المجمع

عبد الكريم جرمانوس

(كما عرفته)

للأستاذ محمد شوقي أمين

كثيرون من الأدباء والمفكرين في الشرق العربي والإسلامي لايستطيعون أن ينسوا ذلك العالم الأديب المستشرق المجرى الدكتور جوليوس جرمانوس ، أو الحاج عبد الكريم جرمانوس، فالذين قرءوا له كاتبا بالعربية فى الصحف والمجلات الثقافية ، أو الذين استمعوا إليه محاضراً فى الأندية والجامعات والمجامع ، خلال نصف قرن ، يلمسون فيه باحثاً دءوباً من أهل الجد ، يتسم بالنزاهة والإخلاص ، والذين اتصلوا به وعرفوه معرفة مجالسة أو معرفة مراسلة آنسوا فيه من صفاء الود وصدق الولاء نمطاً رفيعاً يتحلى به إنسان طيب النفس مرح الروح حميد الخصال :

ولو أردنا أن نلخص شخصية الدكتور « جرمانوس » فى جملة واحدة ، تلقى عليه ضوءاً كاشفاً ، لاستعرنا تلك الجملة التى جعلها رائد القصة العربية « محمود تيمور » عنواناً للفصل الممتع الذى دبجه فى وصف صديقه ذلك ، وهى قوله : « جرمانوس عاشق الشرق والعروبة والإسلام » :

٢ — عرفت « الدكتور جرمانوس » فى القاهرة سنة ١٩٣٥م وهو يومئذ فى نحو الخمسين ، وأنا فى نصف عمره : وعلمت أنه يومذاك أستاذ للتاريخ فى جامعة « بودابست » ، وأنه تنقل فى البلاد العربية والإسلامية ، وأعلن إسلامه فى مسجد « نيودلهى » فى الهند ، وكان قد سافر إليها معلماً ومحاضراً ، وفى أول يوم عرفته اتفقنا على أن نلتقى مدة إقامته كل مساء أربع ساعات ، ولم يكن الرجل بحاجة إلى من يعلمه العربية ، فقد وعى من ألفاظها وألم من أوضاعها بما يكفى مثله . ولكنه كان تواقاً أن يتعمق فى فهم الجملة العربية وأنماط تعبيراتها وألوان مجازاتها ، إذ كان يتعاصى عليه بعض ذلك فيما يطالع من نصوص التراث العربى ، وكذلك كان تواقاً أن يكتسب سلامة النطق بالعربية حروفاً وكلمات : وتوالت زوراته بعد ذلك للقاهرة ، وتوالت صلتى به ، وصحبتى له ، حتى زورته

الأخيرة منذ سنوات ، وهو يستقبل العقد العاشر من عمره المديد.

ومما عجبت له من شأن « جرمانوس » فى صحبتى إياه للتدارس أننا كنا نجلس إلى المكتب متقابلين ، وتحت بصرى الكتاب أقرأ منه النص الذى يدرس ، وإذا هو قبالتى يعيد قراءة النص فى غير تلعثم ولا توقف ، وعينه على الكتاب معكوساً ؛ ولما فطن إلى دهشتى ؛ قال لى إنه مرن نفسه على القراءة العكسية تمرين ضرورة لاعن هوى ، وذلك أنه كان فى بلده يدرس العربية لتلاميذه فى بعض الكتب ، وليس منها إلا نسخة واحدة ، فكان التدبير أن يوضع الكتاب تحت أبصار التلاميذ معكوساً أمامه ، وهم يتابعونه فيما يقرأ ، أو يتابعهم فيما يقرءون .

٣ — اتجهت دراسة « جرمانوس » العلمية للتاريخ التركى وما كان ذلك الاختيار عبثاً ، فإن الدولة العثمانية بسطت سلطانها على ضفاف « الدانوب» زمناً ليس بالقصير وكان للترك أثر فى حياة أهل المجر الاجتماعية ؛ إذ نقلوا إليها أوضاعاً من مظاهر الحضارة الإسلامية ، بل إن بعض الرحل من المجر اتصلوا بالدولة الإسلامية منذ أقدم العصور ، وفى معجم «ياقوت» حديث قوم من « باشجرد » وصلوا إلى البلاد العربية فى غضون دولة بنى العباس . وما يزال ضريح «جول بابا» التركى فى قلب «بودابست » مهوى أفئدة المواطنين والسياح ، ولعل ذلك كان الغراس أو المحراك الذى وجه «جرمانوس» إلى دراسة الحياة الشرقية والإسلامية بوجه عام ، فلقد كان عامر الوجدان بالروح الشرقى ، إذا تطلع إلى آثار الشرق فى العمارة والزى وغيرهما ، وإذا قرأ وصف الحياة فى العهود الشرقية الخالية ، تهيم نظراته ، ويسرح خياله ، كأنه يحلم أحلاماً بهيجة ، ثم يهمهم قائلا : هذا جو ألف ليلة وليلة .

حقا كان « جرمانوس » مفتونا ببعض الأنظمة الشرقية ، ويرى فى تاريخها رقياً مبكراً للمجتمع الإنسانى ، وأذكر أنه كان يحدثنى فى بعض أوضاع الحياة ، فاستطرد يحدثنى فى شأن « النظافة » وتطور الاهتمام بها على الصعيد العالمى ، فجعل يشيد بالنظافة العربية ويقول إنها عريقة بفضل التشريع الإسلامى وأحكامه ، ويرى أن « النظافة حديثة السن فى أوربا » ، ويضرب للتدليل على ذلك أمثلة من تاريخ ملوك فرنسا وغيرهم من الشخصيات اللامعة فى غيرها ، فيما يتعلق بحياتهم المنزلية ، ومما قاله إن الحمامات عرفتها بلاد المجر قبل غيرها من البلاد الأوربية ، بفضل الصلة بينها وبين المجتمع التركى الإسلامى .

وإنى لمذيع هنا سرا لم يكن خافيا على «جرمانوس » ، ذلك أنه كان الشخصية التى استلهم منها « محمود تيمور » قصته «المستعين بالله الكابتن هاردى » ولاأدعي

أن أحداث القصة من الواقع ، فإن «جرمانوس» كان فى شغل عن المغامرات الغرامية ، ولكن روح القصة وتحليل الشخصية يصور طابع « جرمانوس » ويلمع إلى شخصيته فى هيامها العاطفى بالجو الشرقى ومافيه من سحر الخيال ، ومن سطور هذه القصة تصوير رفيق « المستعين بالله » لجولة فى جوف الليل معه فى حى « الحسين » إذ يقول « جعلنا ندخل تلك المتاهات والدروب الملتوية والحارات المستغلقة السابحة فى غياهب الظلمات ، وكلانا محلق فى أخيلته مشغوف بعالمه ، وخرجنا من تلك المتاهة إلى شبه ساحة لم يتوضح من معالمها إلا مآذن تشرئب بقاماتها المشوقة إلى العلاء ترعى السماء ، وقد تناثرت فيها النجوم المتألقة ، وكأن هذه المآذن تحاول أن تتخلص من عالم الظلام والصمت ، ووقف صديقى يحدق فى تلك المآذن السامقة ، وقد شغفت قلبه ، وإذا بصوت حلو النغم يشق ذلك السكون ، ونحن إليه بقلبينا نهفو ، مستمتعين بعذوبة ذلك الإنشاد ، ومضينا فى طريقنا ، وخيل إلينا أن المآذن كأن هاماتها تتقاصر ويد صديقى تلتمس يدى وتضغطها بين حين وحين » .

كان « جرمانوس » فخورا بصوره ، وقد أطلق لحيته ، وارتدى ملابس الإحرام

وأذكر أنى وفدت عليه يوما فى المثوى الذى ينزل به ، فإذا هو قد ألبس إحدى سيدات المثوى من الأجانب زيا عربيا تزينه العباءة والخمار ، ووقف يلتقط لها صورة ، وملامحه تفيض بشرا ، ومالبث أن قدمها لى على أنها أميرة عربية وافدة ، ولكن زوجها الألمانى بادر بكشف الحيلة لى وهو يقول : إنها لاتعرف العربية لغة ، ولكنها قرأت معى معلقات الشعراء العرب ومقامات الحريرى بالألمانية .

ولما توفيت زوجة « جرمانوس » ، وتزوج بعدها أخرى ، كان معتزاً بأن سماها « عائشة » ، وكان يتشدق باسمها ، وهو يُعرِّف ضيوفه بها ، ويقول إنها على مشربه فى كل ما يهوى .

و « جرمانوس » يعد خبيراً فنياً فى تذوق ألوان الطعام ، على اختلاف طرائفها فى الشرق والغرب ، لكثرة رحلاته وتنقلاته فى أرض الله ، وما أتيح له من فرص الضيافة على الموائد الرفيعة هنا وهناك . وهو على وفرة ما تذوق واستساغ لم يكن يؤثر طعاماً أى طعام على « الشواء » العربى المطهو فى السفافيد على الجمر ، وشد ما حرص على أن يكون له منه أوفر حظ فى أثناء مقامه بالقاهرة . ولو أتيح له أن يكون طعامه الأوحد لما لحقه منه ملال ، ولما لاحظت ذلك منه ، قال لى : من أحب قوماً أحب منهم أفخر ما يطعمون : سيد الطعام الشواء ؟

٤ — وفيمن عرفت من الناس من يحسنون عددا من اللغات ، منهم من يحسنها نطقاً وكتابة ، ومنهم من يكتبها ويتعثر فى النطق بها ، أو ينطق بها فإذا كتب استعان بغيره فأما «جرمانوس» فكان بدعا فيمن عرفت كان على علم بالإغريقية واللاتينية ، فهما من لغات دراسته الأساسية ، وكان يحسن العدد الجم من اللغات الحية وشبه الحية فى فى الشرق والغرب ، أكون معه فى مثواه فيتحدث إلى ربة المثوى باليونانية ، ويحضر صديق له فيكلمه بالفرنسية ، ونزور مستشرقا إنجليزيا فيتخاطبان بالإنجليزية ، وننتقل إلى رواق الأتراك أو تكية المغاورى فيجرى حديثه بالتركية مع شيخ الرواق أو دراويش البكتاشية : وفى متاجر التحف فى «خان الخليلى» يكلم صاحب متجر بالفارسية ، وفى حديقة الشاى الهندية يتكلم مع أحد عمالها بالأردية ، وفى البنك الإيطالى يصر على أن يتكلم بلغة البنك القومية : وفى سفارة المجر يتكلم بالألمانية مع هذا وبالمجرية مع ذاك . وأنا معه لا أفهم منه إلا أن يكلمنى بالعربية الفصحى : فإذا التقى برجل من عامة الناس فى المثوى أو فى السوق وكلمه الرجل بالعامية الدارجة ، تهشمت لغته ، وجف ريقه ، وضاقت أنفاسه ، لأنه لا يستطيع أن يفهم مايقال له بتلك العامية ، وكذلك لا يستطيع أن يقول بها ما يريد :

لم يكن «جرمانوس» يكره شيئا فى البلاد العربية كراهته للهجات العامية ، وقد أبى أن يكتسبها وأن يتأثر بها ، وكان يلقى فى سبيل ذلك عنتا ، فى مخاطباته لعامة الناس وكثيرا ما قال لى : شأنكم عجب : لكم لغتان ، لغة وأنتم وقوف تحاضرون وتخطبون ولغة وأنتم جلوس أو مشاة يتحدث بعضكم إلى بعض : وقد أراد أن يحضر دروس العربية فى كلية اللغة العربية بالأزهر ، وأذن له فى ذلك ، فحضر دروس أستاذ يسمى «غراب» ، وعز عليه أن يفيد مما سمع ، ففزع إلى شيخ الكلية ، يقول له : غريب من «غراب» أن يعلم العربية بالعامية وأدرك «جرمانوس» أن لغة الأستاذ عربية عامية معا وأنه لن يستطيع متابعتها ، وهو لا يعرف إلا الفصحى :

٥ — لا غلو فى القول بأن «جرمانوس» كان سفير «الدانوب» الثقافى إلى «النيل» استقبلته الهيئة المصرية لنادى القلم الدولى ضيفا عليها سنة ١٩٣٥م فتعرف هنالك إلى طائفة السيد وطه حسين وغيرهما ، وحاضر فى كلية الآداب بجامعة القاهرة وجامعة الإسكندرية ، وألقى بعض بحوثه فى «مجمع اللغة العربية» بالقاهرة بعد اختياره عضوا مراسلا فيه :

وأذكر أنه قبيل الحرب العالمية الثانية جعل من احتفالات السفارة المجرية بأعيادها القومية فرصة لدعوة الصفوة من الأدباء والمفكرين العرب فى مصر ، فكان قصر السفارة يومئذ يغص بعمائم الشيوخ مع سواهم من المطربشين والمتقبعين ، بينهم

الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ عبدالوهاب خلاف ، والشيخ عبد العزيز البشرى ومحمود تيمور ، وكامل كيلانى ، والدكتور محمد حسين هيكل ، والدكتور منصور فهمى والدكتور بشر فارس ، وزكى طليمات ، وزينب الحكيم ، والدكتور محمود عزمى ، وجمهرة من شباب الأدب والصحافة .

وبعد أن قدم «جرمانوس» كتابه المنشور بلغات متعددة «الله أكبر» تجرد لتقييم الأدب العربى فى العصر الحديث ، وتقديم نماذجه للمجتمع الثقافى الأوربى ، وكتب الفصول الضافية فى تقدير أقطاب الأدباء ، منها الفصل الذى كتبه فى تقدير « محمود تيمور» بعنوان «أستاذ الأدب القومى » ، والفصل الذى كتبه فى تقدير «كامل كيلانى» بعنوان «معلم الشعب العربى »،

وإن الزيارات التى قام بها « جرمانوس » لمصر كانت زاخرة بلقائه لأعلام الأدب وقادة الرأى ، يتدارس معهم مفاهيمه فى مجالات الفكر العربى ومذاهبه الأدبية ، معنيا بوجــه خاص بحركة التجــديد ومدى تأثرها بالمفاهيم العالمية فى الفكر المعاصر .

وكان «لجرمانوس» أثر فى ظفر المكتبة العربية بذلك الكتاب الذى وضعه الدكتور «محمد حسين هيكل» وسماه « فى منزل الوحى » واصفا فيه مشاهد بيت الله الحرام فإن «الوحى» فى «منزل الوحى» كان لفقيدنا «الحاج عبد الكريم جرمانوس» ، وما أقول هذا رواية عن الرجل ، وادعاء منه ولكن ذلك ماجهر به وسجله « الدكتور هيكل » فى مقدمة كتابه ، إذ أشار — على ما أذكر — إلى أنه كان يستمع إلى إذاعة أجنبية ، فاسترعى إنتباهه حديث «لجرمانوس» فى وصف الكعبة والحج ، وما لبث هذا الحديث أن أثار شوقه وبعث عزمه على أن يصنع صنيع «جرمانوس» ومن ثم أعمل قلمه فى تأليف ذلك الكتاب .

وكما كان «جرمانوس» معنيا بأن يقدم الأدب العربى بلغة قومه ، كان معنيا أيضا بأن يقدم باللغة العربية روائع من الأدب المجرى . ولقد كنت بجانبه ، وهــو يترجم قصائد متوهجة من ديوان شاعر الثورة المجرية الشاب «بتوفى» وكانت مجلة «المقتطف» حفية بنشر هذه القصائد المترجمة ، وذلك سنة ١٩٣٨م. وفيما بعد سنين طوال لاحظت أن إحدى المجلات التى خرجت عقب الثورة المصرية سنة ١٩٥٢م — ثورة ٢٣ يوليه كانت تنشر تلك القصائد المجرية للشاعر

«بتوفى» ، وذلك لما فى مطاويها من دعوة متلهبة إلى الحرية ، وإشادة عالية بالكرامة ، وانقضاض على الاستبداد والاستعباد والاستغلال :

٦ – عرفت فقيدنا الصديق الكبير «جرمانوس» زمنا يزيد على أربعين سنة رجلا كبيراً قلبه ، عاطفياً مترعه ، أقرب ما يكون إلى الفطرة ، وأبعد ما يكون عن التكلف .

رجل جد فى الدرس ، ودأب على البحث.

رجلا لازمته الحيوية حتى بلغ مائة عام بالتقويم الهجرى الذى هو تقويم دينه الإسلام :

هكذا عرفته :

قوته الحيوى : التعرف

وهدفه الإنسانى : التعارف

لذكراه تحية وسلام ،،،

محمد شوقى امين

عضو المجمع

